نَاس وَمُدن

سمير عطا الله

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عطاالله، سمير

ناس ومدن./ سمير عطاالله.- الرياض، ١٤٢٩هـ

٢٢٤ ص؛ ١٤ × ٢١ سم.

ردمك: ٣ -٣٩٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١. القصص القصيرة العربية - لبنان أ. العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٦٦ ١٨٩ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ١٨٩ / ١٤٢٩

ردمك: ٣ -٣٩٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ - ٢٩٣٧٥٨١ / فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض-العليا-تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤ / فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إكترونية أم ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي» أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى رجا الصيداوي

أخاً وصديقاً

المحتوى

الموضوع	الصفحة
أزهار ليلكية من أجل مارا	7
ذات مساء في روما	19
أثينا أثينا متى سقط الأماروسي على رصيف توباز؟	25
حكاية بطل الصيف	31
رسالة من مطاحن	53
نشرة الخامسة	57
كيف تتغير الدنيا	61
صحراء البندقية	65
جواز الانتظار	69
الشلال والصنوبر والدول الخمس	73
بارون الأمم	79
رسائل من الذاكرة الريفية	83
نيسان	89
سيدتي الجميلة... جداً	93
الرحلة إلى فلورنسة	97
الكون في عينها	21
مثل ذر الحصاد	89
هذا هو شاعري	93
حوذي بيروت	97

هاتف ونرد و... باراكالو! 7
اليتيم الذي تبنى الفرح 19
إلى جنوى... بالطريق المعاكس 25
نيويورك والحبيبة إلى مي 31
باريس: اليوم الأول 53
ثمة جزيرة على فم النيل 57
أيام المدرسة اليابانية 61
حكاية (أو حكايات) عمي رسيم 65
حكاية الحي اللاتيني 69
بيت على الميناء 73

أزهار ليلكيّة من أجل مَارا

كان يحاول بصعوبةٍ أن يضعَ قدمَيه الصغيرتين في المياه، عندما خُيِّل إليَّ أنه سيهوي في النهر وأن السين سيجرفُه هو وكلبه الصغير، فقطعتُ الخطوات القليلة نحوه قفزاً وأمسكتُ براحة كتفَيْه وشددتُ به إلى الخلف. وبدا أنه لم يكنْ يعي الخطر الذي كان يلفُه، فالتفتَ نحوي وأنا ألهث وقال بهدوءٍ: «إنّه طقس حارٌ اليوم، أليس كذلك»؟ ومضى يتمتمُ كلمات أُخرى، عندما قاطعته بحدّةٍ: «لقد كدت تسقطُ في السين يا سيدي من أجل قليل من البرودة، وإذا لم أكنْ مخطئاً فإنني قبل لحظاتٍ وقفت سداً بين الموتِ وبينك».

بقيَ العجوز الطيب الملامح على هدوئه، ثم مدّ يدهُ نحوي بعدما داعب كلبَه الصغير بحنوّ وقال: «برنار. اسمي برنار. ولكن نادني العم برنار إذا شئت. إنني يا بني أضعُ قدَمي في السين ظهر كلّ أحدٍ، وأبصقُ فيه، وأرمي فيه صحيفة البارحة. إنني لا أغرقُ في السين، بل أمخره إذا أردتُ، شكراً لك على أيِّ حال».

كانت تلك بدايةَ الحوار مع العم برنار، ضابط البحرية المتقاعد منذ سنين. وصرتُ كلما جئتُ إلى ضفاف السين ظهيرة كل أحد أمضي ساعةً كاملةً على الأقل مع العم برنار، وأحملُ قطعةً من الحلوى إلى كلبه الصغير، وأستمعُ إلى قليل من الموسيقى الكلاسيكية التي يحملها تحت إبطه، أو إلى ذكرياتِه في مرافئ العالم، حيث كان للعم برنار، في كلِّ ميناء، صديقة وملهى ومطعم يقدّمُ السمك الحار.

وصار الرجل المديدُ القامة الأبيضُ الشعر فصلاً من فصولِ العطلة الأسبوعية الباهتة. بل أصبحت منذ يوم الإثنين أتساءلُ عن نوع الطرفةِ التي سيحكيها العم برنار ظهر الأحد التالي. كان واضحاً أنه وحيدٌ تماماً، وأنه يعيشُ حياةً متواضعة جداً، كما كان واضحاً أن عالَمه لا يتعدى الموسيقى التي تنبعثُ من «فونوغرافه» العتيق، وتودّد كلبه الصغير إليه، والظهيرات المشمسة عند الحافة الخضراء من السين.

لكن العمّ برنار لم يكنْ يتحدثُ على الإطلاق عن الحاضر. وكان يبدأُ كل حديث بقولِه: «في أحدِ تلك الأيام»...

وإذا ما عاد إلى الحاضر، فلكي يشرحَ لي مقطعاً موسيقياً معيناً، أو ليطرح سؤالاً أو ليمتدحَ ساقَي عابرة شقراء. مع ذلك، كان حديثه ماتعاً دائماً، ربما لأنه لم يكنْ يتكلمُ والسيجارة في فمه مثل بقية الفرنسيين، أو ربما لأن ذكرياته كانت تبدو مثل أحلامٍ يتمنى المرءُ أن يعيشَها.

وبعد أسابيع وجدتُ أنني لم أعدْ أنزلُ إلى حافة السين لأصطادَ الفتيات الباحثات عن رفاق، بل إنني تخليتُ حتى عن تلك السطور القليلة التي كنت أكتبها في مفكرتي بعد ظهر كل أحد، وإذا ما كتبتُ شيئاً كان في الغالبِ رواية يتلوها العم برنار.

ظهيرة ذات أحدٍ فاجأني العمّ برنار بسؤالٍ ما كنت أنتظره «وأنت، أليس لديك ذكريات؟ أليس لديك أحلام؟ إنّك تستلقي هنا وكأنَّك ولدتَ لتوِّك من هذه الصخرة».

كان صعباً عليَّ أن أروي له ذكرياتي، فقد خشيتُ أن تبدو ضئيلة جداً أمام الذكريات التي عاشها هو، كما أنني كنتُ رجلاً دون أحلام، ودون آمال على وجه الضبط، والواقع أنني كنتُ أعيشُ قصة حبٍّ واحدة منذ

سنوات، وأنمو في داخلها مثل السلحفاة، تماماً كما كان العمّ برنار يشيخُ ضمن عالم الموسيقى. وكنتُ أخشى الحديث عنها حتى للعم برنار، مخافةَ أن أبدو ساذجاً، أو بعيداً عن رصيف العصر، كما كان أصدقائي يقولون.

لكنّه إذا أصرّ، رحتُ أروي له القصة بهدوءٍ وببطءٍ، محاولاً أن أنتقي الكلمات المؤثرة. قلتُ للعمّ برنار: «إنّ في حياتي قصةَ حبٍّ واحدة. كان ذلك قبل الحرب بقليل، وكانت باريس تعيش أياماً محمومة، مشحونة بالتوتر. وقد التقيتُ تلك المرأة بالصدفة في محل لبيع الحلويات. كانت جميلة ذات شعر يميلُ قليلاً إلى الأشقر، وكانت لها عينان بلونِ النحل، وكانت لها يدان أجمل من قوسِ قزح، وكان صدرُها عامراً مثل عناوين القصائد، وكان حديثُها مثل الشعر الذي يغورُ في مخيلات الشعراء ولا يجدون كلمات يكتبونه بها».

وتنحنحَ العمّ برنار ارتياحاً، ثم خفض صوت الموسيقى، وداعب ظهر كلبه الصغير، وقال مازحاً: «لو كنت مكانك لما خرجتُ أنا أيضاً من عالمِها هذا».

وخامرتني رغبةٌ قوية في التوقف عن الحديث، فقد رأيت خيالَها يقفز أمامنا في النهر، وصرتُ أراها في جميع الفتيات المستلقيات على حافةِ السين، لكنّ العمّ برنار أيقظني من جديد بلهجةِ الآمر: أكمل!

«كان ذلك قبل الحرب بأيام، على ما أذكر، وكان هناك حديثٌ كثير عن الحرب، لكنّ أحداً منا لم يكنْ يتوقعُها فعلاً، ولذلك سألتها ببساطة إن كان بإمكاني أن أراها مستقبلاً، فترددت قليلاً ثم قبلت. وفي اليوم التالي قابلتُها فعلاً. المعذرة، أيّها العمّ برنار، لكنني أعتقد أنني بدأت أحبُها منذ تلك اللحظة. ولم يكن لائقاً طبعاً أن أقولَ لها ذلك مع أنني مولعٌ

بالاعتراف أمام النساء. مساء اليوم نفسه اتصلت بها هاتفياً. وكان ذلك نقطةَ ضعف، وفي اليوم الثالث قابلتُها مرَّةً أُخرى. وأذكر أنني استعرتُ منها «قلم الكحل» لأكتبَ لها على فاتورة المقهى كلمات لا معنى لها. ومنذ تلك اللحظة، أعتقدُ، كتبتُ على نفسي أن أحبَّها كالأغبياء، كما في القصص، كما في المسرحيات التي نتفرَّجُ الآن عليها وتشعرُنا بالضّجرِ؛ لأنّها لا تُصدّق».

قاطعني العمّ برنار بغضب ظاهر «وهي؟ ماذا كانت تفعل؟ هل كانت تمارس فعل الاستحقاق لكل هذا الحبّ»؟

وأجبتُه ببساطة: «إنني لم أطرحْ على نفسي هذا السؤال من قبل أيّها العمّ برنار. لكنني أعتقد ذلك، أحبُّ أن أعتقد ذلك. على أي حال، بعد أيام صادفتْ ذكرى ميلادي، وقد ذهبتْ هي إلى حديقتها فاقتلعتْ بعض الأزهار الليلكيَّة اللون ثم زرعتها في ترابٍ من حديقتِها أيضاً، ووضعتْها في سلَّةٍ من القش، ثم لوّنَتْ سلّةَ القش وقدّمتْ لي الأزهار. وفي اليوم التالي وقعت الحرب، وذهبتُ سراً أودِّعها. وقلتُ لها: إنني ذاهبٌ إلى الصحراء. لقد اختاروا لي الصحراء. وقلتُ لها: إنني سأقتلع من واحات الصحراء كل يومٍ حجراً وأبني لنا منزلاً، وأنقلُ المنزل إلى رابية، وأضعُ الرابية على كتفِ نهر، وإنني سأعودُ من الصحراء، وأحملها بين ذراعي، وأطلي المنزل بلونِ عينيها، وأزرعُ الحديقة أزهاراً ليلكيّةً لا تموت».

«وكنتُ أكتبُ لها من الصحراءِ كلما استطعتُ، وذات مرّة أصبتُ في رأسي، وكنتُ أردّدُ وأنا غائبٌ عن الوعي: مارا. مارا. أزهارٌ ليلكيّةٌ من أجل مارا. وكنتُ أقول لرفاقي: إنني أموتُ حزناً كل مساءٍ يطلُّ ولا تطلُّ مارا. وكان الرفاقُ يشربون البيرة ويضحكون».

«وعندما انتهت الحرب وعدتُ إلى باريس لم أجدها، كانت مارا قد رحلت. وقد حملتُ جميع الأزهار الليلكيّة التي وجدتُها في طريقي ورميتُها في هذا النهر».

وبعدما انتهيتُ من حديثي تطلعتُ في العمّ برنار فرأيت معالمَ الحزن ترتسمُ على وجهه للمرّةِ الأولى منذ عرفته، وأطفأ الموسيقى ثم قال لي بحدتِه النادرة:

«إلى أين رحلتْ؟ لماذا لا تلحقُ بها»؟

ببساطة أيضاً أخبرتُ العمّ برنار أنّها سافرتْ إلى أقصى الشمال الكندي، إلى فانكوفر، وأنني لا أعرفُ عنوانَها الفعلي، ولا أعرفُ شيئاً عنها منذ ذلك التاريخ. واعتقدتُ أنني سأنهي بذلك تساؤلاته.

لكنه بدلاً من ذلك ازداد حدةً وقال: «يجب أن تسافر إليها الآن. إنّ السلحفاةَ نفسها تمشي بينما أنت تجلسُ هنا على حافةِ السين ترقبُ المراكب بدلاً من أن تكونَ على ظهرها».

أيّها العمّ برنار الطيّب، قلتُ له، إنني لا أملك ثمن الركوب على ظهرِ باخرة، ولا أعرفُ عنوان مارا، ولا ما حلّ بها، وإن فانكوفر بحجم فرنسا كلّها، ومارا بحجم أيّ امرأة أُخرى، فمن نسألُ عنها هناك»؟

لم يسمعْ العمّ برنار جيداً. عادَ إلى موسيقاه مرّة أخرى، وراقب الصحفَ المرميةَ في السين، ثم تطلّعَ فجأةً إليَّ وقال: «ما رأيك لو دبّرنا رحلةً إلى فانكوفر»؟

«أيها العمّ برنار الطيّب، عدتُ أقول، إنني أملكُ ما يكفيني معيشة يومين فقط، فكيف تريدُ منّا الذهابَ إلى فانكوفر»؟

وفكّرَ العمّ برنار قليلاً ثم قال: «سوف أبيعُ ما لدي في المكتبة الموسيقية، ثم تترك غرفتك وتأتي لتعيش معي، ونقتصد في كل شيء حتى الخبز، وأجمع أنا تقاعد شهرين كاملين بينما تجمعُ أنت راتب شهرين. ثم نستقلُ أول باخرة إلى مونريال، ومن هناك نستقلُّ القطار إلى فانكوفر، ما رأيك»؟

أمضينا الشهرين التاليين، العمّ برنار وأنا، نأكل الجبنة ذات القشرة الحمراء، ونشتري للمساء بعض الإجاص الجاف الطعم، الآتي من الجنوب الفرنسي، ونقرأ صحيفة واحدة، ونشرب، بدلاً من النبيذ الأحمر، ماء الحنفية الصدئة في غرفة العمّ برنار، الواقعة في قليب شارع «لوكلير» في الدائرة السابعة، الذي يتحول في النهار إلى سوق لبيع الخضر والسمك.

عندما صعِدنا سلمَ درجِ الباخرة الإيطالية في «الهافر» كان العمّ برنار يتمتمُ لنفسِه: «سوف أتدبّرُ الأمر. سوف أتدبّرُ الأمر». ولم أعرف ما يقصد إلّا في اليوم التالي عندما أمر قبطان الباخرة، ذو الشاربين الأشيبين، بنقلنا من على ظهر السفينة إلى ترف الدرجة الأولى. وصرنا نجلسُ كل مساء ضيفَين إلى مائدةِ القبطان، يقدّم لكلينا أفخر النبيذ الأبيض.

وقد اكتشفتُ فوراً أن القبطان لم يسمحْ، من أجل شرف البحرية، أن يبقى ضابطٌ سابقٌ على سطح الباخرة (ولا رفيقه طبعاً). ولم يكنْ القبطان الصديق الوحيد للعمّ برنار خلال الرحلة. فقد كان المسافرون ينادونه جميعاً باسمه، وكان يراقص العجائز والشابات على السواء كل

مساء، كما أقنع عجوزاً أميركية ثرية بأن تشتري لنا بعض الهدايا من سوق السفينة. وكدنا ننسى لبرهةٍ أننا نقومُ بالرحلة كلها من أجل مارا، وأن العمّ برنار كان يبيعُ مكتبتَه الموسيقية وهو يبكي حزناً عليها. بل إنّه صاحَ بوجهي ذات مرّة عندما شاهدني ساهماً في حلبةِ الرقص، فاقترب مني مع عجوزه وقال بصوتٍ عالٍ: «أعتقدُ أنك بكيتَ في حديقةِ مارا تلك الليلة ما يكفي لإفاضةِ هذا البحر، فلماذا لا تضحكُ وأنت ذاهبٌ إليها»؟

بالطبع لم أستطعْ أن أضحك، ولم أستطعْ أن أكملَ الرقص مع تلك الألمانية التي كانت تشحنُ سيارتَها معها إلى مونريال. وعندما لحقتْ بي إلى جسر الباخرة تسألني عمّا حدث، قلت لها ببساطةٍ: إنني شاهدتُ قبل الظهر فراشات تحوم حول السفينة في وسط المحيط، وإنني بدلاً من أن أسألَ نفسي كيف يمكن أن يصل الفراش إلى أعالي المحيط، كنت أتساءل إذا كان ثمة أزهار ليلكية في فانكوفر أحملها معي إلى مارا. وخُيلَ للألمانية أنني أهذي، فعادت إلى الرقص، تبحثُ عن قاتلٍ آخر للوقت، بينما توجّهتُ إلى الغرفةِ لأكتبَ واحدةً من تلك الرسائل الصحراوية التي كنت أكتبُها إلى مارا تحت وطأة القتال مع البعد عنها.

وخُيلَ إليَّ ساعةَ نزلنا رصيف الميناء في مونريال أن العمّ برنار تخلى عن الموسيقى وعن مارا وعن الصداقة التي نشأت عند الحافة الخضراء من السين. كان يريد أن نبقى هناك ثلاثة أيامٍ على الأقل، وكنت أصرّ على أن نستقلَّ القطارَ إلى فانكوفر، وأخيراً قررنا أن نمضي ليلةً واحدةً في مونريال، بعدما أقنعته أن ما معنا لا يكفي للتنقل على الأرصفة المليئة بالأسماء المضيئة.

وفي فانكوفر وفَّر عليَّ العمّ برنار السؤال: الآن، مَنْ نسأل عن مارا؟

كان آخر الخريف قد هبط على فانكوفر، وسقطت معه الثلوج على الغابات وعلينا. وبعيداً عن العجوز الأميريكية وهداياها بدأ العم برنار يشعر بالصقيع. وقد أمضينا عشرة أيام نتسكع في الشوارع، وننام في غرفة نظيفة في أحد الفنادق الرخيصة. وقد سألنا عن مارا في كل مكان وصلنا إليه، وفي كل مرة كان العم برنار يكلفني أن أعطي أوصافها كاملة، وإذا أغفلت شيئاً ردد هو بحدة: «عيناها بلون النحل»، أو قال بعصبية: «لها صدر ناهد مثل عناوين القصائد». وكان الناس يضحكون علينا ويمضون أو نمضي.

وكدنا نيأس نهائياً ونعود إلى الحافة الخضراء من السين، لو لم يستوقف العم برنار ذات مساء راهبة كهلة في عرض الرصيف، ويتلو عليها القصة من أولها ويعطيها جميع أوصاف مارا. وسهمت الراهبة قليلاً ثم تطلعت إليه وقالت بتواضع: إذا لم أكن مخطئة فإنها أصبحت صاحبة المطعم القائم في غابة باكس على الطريق إلى روبرتس غاردنر.

وما كادت الأخت العجوز تنهي كلامها حتى وقفت في مكاني مصاباً بالذهول. لم أعد أريد في الواقع أن ألقى مارا!

إن مارا موجودة إذن. في الغابة. في مطعم. في حانة. لا يهم، لقد سقطت مارا من الحلم، سقطت بين ذراعي رجل آخر، وسقطت معها كل المغامرة الطويلة بدءاً من الضفة الخضراء على السين. كان يجب أن تظل حلماً، أن تظل المتعة الوحيدة والأمل الوحيد والحب الوحيد الذي يستمر في النمو فيما أستمر أنا في التقوقع.

وقد أيقظني العم برنار من حالة الذهول بوحشية. عرف بحدس الرجل أنني وقفت هناك أستسلم للحزن واليأس من جديد، فصرخ في وسط الشارع بلؤم غير معهود: أرى أنك قد جبنت الآن أيها السيد. تراك اخترعت حكاية الأزهار الليلكية والبكاء في الحديقة والحرب؟ حتى الحرب اخترعتها أيها السيد. لقد بعت مكتبتي الموسيقية من أجل لقاء بين رجل التقيته على ضفة السين وامرأة لم أرَ وجهها، وها أنت تقف في قلب فانكوفر، أمام مخزن بليك وشركاه، قرب الشارة الكهربائية الثالثة في شارع ستيورات أندروز، لا تريد أن تتحرك ولا أن ترى مارا.

بلى، تحركت بصمت. وأذكر الآن أنني كنت أمشي وأنا أحكّ بلاط الأرصفة بقدمي، وكان العم برنار صامتاً أيضاً. وفجأة شعرت نحوه بكراهية لم تخامرني في حياتي، وكنت أتطلع إليه بطرف عيني، فأرى فيه جزاراً يأخذني إلى المسلخ ببرودة.

وقد انتظرنا ساعتين قبل أن يتحرك بنا الأوتوبيس الرمادي اللون نحو مطعم استراحة الغابة. وكان الأوتوبيس فارغاً إلا من أربعة أو خمسة من الكنديين الذين بدا من وجوههم أنهم يتحدرون من أصل إيرلندي.

وتقدمتُ العم برنار إلى المطعم متلكئاً. محني الرأس. كنت أخشى أن تطلع مارا من أي مكان، من السقف، من الجدران، من تحت المقاعد. لقد قطعت العالم من أجل رؤيتها، لكن مارا الآن ليست في حديقتها، ليست بين أزهارها الليلكية، ليست في حديقتي.

كان المطعم الصغير خالياً. وعندما دفعت الباب، رن جرس عتيق مربوط بالباب الخشبي، وأسرعت نحو إحدى الطاولات المغطاة جميعها بشراشف بيضاء مربعة بالأحمر، وجلست عندها محاولاً أن أخفي ارتجافي، بينما كان العم برنار يتطلع في أرجاء المكان بحشرية وترقب، ثم جلس على كرسي قبالتي دون أن ينظر إلي.

ومرت لحظات دهرية، قبل أن يفتحَ الباب الداخلي الصغير، فأطلت ذراع ظاهرةٌ عروقها، ثم أطلت مارا، ببطءٍ، على غير عادتها. وحاولتُ أن أقفَ فلم أستطعْ، وكذلك العمّ برنار. ولم تتطلعْ إليَّ في بداية الأمر، بل نظرتْ إلى العمّ برنار ثم قالت بهدوءٍ: «ماذا أستطيعُ أن أقدمَ لكما»؟

وقلتُ بصوتٍ شبه مسموع وأنا أحاول أن أقفَ من جديدٍ: «مارا، ألم تعرفيني بعد»؟

تطلعتْ مارا نحوي، كانت عيناها لا تزالان بلون النحل، وكان صدرها قد خبا قليلاً، وتغيَّر لونُ شعرها وطولُه. وارتدّت قليلاً إلى الوراء، دون أي انفعال، ودون أن ترتسم على شفتَيها تلك الابتسامة التي جعلتني أبقى حيّاً طوال الحرب في الصحراء، وقالت، بصوتٍ شبه مسموع أيضاً: «هذا أنت»؟

هذا أنا! لم أجب. لم يتكلمْ العمّ برنار. وعادتْ مارا، بكل شجاعتها القديمة تسألُ من جديد: «أهلاً. هل أنت مارٌّ من هنا، بالصدفة؟ ماذا جئتَ تفعلُ في فانكوفر»؟

بالصدفة؟ في الغابة؟ في استراحةِ الغابة؟بالصدفة؟ وقفتُ منتفضاً، مددتُ يدي، أمسكتُ بهما يد مارا اليمنى وحاولتُ أن أقبلها، فسحبتها بهدوء وبرودة. لم يقلْ العمّ برنار شيئاً. لم يروِ لها الحكاية منذ الضفة الخضراء على السين حتى غابة فانكوفر. الآن لم أعدْ الجبان الوحيد بين الاثنين.

وفي لحظات بدا كل شيءٍ بلونِ الثلجِ التي تغطي الأشجارَ الخضراءَ في الخارجِ بلونِ الأشجار. بدا كلُّ شيءٍ بلونِ العبث. بدا كلُّ شيءٍ بلونِ الحياة قبل أن أعرفَ مارا.

وقلت لها، منهزماً، مكسوراً: «مارا، لقد جئتُ إلى هنا بحثاً عنكِ، إنني لا أريدُ شيئاً. كنتُ أحبُّ أن أحملَ لكِ باقةً من الأزهار الليلكية، وأن أراكِ من جديدٍ قبل أن تغطي غيوم السنين صورتك في عيني».

«إنني ممتنة لذلك»، قالت مارا. ثم مسحت الطاولة بحركةٍ عصبيةٍ وقالت: «والآن، ماذا أستطيع أن أقدمَ لكما»؟

وكاد العمّ برنار يهتفُ طالباً زجاجةً من النبيذ الأبيض وقليلاً من السمك الحار، وينسى أن المرأة في وسطِ الغابةِ في غمرةِ الثلج هي مارا التي أرى خيالَها في السين كل لحظة. لكنني نهضت واقفاً، متثاقلاً، بينما اندفع عبر الباب الداخلي ولدان صغيران، يتبعهما زوج مارا، وقد ألقوا التحيَّةَ بمحبةٍ، وسألها الرجل إن كنا قد طلبنا أيَّ شيء، لكنني أسرعتُ في الخروج دون كلمة، وتبعني العمّ برنار وهو ينظرُ إلى الوراء. أما مارا فقالت بهدوء للعم برنار: «إنك نسيتَ قبعتَك».

وطفقنا نمشي في الغابة من جديد. كان كلانا صامتاً مثل ليل الغابات، إلى أن أمسكني العمّ برنار بكتفي مستوقفاً، وقال وهو يئنُّ من البرد: «لدي اعترافٌ لم أجرؤ على أن أتلوهُ عند الحافة الخضراء من السين. إنني يا صديقي لم أكنْ في حياتي ضابطاً في البحرية، ولا نفراً، ولست أجيد حتى السباحة. إنني منذ تركتُ التعليمَ في إحدى المدارس الصغيرة، أجمعُ الأموالَ وأشتري الموسيقى. ولم أعرفْ ميناءً ولا امرأةً غير واحدة كانت تشبه مارا، وكانت عيناها بلونِ النحل، وكان صدرُها مثل عناوين القصائد».

ذات مَساء في رُومَا أصيبَ العَالم بجنون حَاد كالنصْل

يصعب جداً تصور المشهد من خلال الكلمات، فإن بعض الأشياء تحدث أمامك، وتظلُ على الرغم من ذلك شيئاً من اللاواقع. بعض الأشياء أحلامٌ تراها ولا تصدِّقها، تراها فلا تحدّها قدرتُك على الرؤيا ولا تعيها طاقتُك على الوعي.

كيف تقولُ مثلاً: إنَّ العالمَ أُصيبَ بالجنونِ هذا المساء بالذات؟ إنّ كلَّ ما قيلَ عن جنونِه من قبل، كان مجرد تكهناتٍ بأنّ العالم قد يجنُّ، ولا يعودُ هو العالم.

كانت الساعةُ السابعة تقريباً، والشمسُ لا تزال تشرقُ على تلالِ روما التاريخيّة السبع، وكان تمثال السيدة العذراء يرتفع عتيقاً فوق البياتزا دي سبانيا، وأبواب «مجمع تبشير الشعوب» التابع للفاتيكان، في الساحة نفسها، مغلقة. وبائعة الورد الأحمر على قعر درجِ الإسبان تنقعُ في المياه ما تبقى من ورودها، والسياح الأميركيون يلتقطون صوراً للناس والأحياء لا روح فيها. وكان الإيطاليون يعودون من أعمالِهم إلى بيوتِهم حيث يتجمدون أمام التلفاز.

من الساحة نفسها يرتفع درجُ الإسبان، وفي أعلى الدرج كنيسة أخرى بناها أحد ملوكِ فرنسا. فروما كانت مملكة البابوات يوم كانوا ملوكاً، وقبل أن تحسمَ المسألة جيوش الوحدة في مثلِ هذا الشهر من مئة عام تماماً.

أمّا الدرج الرخامي نفسه فهو قائمٌ بشكل نصف دائري، له مدخلان من فوق، يتسع عند منتصفِهِ، ويضيقُ عند الطّرفِ الأعلى، ثم يعودُ فيتّسعُ عند النهاية السفلى.

كانت الساعة السابعة تقريباً، حاولتُ أنْ أعدَّ الدرجَ فلم أستطعْ. كان مغطى. كان مغطى بالأجساد. كان مغطى بحيث يصعبُ على أنسي الحاج نفسه أن يمرَّ صاعداً إلى الفياسيستينا ومنها إلى عالم الفيافنتو، حيث يتنشّقُ المرءُ نساء أنفاس النساء وعطور النساء وصدورهن المحمولة على أعين المارة أو على أعين الجالسين في مقاهي الأرصفة، وهم مشدوهو الأعين كالفقراء أمام الواجهات المستحيلة.

عفواً، الدرج.

كان مغطى بالأجساد. وكان تمثال ذات الحبل بلادنس الذي قدمته الإمبراطورية الإسبانية لروما، لا يزال مضاءً بالنور والنعمة. مئة أو مئتان أو ثلاث أو أربعمئة شاب وشابة. بعضهم يحمل قيثارات تحكي، وبعضهم يحمل قيثارات مثل كراسي الاعتراف. آخرون يبيعون اللوحات، آخرون لا يبيعون شيئاً، ويستلقون على صدور رفيقاتهم بينما تستلقي سيقان رفيقاتهم في العري. آخرون ساهمون، وآخرون آخرون.

وكان يجمعُ بينهم شيئان: درجُ الإسبان والعالم، عالمهم، عالم لا علاقة له بالعالم، لا علاقة له بأي شيءٍ ولا علاقة له إلّا باللحظة، اللحظة إذا كانت موجودة، لأنّ ثمةَ محاولة دائمة للفرار من اللحظة نفسها.

وقد رأيتُ العالمَ يمرُّ من تحت أقدامهم وهو يرقص، وهو يدخّنُ الحشيش ويطلق الصراخَ والعواءَ والمواء، رأيتُه يُصاب فجأةً بجنونٍ حقيقي حاد. هذا المخيّمُ الذي لا سقف له يعيشُ فيه أُناسٌ يشبهون الجنود الذين أُصيبوا في المعركة، بدلاً من الرصاص، بجنونِ الدّم، وبالشهوةِ إلى القتل.

يقولون: إنّ هذه مجرد طريقة أُخرى للهرب من العالم، للهرب من عبثية الحياة. العبثُ بالعبث. اللاشيء باللاشيء. اللانتيجة بالنومِ على درجِ الإسبان وبعزفِ قيثاراتٍ لا أوتار فيها، وبالنوم على صدورِ رفيقاتٍ لا مكان يغتسلنَ فيه.

يقولون: إنّ هذه طريقة للثورةِ على التقاليد، طريقة للخروجِ من سيطرةِ الآباء والأُمهات. لكنْ ألمْ يكن ذلك الأب أسعدَ حظاً عندما تسلى بصدرِ رفيقته فوق سريرٍ مريح، ولم يبع الأشياء المسروقة ولم يحششْ، على الأقل، في الهواءِ الطلق؟

هؤلاء الأصدقاء لا يعرفون حتى الآن أنهم لا يغيرون شيئاً على الإطلاق. لا يعرفون أنّ شاباً واحداً من ساكني درج الإسبان يستطيعُ أن يهدمَ تمثال العذراء في البياتزا دي سبانيا لكنهم، مجتمعين، لا يستطيعون صنعِ إصبع برونزية واحدة من أصابعه. ولا يعرفون أنّ أخطاء الماضي وفضائلَه لا يغيرها أيُّ شيءٍ، وأنّهم لم يضعوا حجراً واحداً في أيِّ مكان، وأن «قوّة الزهرة» التي ينادون بها لا يمكن أن تحلَّ لهم حتى مشكلة العشاء في البياتزا ديل بوبولو... فكيف بمشكلات العالم ورداءةِ العالم ووساخِته وتفاهتِه وسذاجتِه؟

«اصنعوا حباً لا حرباً» يقولُ عالم الهيبيين، لكنّ الحبَّ لا يحلُّ سوى مشكلة الصديقة الصغيرة العارية الساقين، التي لا تجدُ مكاناً تغتسل فيه ما دام البحرُ يبعدُ 30 كيلومتراً عن درجِ الإسبان.

الساعة السابعة تقريباً. لا شيء يجري خارج درج الإسبان، حشيشٌ وقيثاراتٌ بشعة الصوت، والرجال الذين والرجال اللواتي والنساء اللواتي والنساء الذين. وبائعُ المرطبات العجوز في أعلى الدرجِ يتفرجُ على عالم لم يكنْ قائماً زمن شبابه. والنساءُ الإيطاليات اللواتي يمررن في الطريق العلوي أو الطريق السفلي يحاولن أن يسرعن الخُطا كي لا يشّم أطفالُهن رائحةَ الحشيش.

إلاّ أنّ العالمَ يسير. يسيرُ إلى أقصى الحزن علّهُ يجدُ هناك السعادةَ التي ثمة من وعدَه بها خارج الحزن.

ويتساءل المرء: كيف يستطيع هؤلاء أن يكونوا في روما ويعيشوا خارجها؟ كيف يعطى لهم أن يعيشوا في أجمل إطارٍ بشري وحجري في العالم، ثم يغلقون باب درج الإسبان على أنفسِهم؟ كيف يمكن للماء أن يتفجّرَ من كل مكان، لاسيما من الزوايا الأربع في فياكواترو فونتانا القريبة، وتظلُّ الرفيقات الصغيرات دون اغتسال؟

لكنْ لا بدّ أنْ نقنع أنفسنا في النهاية بأن ثمةَ شيئاً لا نفهمُهُ تماماً، وأنّ «شعوبَ» درجِ الإسبان، مثل رفاقهم الذين ينامون على ضفافِ السين أو في الهايد بارك، أو مثل أسلافهم محبِّي التشرد (الكلوشار) في باريس، يعرفون أشياء لا نعرفُها ولا يمكنُنا أن نعرفَها.

على أيِّ حال، العالمُ متعبٌ خارج درجِ الإسبان. متعبٌ حتى في روما. وهو عالمٌ عبثي حيث لا قيثارات بشعة، ولا أشياء مسروقة معروضة للبيع.

في الواقع إنّ ثمةَ أجساداً معروضة للبيع خارج درج الإسبان. نساءً ورجالًا! لويجي وبيانكا. جيوسبي وبرونا. والذين يفضلون جنسياتٍ معينة، يقدّم لهم الفيافنتو طقماً كاملاً من الأسوجيات وأنواعاً محددة من النمساويات والزنجيات المبالغات في الطرافة، شكلاً لا لوناً.

ليلُ روما غريب، فهو ليس مثل ليل باريس موزّعاً على أربعة أمكنة موزّعة جغرافياً توزيعاً عادلاً ومريحاً، بقدرِ ما هو مثل ليل لندن، محصورٌ في منقطة معينة: الفيللا بورغيزي لطبقة أقل ثراء والفيافنتو للطبقة المتوافر لديها الثراء. ومع هذا فلا شبه مطلقاً بين سوهو وفيافنتو. هنا يتمُّ معظم العرض والطلب في الشارع لا في الملهى ولا في المقهى. وأكثرُ الفنادق هيبة يحول المساء ردهاتها إلى تظاهرة جدّية للجميلات الجاهزات الخاضعات لقوانين الاستسلام.

ذلك أنّ روما مثل لبنان (عفو التشبيه والفوارق) مدينة تقوم على الخدمات العامة: المصارف والآثار والمتعة. على أنّ كلّ شيء هنا يقدّمُ بتلك الطريقة الجذابة التي اشتهرَ بها الإيطالي على العصور. وكل شيءٍ يجعلُ المرءَ يغرمُ بإيطاليا وبنوعِ الحياة السهلة التي توفّرُها للمتعبين.

إذْ إنّ روما، قبل أنّ تكونَ الفافنتو والفيللا بورغيزي، هي أيضاً العاصمة الغربية الوحيدة التي لا تزال توفّرُ الاسترخاء. وعلى امتداد النهار والليل هناك دائماً أُناس يتفيأون أوْ يتشمسون. وهناك عددٌ كبيرٌ من الأميركيين أوْ الإنكليز وحتى الفرنسيين الذين أُحيلوا على التقاعد فجاؤوا يمضون بقيّة حياتِهم في عاصمةِ «الحياة العذبة».

ولأنّ المدنَ عندما تكبرُ تصبحُ مختلفة الوجوه، وتصبحُ حاشدةً بجميع أنواعِ البشر والظواهر البشرية، فإنّ روما مؤهلة أكثر من غيرها لأن تضم تلك العناصر الطريفة التي يخيّلُ إليك أنّهم يخترعونها اختراعاً في أفلامِ الموجةِ الجديدة.

ومقابلَ عشرات الأميركيات اللواتي يعرضن أنفسهن للبيع المجاني أمام الاختصاصيين الطليان، كان يجلسُ إلى جانبي في «الكافي دو باري» أمس ممثل أميركي متقدّمٌ في السن، «يعرض» نفسه على منتجة إيطالية أجمل ما فيها كلبها الصغير.

كان الرجلُ، الذي لفظته هوليوود على الأرجح، يعرض على المرأة مجموعةً كاملةً من صوره في أفلام مختلفة قامَ بتمثيلِها، وكانت المرأة تهزُّ برأسِها طلوعاً ونزولاً ويميناً ويساراً، والشيءُ الحاسمُ الوحيد الذي قالته خلال المقابلة هو أن طلبت إلى كلبها أن يكفَّ عن النباح، فلم!

الأميركي واحدٌ من عشرات. ممثلون لفظتهم هوليوود بعدما حصلوا على مقدارٍ معين من الشهرة، وممثلون لفظتهم قبل أنْ تعطيهم أيَّ فرصة، وشبان يريدون الدخول إلى هذا الميدان، جاؤوا جميعاً يدقّون أبواب روما بحثاً عن بدايةٍ جديدة. واحدٌ من مئةٍ يدخلُ، والباقون يظلون على أسوار روما.

الذي يربح روما من المرّةِ الأولى ودون أيِّ عذابٍ هو الذي يربح جميع المدن بالطريقة نفسها: المال. لا مكان للفقراءِ حتى في البياتزا ديل ريبوبليكا حيث يعطى «الذين لا يملكون» فرصةَ الاستماع إلى الموسيقى المنطلقة من المقاهي دون أن يُعطوا نعمةَ الجلوس فيها.

حتى مباني «الأونيتا»، جريدة الحزب الشيوعي، لم يعدْ لها علاقة بالفقر. إنّها أكثر حداثة من مبنى «الديلي إكسبريس» في لندن، بل أكثر حداثة من مبنى «إيل ميساجيرو» في فيا تريتوني، مع أنّها لا تبيعُ أهل روما أكثر من 60 ألف عدد في اليوم.

لقد دخلتْ روما دوامةَ الثراء ولم يعدْ بإمكانها أن تتراجع. ودخلتْ جيداً عالم الجنون الحديث وأصبحت تصدّر الجنونَ مع التحيات والتمنيات الطيبة لمن كان يحلمُ بعالمٍ آخر، يكون فيه بعض العقل، على الأقل عندما يكونُ ذلك مطلوباً.

أثينا أثينا مَتى سَقط الأماروسي عَلى رَصيف توبَاز؟

ما بين أثينا وبيني لا يعني أحداً. مجردُ علاقةٍ خاصة جداً بين رجلٍ ومدينة. بين رجلٍ ومجموعة من الشوارع والناس والمقاهي وآلات البوزوكيا التي كانت ابتسامة زوربا الساخرة من العالم.

ما بين أثينا وبيني لا يعني أحداً بالطبع. فالعلاقةُ بيننا ليست «حضارية» ولا «ثقافية». وهذه زيارتي العاشرة، لكنني لم أطلع إلى الأكروبول مرة واحدة بعد. اكتفيتُ من الآثار بما أراهُ من عند مطعم أتالوس في البلاكا، حيث تشعُّ أضواءٌ ساحرة على القلاع في أعلى الجبل كل نصف ساعة، فيلتقطُ السياح من تحت، وتلتفت رفيقةُ السهرة. فألتفتُ. وهذا كلُّ شيء. بما أن الميثولوجيا الإغريقية لا تزال حيَّة في الأشخاص فلماذا الذهاب إلى المتحف أو العودة إلى الكتب؟

لا أجمل من العلاقة البسيطة بين رجلٍ ومدينة. لاسيما إذا كانت مدينةً من هذا النوع: خليَّةَ نحل لكن تقدس الكسل، أي: الحياة. وثمةَ نص قانوني يحظر «الطرطقة» بعد الظهر تحت طائلة العقاب الشديد. فالأثيني يعمل قبل الظهر، وينامُ من الثانية إلى السادسة أو السابعة عندما يطلعُ عليه فجر الليل، فيستحمُّ ويحمل حنجرته وساقيه ويذهب إلى «التافيرنا» حتى يطلعَ عليه فجر النهار. ممنوعٌ «الطرطقة» بعد الظهر. الجميعُ ينامُ والقانون إلى جانبِهم.

هذه المرّة مثل كلِّ مرّة: عندما تعرفُ ماذا تريدُ من المدينةِ بالضبط تعرفُ كيف تحصلُ عليه. وأثينا لا تخون ولا تفشل. إنّها نادراً ما تُمطر في الصيف، لكنّها لا بدّ أن تمطر مرّة واحدة من أجل العاشق الساذج. أمطرت، كنا نتغدى في الدلفي، وهرعت جميع الجميلات اللواتي كنَّ في الخارج إلى الاحتماء. ليس أجملَ من الوحولِ على سيقانِ الأثينيات.

كلَّ صباح يسألني أرسطو، موظف الاستقبال في اليكترا: «ألن تشتركَ في الرحلة إلى... اليوم؟» و«هناك برنامجٌ حافلٌ تنظِّمه الأولمبيك بعد غد، هل أسجلك؟». وكل صباح أشير إلى عجوز أميركية ما، في بهوِ الفندق وأقول لأرسطو: «لماذا لا تسجّل تلك الحسناء التي في الزاوية؟» وعندما يمرّ الأصدقاء بالفندق في العشية يقولُ لهم الموظفُ الآخر فاسيلي: «يجب أن تأخذوه إلى مكانٍ ما، إنّ هذا الرجل يأتينا كلّ سنة، ولم يذهب إلى الليكابيت بعد».

لا يهم. الأصدقاء على الأقل يعرفون أين أذهب. نعمةُ الكسل - أي: الحياة - تحلُّ كاملة، على منطقةٍ تمتدّ من ساحة الدستور إلى البلاكا شمالاً ومن الساحة إلى أومونيا غرباً، إلّا إذا اكتشف أحدُنا تافيرنا مثيرة في الضواحي حيث يقدّمون صحوناً يستطيعُ المرءُ أنْ يكسرَها، إذا شاء إحياء التقاليد اليونانية، على الرغم من أنّ القانون الذي صدر قبل عامين ألغى نشوة تكسير الصحون.

ما بيني وبين أثينا لا يعني أحداً. فأنا لم آتِ إلى هنا صحافياً أكتبُ ما يحلو للآخرين أن يقرؤوا. وكاد الكسل يمنعني من زيارة الزميلين فابيان كومب («وكالة الصحافة الفرنسية») وجون ريغوس من «اليونايتدبرس»

لولا أن مكتبهما في شارع واحد تقريباً، ولولا أن شارعين فقط يفصلان بين مكتبهما وفندقي. والحديث ماتع مع لاكومب، لأنّ الرجلَ هو الذي يتكلّمُ دائماً. يعرفُ أنك هناك لكي تطرحَ أسئلة، ويعرفُ طبعاً ما هي الأسئلة، فيداعب لحيته الصغيرة ويغرّب بعينيه ويبدأ حديثه دائماً بالقول: «إنني ديغولي كما تعرف»، ويشير بيدِه الطويلة إلى رسالةٍ من الجنرال معلّقة على الحائط ثم يقول: «وأنا أؤيّد بابا دو بولس كما تعرف». وتحليلُ لاكومب مثير. لكن لا جديد سياسياً في أثينا.

تنزلُ من شارع بوخارست إلى عند تاجر الأيقونات. تتأملُ، تدّعي أنّك ستشتري. تقولُ إنّك ستعود. لكن التاجرَ يعرفُ بفراستِه أنّك تشتهي ولا تملكُ أن تشتري. ومع هذا يبقى مهذباً. ويودِّعك بلياقة.

هذا وقتُ الظهر. عند الظهر يمارسُ العاشق الساذج طقساً مقدساً. يذهبُ إلى عند «توباز» لتناولِ الغداء على الرصيف. يجلسُ إلى طاولةٍ واحدة مع أماروسي.

من هو أماروسي؟

رجلٌ طويلُ القامة، ضخمُ الجثة، أصلع، وسيمُ الكهولة. وهذا كلُّ شيء. لكن الأماروسي من ذلك النوعِ من الرجال الذين يمرون في الحياة مرّة واحدة. في أثينا وغير أثينا. كان يمكن أن يكونَ من أكبر شعراءِ الأرض أو من أكبر فلاسفةِ الأرض أو من أكبر كتّاب الأرض. لكنّه لم يكتبْ كلمةً واحدة. يجلسُ عند توباز، يبدأ غداءه بزجاجة من البيرة، ويتحدّث إلى أي كان. يتحدّثُ في كلِّ شيء. في الفلسفة والشعر والعلم والحياة. تسألُ ويجيب. عن كلِّ شيء.

اكتشف صحافي إنكليزي قبل ثلاث سنوات أنّ الكلامَ الذي يُقالُ على رصيفَ توباز يجبُ ألا يضيع هباء مع غبار الرصيف، فراحَ يجلسُ إلى طاولةِ الرافض الأكبر والثرثار العبقري كل يومٍ ويسجّل. وفي النهاية وضع كتاباً ناجحاً بعنوان: Colossus of Amaroussi هو عبارة عن حوارٍ مع الرجل. حول كل شيء.

وقبل ثلاثِ سنواتٍ أيضاً تعرّفتُ إلى الأماروسي. ذات يومٍ قالت صديقة: «لماذا لا نتناول طعام الغداء مع الأماروسي عند توباز؟». ومن يكون الأماروسي هذا؟ ظاهرةٌ نادرةٌ بين الرجال. عبقريٌّ مجنون. شاعرٌ حقيقي وفيلسوفٌ حقيقي يقول لك ببساطة: «ولمن أكتب؟». صحيحٌ، لمن يكتب؟

طوال اثني عشر يوماً في حزيران الماضي تناولتُ الغداء عند توباز إحدى عشرة مرّة. وكان معي دفترٌ صغير. كلما احتسى الأماروسي شيئاً من البيرة وتحدّث، احتسيت شيئاً من البيرة وسجّلت. وقد أضعتُ الدفتر.

هذا الظهر وأنا نازلٌ من شارع بوخارست شعرتُ بقليلٍ من الضيق والطقوس لا تمارس في هذه الحالة. غداً نتغدى عند توباز. وهذا المساءُ أعدّ الأسئلة، أعدّ نفسي للجلوس في حضرةِ الأماروسي.

لكن هذا المساء كان مثل غيره. تمرُّ على أنطونيو بارمان «الغراند بريتان»، تأخذ كأساً، يحدّثك أنطونيو عن ماضيهِ في الإسكندرية، ثم عن أسرارِ الطبقةِ الراقية التي تجلسُ خلف باره. وهذه السنة، يقولُ، بدأ يشعرُ بوطأةِ العمر. ساقُه اليسرى تؤلمه. المهمُ أن تظلَّ يدهُ قادرةً على تركيبِ الكوكتيلات العجيبة.

وتخرجُ من عند أنطونيو إلى الساحةِ من جديد. بائعُ الغارديليا القصير العجوز لم يتغيّر. لا يزال يعتمرُ «البيريه» السوداء. لو كانت حبيبتي هنا لاشتريتُ لها الباقة كلها. لم يتغّير شيء. وجوهُ السياح وحدها تتغيّر في ساحةِ الدستور. الجديد الوحيد أن فاسيلي يديرُ الآن تافيرنا في شمال أثينا، لا يزال يضعُ زجاجةً من الويسكي على مقربةٍ منه. وقد أصرَّ على الضيافة. فاسيلي فقيرٌ وإنكليزيته فقيرةٌ لكنّه يلفظُ جيداً «إنّ هذا عالمٌ صغير».

تعودُ إلى الفندقِ مشياً. في الليلِ يخفُّ دخانُ الأوتوبيسات الزرقاء، ويصبحُ المارة نخبة. بعض السكارى وبعض العاشقين، وبعض الذين لا يزالون ساهرين على الشرفات يتسامرون ويتحدثون ويدندنون. الأثيني يغني وهو نائم.

ما بين أثينا وبيني لا يعني أحداً ولا يهمُّ أحداً. وكان يمكن أن أكتب قصةَ حبٍّ طويلة عشتها هنا، لكنّها أصبحت قديمة، والقصة الجديدة ألغت كل القصص. ثم إنني لست سائحاً محترفاً بل إنني بالأحرى سائحٌ فاشلٌ جداً. سائحُ مقاهٍ وتافيرنات وقراءة صحف تحت الشمس. وفي السابق كانت الجزر تستهويني. لكنني منذ أن زرتُ هيراكليون لأكتب عن مسقط رأس نيكوس كازانتزاكيس في شتاء 1968، فقدت علاقتي بالجزر. لقد كتبتُ يومها مقالاً طويلاً ضاع في بريد بيروت، وكان أغلى شيءٍ في المرحلة.

أول ما فعلته صباح اليوم التالي أنني كتبتُ رسالةً إلى حبيبتي. حدّثتُها عن أثينا وعنها. وقلتُ لها: إنّه لولا حنيني إليها لكانت أثينا أجمل وأمتع. وقلتُ لها: إنني سأتناولُ الغداء مع الأماورسي، ولن أسأله عن شيءٍ سوى الحبّ والمستحيل.

كالعادة سألني أرسطو: «هناك رحلةٌ إلى هيدرا، هل أسجلك؟».ضحكتُ ومشيتُ. قرأتُ الصحفَ على رصيف «الأميركان اكسبريس». ذهبتُ إلى غاليري تبيعُ اللوحات القديمة ويديرُها أرمني. تفرّجتُ. ادّعيتُ أنني سوف أعودُ في وقتٍ لاحق. الأرمن يعرفوننا جيداً. كانت لا تزال الحادية عشرة. ذهبتُ إلى حديقة البلدية. تفرجتُ على دهشةِ الأطفال أمام الطيور الملونة، على أُناس يحاكون القردة. وفي الثانية عشرة كنت عند توباز.

كانت معظم الطاولات الحمراء لا تزال فارغة والأماروسي لم يأتِ بعد. طلبتُ زجاجةَ بيرة وجلستُ أنتظرُ كمن ينتظرُ حبيبة. طلبتُ زجاجةً ثانية، ثم ثالثة. صارت الساعة الأولى. امتلأت الطاولات وملأت الشمس الوجوه. جاء الخادمُ يسألني: «هل تأكلُ الآن«؟ قلت: لا إنني أنتظرُ شخصاً».

في الأولى والنصف عاد يمسحُ الطاولة متذمراً. وهو يمسحُها قلت له: ألن يأتي الأماروسي اليوم؟ أدارَ وجهه قليلاً وقال ببساطةٍ: «إنّه لن يأتي أبداً».

ولم أسألْه متى سقط الأماروسي على رصيف توباز. عرفت أنّه سقط وهو يحكي. وهو يرفضُ كل شيء. صار الحزن الحقيقي ضيفاً جديداً عند توباز.

حكايَة بَطل الصَيف

(1)

حين خرج ميلوفان دجيلاس من السجن بعد سنوات طويلة من العداء للماريشال تيتو كتبت إلى نائب رئيس الوزراء اليوغوسلافي السابق رسالة أطلب فيها مقابلة صحافية، وأخبرته في الرسالة أننا، ذا الفقار قبيسي وأنا، نقلنا إلى العربية كتابه «محادثاتي مع ستالين»، دون أن أخبره طبعاً أن الأجر الذي تلقيناه من الشاعر يوسف الخال كان زه زه أعطه ثلاثمئة ليرة!

وكان ردُّ ميلوفان دجيلاس طيباً وساحراً. وبخط يده. وقال في رسالته يومها إنه مر في لبنان في الخمسينيات، وإنه لا يزال يذكر من تلك الرحلة ألمعية رجل يدعى كمال جنبلاط، وإن البحر في لبنان أكثر زرقة منه في أي مكان على المتوسط!

منذ ذلك الوقت أخذت أتنبه إلى زرقة المتوسط. وكلما مررت بالأطلسي الأغبر أو بالأدرياتيكي تذكرت كلام دجيلاس. وأيضاً عندما سمعنا أنهم رموا نفايات نووية على زرقة المتوسط تذكرت دجيلاس، لكن هل المتوسط زرقة فقط؟ هل هو فقط هذه الخلجان اللازوردية في «كان» و«سان تروبيز»؟ هل هو تلك الدلافين التي رأيناها ترقص على أقدام جبل طارق حيث يتصل المتوسط، بكل هدوءٍ، بكلّ الكون؟

قبل أشهر عرضت الـ بي. بي. سي. برنامجاً من حلقات عدة عن المتوسط كان عنوانه: مهد الحضارة في الكون! كل حضارة نعرفها طلعت من هذا الحوض، كل شيء نما على هذه الضفاف: روما وسقراط وهنيبعل وأفلاطون وبيلاطس النبطي ومكتبة الإسكندرية وأفروديت وفينوس وأشيل ذو الكعب وهوميروس، العصافير والطيور وبركان «أتنا» الذي جعلنا القبطان التركي نقترب منه حتى نكاد نلامس سفحه، وبريجيت باردو.

يستلقي المرء فوق كمية موازية من الرمال ويتطلع حوله فإذا المتوسط مثل حكاية رتيبة تعيش على المحار، وترسل التاريخ في أثر التاريخ كالمياه في أثر المياه. إنه البحر الصغير الذي تتجمع حوله ثلاث قارات والديانات والأساطير والعقل. وحول هذا البحر الذي يشبه «حصان البحر» في امتداده قامت فينيقيا وروما وتركيا العثمانية واليونان، وعبره امتدت الإمبراطورية العربية، وبه تاه كولومبس حتى وصل إلى «العالم الجديد».

آه، لقد نسينا مملكة مصر السفلى التي سبقت بوارجها الفينيقيين بكثير، وركبت البحر آتية من هدوء النيل أو عصف النيل، أو روعة النيل، ذلك البحر المتخفي في حلة نهر عظيم! تأتي الأنهار وتصب في هذا البحر كأنها عائدة من الجنة. هنا خير الأرض وشجرها وثمرها والعصافير الملونة الأجنحة والصوت.

في العالم 1960 كان الرئيس صائب سلام يحضر دورة الجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك. وصدف مرة أن كان يجلس إلى جانب رئيس الوزراء السوفياتي نيكيتا خروشوف. وبعد التعارف قال خروشوف لصائب بك: أنت إذن من بلاد الخروب؛ ذلك الشجر الذي

كانت ثماره تُوصف لنا ونحن صغارا! فما كان من صائب بك، بعد عودته، إلاّ أن أرسل إلى خروشوف جرة من عصير الخروب... فرد خروشوف الهدية بنعارة من الكافيار!

إنه، إذن، حوض المتوسط الذي تنمو فيه أشجار الخروب التي عاش على بقاياها «الابن الضال»، والتي منها نشأ «القيراط» أو مقياس الذهب عند الأغارقة القدماء، أما الإغريق المحدثون فهم شعراء الذهب؛ لأن الأكاديمية الفرنسية منحت العضوية هذا العام، وفي قرار لا سابق له، إلى إلياس لالا أونيس، الرجل الذي حوّل صناعة الذهب إلى قصيدة.

نصفنا، أو أكثر، في المتوسط. ونصف تاريخنا أيضاً. أو أكثر. وحين يقيس الجغرافيون هذا البحر، بالطول أو بالعرض، فهو يبدأ أو ينتهي ببلد عربي، فالطول الأقصى بين جبل طارق وسوريا هو 2200 ميل، والعرض الأقصى بين فرنسا والجزائر 488 ميل، وهو يتدافع بين ثلاث قارات هي آسيا وإفريقيا وأوروبا.

إنه، أي: المتوسط، أضخم قطعة مياه بقيت في المياه من ذلك المحيط الكبير الذي يسميه الجيولوجيون «تيثيا» و «تيثيا» في الميثولوجيا الإغريقية هي ابنة السماء والأرض، وقد تزوجت من «أوقيانوس» إله المحيطات الذي كان يضم بذراعيه الأرض كلها. وحتى بركان «أتنا» الذي عرضه علينا القبطان التركي، يقول الجيولوجيون: إنه كان تحت قاع مياه «تيثيا» في الأزمنة الساحقة.

يقول غوته:

«أيها المحيط امنحنا سلطانك اللامتناهي»!

«لأنك لو لم ترسل غيومك»

«لو لم تكن الجداول تتبدد»

«لو لم تكن الأنهر المتعرجة تنعطف»

«لو لم تكن كلها تنتهي بك».

«هل كان للسهول والجبال والعالم نفسه أن يكون؟»

(2)

للبحار في حياة الشعوب بحار من الحكايات. منها تولد الأساطير، ومن عتمها خرجت آلهة الإغريق، وعلى سطوحها وقفت الحوريات تغني للبحارة الضائعين في عيون المدى، وكما تقاتل الناس على اليابسة تقاتلوا على المياه، حلوة أم مالحة. والذين تسلحوا بالبحر ربحوا الحرب. هكذا انتصرت أثينا الصغيرة على إمبراطورية الفرس. وهكذا انتصرت إنكلترا على ثلث العالم. هكذا انتصرت هولندا العائمة على الثلاثية الكبرى: فرنسا، إسبانيا، البرتغال. وهكذا كذلك هزمت البندقية التفوق التركي.

تضيق الأرض بالناس فيجعلون من البحر ممالك. وروما العظيمة لم تصبح قوة بحرية إلّا بعدما خافت بطش صقلية. وفرنسا التي تملك من الأرض والخصب ما يكفي، لم تطمح قط لأن يكون البحر قوتها الوحيدة أو الأولى.

في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات كنت دائماً أركب ظهر المتوسط من بيروت إلى نابولي. وطالما كنت أشعر على دفة الباخرة وهي تتثاقل في محاذاة الشواطئ أنَّ التاريخ الحقيقي في الأدب والحروب

والشعر والملاحم إنما كتب على وقع هذه الموجات الهادئة. وحين ذهبت بعد ذلك إلى جبل طارق، وصعدنا إلى قلاع طارق بن زياد الذي سبقنا إلى هناك (دون سيارات مرسيدس ولا أدلة) عرفتُ أنَّ المتوسط لا ينتهي عند حدود المتوسط. وهناك عند جبل ابن زياد تضيق بوابة المتوسط حتى يبدو لك كأنه قناة سويس أخرى. غير أن هذه القناة لم يشقها فردينان دو ليسبس، بل شقها الهائل هرقل الذي تقول الأسطورة: إنه فصل الأرض إلى قسمين وأقام هناك عمودين... للذكرى والتاريخ. ألم يشق البوسفور أيضاً عملاق آخر كما في أسطورة دو كاليون؟

أما الإدريسي، العربي العظيم الذي ولد على مقربة من الجبل، فقد وجد حلاً آخر لهذه المسألة. وهو يروي لنا أنَّ الإسكندر الذي ضاق ذرعاً بالصراعات المتكررة بين الإسبان والأفارقة، خطرت له خاطرة رائعة للفصل بين هذه القبائل المتعادية، فأمر العبيد بأن يحفروا في الأرض وظلوا يحفرون إلى أن أخذ المحيط الكبير يصب في المحيط الأصغر.

لم يعرف هوميروس ذلك. لكنه شاهد المتوسط «يتدفق». أما أفلاطون فقد خيل إليه أنَّ المياه تأتي إلى البحر من كهوف في الأرض ثم تعود إليها، في حين يروي لنا المؤرخ هيرودوتس أنَّ الآلهة رمت إلى البحر برجل حكيم يدعى «ساموس» الذي أصبح أول شاهد على المد والجزر.

لكن، بين الأسطورة والعلم، ثمة شيء يجتذب الإجماع: زرقة المتوسط. وهذه الزرقة لم يؤخذ بها مليوفان دجيلاس وحده، بل إنها تسحر أيضاً إميل لودفيغ الذي يضيف أنَّ اللون الأزرق سيجعل الشعراء يكتبون عبر العصور عن هذه البحيرة الكبيرة المطوقة بالأرض في حين يظل محيط هائل مثل الأطلسي يتيماً بلا قصائد لولا بعض ما كتب غوغوين.

غير أنَّ هذه الزرقة الهادئة ليست أيضاً لون الغضب. فإذا حلّت العاصفة على هذا الرائع النائم على السفوح الجميلة مثل كلب أمين، سرعان ما يتغيّر اللون إلى أغبر غامق مثل هبوب العاصفة في «السمفونية الريفية» في هدوء بيتهوفن الخدر. وهكذا نجد هوميروس يصف المتوسط الغاضب مرةً بالأرجواني ومرةً بالنبيذي ومرةً أخرى بالبنفسجي الفاهي.

التاريخ هو الذي يعطي الحياة للجغرافيا، وفي هذا الحوض يبدو التاريخ أكثر عظمة من أي مكان آخر؛ لأن في هذه المنطقة ارتقى الإنسان فوق الإنسان المتوحش. وأهل العلم يقولون إن المخيلات والأفكار التي عرفها أهل المتوسط لم تكن ممكنة في ظل الشمس الاستوائية أو حيث تلهى الإنسان في محاربة الصقيع. والظاهرة الأخرى أنَّ أوروبا، التي يقع ثلاثة أرباعها على المتوسط ـ كذلك استخدمت هذا البحر لكي تأخذ من آسيا كل شيء.

لكنها عبر المتوسط، لم تعطِ آسيا شيئاً.

لذلك قامت في الستينيات، أيام الجنرال ديغول، حركة كبيرة تدعو إلى دولة شبه موحّدة أو شبه اتحادية، بين العرب وأوروبا أو بين الآسيويين من أهل المتوسط وبين الأوروبيين منهم. وقد تزعم تلك الحركة المسيو جورج غورس، وزير الإعلام عند ديغول، وكانت خلاصة فلسفته أنَّ في إمكان أوروبا الحديثة أن تعطي العرب العلم والتكنولوجيا، وأن تتّكل في المقابل على ثرواتهم الطبيعية.

تأتي الأحلام وتذهب، والمتوسط يعبث بالناس ويلهو بالأرض. ويغيّر في اليابسة أو تغيرّ فيه. لقد طمر ذات مرة نصف بيروت، وطمر أيضاً نصف يافا، لكن ما إن ردم الإسكندر بعض الأرض لكي يسهل عليه

الوصول إلى صور حتى امتدت الأرض حول الأرض. ونحن الآن لم نعد نعرف أنَّ تلك كانت المياه بل نعرف أنَّ هذه مقاهٍ تبيع السمك المقلي في «خيزران». والمنتصر الأول في أي حال، في هذا الصراع الطويل بين المتوسط والأرض هو الإنسان، إنه الرجل الذي استطاع أن يبني الموانئ شبه المستحيلة في الإسكندرية ومرسيليا وسالونيكا، تماماً كما بناها في خلجان طبيعية مثل طولون... أو مثل جبيل حيث تشتري عمتي السمك الطيب، وتمدّ المائدة على أمل أننا قادمون.

(3)

لم أتعلم السباحة وأنا صغير، ولذا لم أستطع تعلمها وقد كبرت. ففي الصيف كنا، نحن أبناء القرى، نهرع فوراً إلى الجبال حيث نغرق في الحقول والزهور وأمواج البيلسان. لكن في بلد صغير مثل لبنان كنت إذا تثاءبت بحركة عفوية وجدت أن يدك قد طالت المتوسط! إنه في طريقك من أي مكان إلى أي مكان، في الشمال وفي الجنوب، يروي بكل هدوء وتواضع ورتابة عجيبة مئات الحكايات التي كتبها التاريخ قبل أن يمضي بعداً إلى التاريخ.

وعلى هذا الساحل الممتد من مصر إلى فلسطين فلبنان فسوريا قامت حضارات ومدن لا مثيل لها في العصور، وصارت فتوحات، وانطلقت عبر البحر من هذه الموانئ إمبراطوريات كثيرة، ومنها أيضاً انطلقت قرطاجة، تلك المملكة المدللة التي كان فيها لكل «وجيه» عشرون ألف... مرتزق!

كم كنت أشعر بالأسى حين تقترب باخرتنا من ميناء الإسكندرية، ويتراكض الصبية والحواة والحفاة بحثاً عن شيء يتساقط من المسافرين! ألم تكن هذه - منذ مراحل طويلة - تلك المدنية التي تتنافس على ودها أساطيل فرنسا وبريطانيا؟ ألم تكن فيها مكتبات الأرض؟ ألم تكن هذه المياه الزرقاء التائهة تشعر بالعز حين تلامس الأرض في الإسكندرية؟

المدن لا تظل هي المدن، الشعوب تذوب في السنين وفي الشعوب. والتاريخ هو أيضاً يستكين ويترك للآخرين أن يكتبوه، فالإسكندرية مثل صور، تهدمت أشياء الماضي كثيراً لكن بقي لنا فيها نقيبنا يحيى الخليل رئيس بلديتها. وصور مثل صيدا، وصيدا مثل بيروت، وكنت في الماضي حين أذهب إلى ميناء جبيل من أجل غداء من السمك المقلي أقول في نفسي، ولم يبق هناك سوى بضعة صيادين وأطفال يلهون: هل هذه هي حقاً أول مدن الحضارة؟

هذه الدرر الساحلية هي في أي حال فينيقيا التي حولها اللبنانيون إلى حزب سياسي يكرهه بعضهم لأن البعض الآخر يحبه. أو العكس. ويقول سكان المدن اللبنانية الكبرى: إنهم ليسوا فينيقيين مع أنهم الفينيقيون الأصليون، ويدعي أهل الجبال أنهم فينيقيون وليسوا عرباً ولا عروبة! وهذا تضارب ونقص في التناقضات، فإن النصف الآخر للحقيقة هو أن الفينيقيين أو «الصيداويين» كما وصفوا قبل الميلاد، قد جاؤوا من الجزيرة والخليج العربي!

لكن بسبب مآسي الحاضر ثمة فرار من حقائق الماضي. عند الفريقين.

وبطلنا الرائع هذا، بطل الصيف، السيد البحر الأبيض المتوسط، هو مرادف لكلمة فينيقيا، لولاه لما كانت هناك حضارة بهذا الاسم. وقد وردت أول إشارة إلى الفينيقيين في التاريخ المدون عند المصريين الذين تحدثوا في القرن السادس عشر (ق.م) عن المهارة الصناعية في صيدا وصور. وفي سجلات أخرى هناك حديث عن تجارة أهل صور في الفضة والحديد والتنك والرصاص والخيول والأبنوس والعاج والأرجوان الصوري والعسل والبهارات والزيت والحجارة الكريمة.

أما جبيل فكانت في العصور القديمة أرض «إله» الخصب والذرة الذي سماه اليونانيون أدونيس. ولعل ذلك يوحي أن الفينيقيين عاشوا مرحلة زراعية قبل أن يطلعوا إلى البحر. وباستثناء صيدا التي كانت قائمة في قلب الداخل، فإن المدن الفينيقية الأخرى كانت إما جزراً وإما على الشاطئ تماماً، مثل أرواد وصور وحتى طرابلس اليونانية الاسم. وكانت صيدا تسمى «صيدا العظيمة أم أرواد وأم صور»! وإذ خرج الفينيقيون في مغامراتهم الاستعمارية بحثوا دائماً (دونالد هارون) عن أماكن تشبه بلادهم، ومن هنا كانت قادش في إسبانيا وفاليتا في مالطا وبنزرت في تونس وكاغلياري في سردينيا وباليرمو في صقلية!

لكنني حين جئت صقلية عبر البحر بدت لي مناراتها من بعيد وكأنها مآذن. ولم يكن ثمة شك في أننا مقبلون على ملامح مدينة عربية من أيام الفتح. أما العلامة الفينيقية الباقية فكانت كلمة «فلوس» التي لا يزال يتداولها الصقليون!«ألم يقل بلوتارك في القرن الأول للميلاد إن هؤلاء الناس، أي الفينيقيين طبعاً، لا «يهتمون بشيء سوى الربح المادي»! ولذا سوف تضرب أول قطعة نقدية عرفها العالم في صور، في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ولن يعرف الإغريق هذا السحر إلا في القرن السادس!

لكن لولا البحر لما حمل الفينيقيون النقد والتنك والأبجدية إلى كل مكان. فقد نقلوا علم الفلك من المصريين والآشوريين، واستخدموه ليركبوا الموج الأبيض حتى إفريقيا. وبعضهم يقول حتى البرازيل. وكان الفينيقيون القدامى، مثل صيادي العصر الحديث، يقرؤون الطقس والرياح بمقياس الرطوبة على الحبال والسواري. فإذا تكثفت الرطوبة عرفوا أن الرياح الجنوبية سوف تضرب، وإذا شعروا بجفاف في شعرهم وجباههم عرفوا أنها بداية رياح الصيف آتية من قلب المتوسط.

ويصف الألماني فيلكس فابر الذي قام برحلة إلى مصر في القرن الخامس عشر كيف كانت الملاحة أيام الفينيقيين فيقول: «إلى جانب القبطان كان هناك أيضاً رجال عارفون وفلكيون ومراقبون للنذر، كانت مهمتهم أن يفسروا حركة النجوم والريح، وأن يحددوا الاتجاه للقبطان نفسه. وكانوا يعتمدون في قراءتهم على لون البحر والسماء وتصرفات الدلافين والسمك».

وكما اعتمد نوح على الحمام لاستطلاع البرّ هكذا فعل الفينيقيون الذين سوف تنهار مملكتهم ذات يوم، بما فيها قرطاجة، تحت ضغط اليونانيين. حتى هوميروس في إلياذته لم يشر إليهم بالكثير من المحبة. والتجارة التي تجمع بين الشعوب هي أيضاً التي تفرق بينها. وقد كان الفينيقيون قوماً تجاراً لا يقاتلون، بعكس الإغريق، كما كانوا يخوضون حروبهم باستخدام المرتزقة، بل حتى الألفباء اخترعت وسيلةً للتجارة مثل العملة. لكن الإغريق سرعان ما طوروها ثم جعلوا هذا الحوض حوض أرسطو وأفلاطون.

وكانت إذا غابت حضارة عن هذا المتوسط قامت حضارة أخرى. إنه المهد، مياهاً وشطآناً.

(4)

نعود إلى الإسكندرية. يجب ألا نمر هكذا بهذه المدنية التي كانت إلى عشرين عاماً خلت مصيف الملوك والأمراء ومقر الأمم العربية، وأصبحت ساحاتها الآن مركزاً لـ «تجار الشنطة».

لقد كانت الإسكندرية إلى زمن طويل ملكة الشرق الأوسط بلا أي منازع. هنا أسس أقليدس المدرسة الحسابية الإسكندرانية (300 قبل الميلاد تقريباً)، هنا أعطى أريستاركوس النظرية القائلة إن الشمس لا الأرض هي مركز الكون. وفي الإسكندرية أيضاً، خلال المرحلة نفسها، استطاع أريستونيس أن يقيس دائرة الأرض. فقد قيل له: إنه في أحد أيام الصيف يصل شعاع الشمس في أسوان إلى الرأس تماماً مما يشير إلى أن أسوان واقعة في المدار الاستوائي، وهكذا قاس طول ظل عمود نصبه في الإسكندرية فعثر على «الزاوية المقابلة» للمسافة بين المدينتين، وكانت تماثل جزءاً من خمسين من دائرة كبرى. وانطلاقاً من ذلك راح يحسب دائرة الأرض بأدوات بدائية... ولم يخطئ إلا بنسبة عشرة في المئة عما وصل إليه علماء العصور الحديثة.

كانت الإسكندرية ملتقى الشرق والغرب. وفي كتابه «سقوط الإمبراطورية الرومانية» يقول غيبوتز: إن الإسكندرية كانت تأتي بعد روما مباشرة، «ومن خلالها تدفقت على إمبراطورية روما التجارة من الجزيرة العربية والهند.

لم يكن هناك مكان للكسل. وكانت النساء تعمل إلى جانب الرجال في الصناعة». ويقول مورخ آخر: «في هذه المنطقة، بين الحدائق والأعمدة المعلّقة، قامت حضارة الإسكندرية».

كانت هي المدنية التي أعطت الإمبراطورية الرومانية صناعة ورق البردى والجواهر والزجاج والأونيكس، ومن ثم عمدت بكل حيوية إلى تطوير الحياكة التي نقلتها من صور. وهي فوق كل شيء، أعطت للتاريخ والأساطير و.. وليم شكسبير، امرأة اسمها كليوباترة.

إنها ألعوبة روما وملكة الإغريق وفرعونة مصر، المرأة اللعوب التي تزوجت من شقيقها وفقاً للتقاليد الفرعونية، ثم تآمرت عليه فنفاها إلى سوريا. وبعد قليل يصل إلى الإسكندرية يوليوس قيصر محملاً بأكاليل الغار وسيداً على العالم. وكانت كليوباترة قد عادت إلى المدينة.

فوراً سقط يوليوس قيصر في حبائلها، ولما قام المصريون ضد روما وقفت كليوباترة ومصر ملكاً لقيصر.

كانت كليوباترة قد تزوجت الآن شقيقاً آخر، لكنها سرعان ما تخلصت منه بالسم. ولحقت بالقيصر إلى روما لكي تعيش معه، علناً، عشيقة غير متزوجة، وحملت منه ولداً سمي شيشاريون! أحبها القيصر وكرهها أهل روما الذين رأوا فيها مثالاً للشرق الفاسد. وما إن قتل القيصر حتى فرّت عائدة إلى مصر. ومن هناك، من الإسكندرية، راحت تراقب الصراع التالي في روما بين مارك أنطونيو وقتلة القيصر. وقد يخيّل إلينا أنها في مثل هذا الصراع لا بد من أن تقف تلقائياً إلى جانب مارك أنطونيو لكن... لا، لقد فضلت الحياد والانتظار.

وحين قسّمت الإمبراطورية أخيراً بين أغسطس ومارك أنطونيو كان شرق المتوسط من نصيب الأخير. وكذلك طبعاً كليوباترة. وقد جعلا من الإسكندرية عاصمة لهما. وأعطت كليوباترة لمارك أنطونيو ثلاثة أولاد.

لكن فيما كان مارك أنطونيو غارقاً بين ذراعي كليوباترة كان أغسطس يستعد ليوحّد الإمبراطورية من جديد. وأخيراً قرر مجلس الشيوخ الروماني (32 قبل الميلاد) تجريد أنطونيو من سلطاته، فأعلن أغسطس الحرب على كليوباترة، وتراجعت سفن الملكة أمام المهاجمين، وعادت مع حبيبها أنطونيو إلى الإسكندرية بعدما وقعا عهداً على الانتحار معاً... إذا ما وصل أغسطس إلى المدينة.

بعد عام تقريباً وصل أغسطس إلى مصر! وبدلاً من تنفيذ ميثاق الانتحار كانت قد بدأت تبعث بالرسائل إلى الإمبراطور؛ مرة أخرى سوف تحاول أن تدمّر الإمبراطورية بشيء من العطر! وحين وصل جيش أغسطس إلى أبواب الإسكندرية سقط جيش أنطونيو بسرعة، فعاد إلى قلب الإسكندرية لينتحر بالسيف ظناً منه أن كليوباترة ستنتحر أيضاً. غير أن الملكةَ كانت تحاول إنقاذ اللحظة الأخيرة، من اللحظة الأخيرة، وعمدت إلى إغراء أغسطس، كما أوقعت القيصر وأنطونيو من قبل، لكن أغسطس لم يكنْ يرى فيها أكثر من جسدٍ محترف...

وعندها خشيت أن تعود إلى روما لكي تعرض في شوارعها على الساخرين والشاقين، فربطت إلى صدرها أفعى سامة صغيرة وقفاً للتقاليد، ودفنت إلى جانب أنطونيو في المقبرة التي أعدّاها لنفسيهما! ومعها دفنت الملكية الإسكندرانية، فقد أصبحت مصر كلها مجرد مقاطعة من مقاطعات روما.

لكن الإسكندرية لن تنحني ببساطة، سوف تظل إلى قرون طويلة عروس المتوسط قبل أن تتحول إلى مجرد مدينة صغيرة على الساحل ذات منارات. غير أنها على الأقل لم تنقرض مثل قرطاجة تلك التي غرقت في صراع مع روما دام 140 عاماً.

لماذا ربحت روما في نهاية الأمر مع أنها ـ حسب الأسطورة ـ أسست في يوم واحد مع قرطاجة؟ بعضهم يقول: إن روما انتصرت، على الأرجح؛ لأنها لم تكن مدينة ساحلية. فقد بنيت المدينة على نهر صالح للملاحة يحمل سفنها إلى البحر، لكنه يبقي القراصنة في منأى عنها. وحتى اليوم تتمتع روما بحسنات المدينة الساحلية دون أن تتحمل مخاطرها. لذلك استعادت روما الآلهة من الإغريق؛ لأن مخيلة الرومان عجزت عن ابتداع أي منهم. استعارتهم ووظفتهم لديها: يأخذون ويعطون ولا يأخذون فقط. وروما التي اخترعت لنا كلمات مثل «سناتور» و« قنصل» التي لا نزال نتداولها إلى اليوم هي التي تركت لنا أيضاً كلمة... ديكتاتور. أما روما غير الساحلية فقد تعلمت الإبحار من منافستها قرطاجة، ولما اكتمل علمها أوقعت بها الهزيمة.

حروب ودسائس ومؤامرات ودماء تملأ الأبيض المتوسط. وأبطال ومجانين وحضارات حضارات. والأبطال أنفسهم سوف يصابون بالجنون، فالإسكندر المقدوني الذي أسس لنا الإسكندرية وأعطاها اسمه لم يكتف بأن فرض نفسه على اليونان والإغريق، بل صار يقول إنه من سلالة هرقل. وكان أيضاً مأخوذاً بوسامته، فترك النحاتين في تلك الأيام يصنعون له التماثيل بلا حساب. لقد كانوا - النحاتين - صحافيّي ذلك الزمان، وكان الإسكندر أول من عرف أهمية العلاقات العامّة...

(5)

هذا البحر الذي تنعم به أوروبا وسيّاح العالم اليوم، كان أيضاً بحراً عربياً حتى الأعماق. وكل الذين حكموا المتوسط من قبل كانوا يكرهون البحار ويخافون عتو الأمواج، لكن ها هم أبناء الصحراء يقبلون عليه بحب غريب للصواري. ليست هناك كلمة حلوة واحدة من هوميروس في حق المتوسط. بل إن «الإلياذة» تهاب هذا الأزرق اللازوردي لدرجة أنها تصفه دائماً بالرمادي القاتم. أما العرب فلا! وفي حقبة وجيزة لا مثيل لها نسبياً، أي: خلال نصف قرن بين 630 و680 احتلّ العرب جزءاً شاسعاً من الأرض، وغيّروا نمط الحياة في المتوسط والمشرق وشمال إفريقيا. وفي المشرق والشرق الأدنى كان الصراع الطويل بين الفرس وبيزنطيا قد هدّ قوى الفريقين، فحلّ محلهما العربي المليء بالحياة، حاملاً معه الرسالة الجديدة: محمد.

وكما تعلمت روما الملاحة من قرطاجة قبل أن تقهرها تعلّم الفتح الملاحة من بيزنطيا واليونان. وسرعان ما قامت للعرب أساطيل وجيوش بحرية في سوريا ومصر، ومن ثم سيطروا على جزء كبير من المتوسط من خلال القواعد التي بنوها في قبرص ورودس. ومع السنين أخذت السيطرة العربية تمتد حتى وصلت إلى إسبانيا وإلى ناربونا وكاراكاسونا في فرنسا خلف جبال البيرنيه الصعبة. لم يتوقف المدّ العربي عبر المتوسط إلا في العام 732، في معركة بواتييه الشهيرة بين عبد الرحمن الداخل وشارل مارتل.

كان ذلك بعد قرن كامل تماماً من وفاة الرسول العربي، مئة عام تغيّر خلالها وجه المتوسط وحضارته، وتغيرت عقيدته الدينية في بلدان كثيرة من بلدان الحوض.

يقول وليم كوليكان في كتابه «عصور الظلام»: «لقد أعطى الفتح الإسلامي إسبانيا أهمية جديدة في التاريخ الأوروبي... ومع أن المسيحية أخذت الآن تتراجع فإن إسبانيا لم تظهر تسامحاً فحسب، بل هي أسهمت أيضاً في فنون وحضارة أوروبا المسيحية. لقد كان للإسلام أن يعلّم في حقول كثيرة كالحساب والطب والفلك أكثر بكثير مما تعلّم».

كذلك أعطى العرب البحر المتوسط هديته الثمينة: السفينة المثلثة الأشرعة، التي سوف تشكل ثورة في حياة البحار والبحارة! لكن بحارة قساة طغاة سوف ينهون الحلم المتوسطي بعد مدة. إنهم «الفايكنغ» القادمون من الشمال الأوروبي أو «الشماليون» كما وصفهم الشعراء أو... المجوس، كما وصفهم العرب.

وقد بدأ «الفايكنغ» بحملات متعددة على مدن المتوسط. وفي العام 844 اقتحموا إشبيليا وهدموا أسوارها الرومانية. وبعد ذلك بعشر سنوات قاموا بحملة انطلقت من وادي اللوار الفرنسي إلى المغرب العربي وإيطاليا. وفي العام التالي يقال إنهم وصلوا إلى الإسكندرية، غير أن المقاومة العربية، خصوصاً في إشبيلية، كانت تردهم على أعقابهم.

قبل ذلك كان العرب قد سجّلوا علامة فارقة في حياة المتوسط وتاريخه. إنهم يحتلون، في العام 823، جزيرة كريت التي سوف يتقاتل عليها الألمان والحلفاء في الحرب العالمية الثانية شر قتال... لأنها إذا سقطت سقط المتوسط وسقطت قناة السويس وتداعى خط النفط.

كان احتلال «كريت» ضربة كبرى لبيزنطيا. لكن سقوط الجزيرة لم يكن شيئاً مهرجانياً بعدما استطاع هارون الرشيد أن يعبر آسيا الصغرى منتصراً، ويصل إلى مدينة هيراكليا البيزنطية على البحر الأسود. لماذا وصل إلى هناك؟

كان الإمبراطور نيسوفوروس من الغباء بحيث إنه كتب إلى الخليفة يقول إنه لا ينوي بعد الآن دفع الأتاوة التي تؤمن السلام لحدوده الجنوبية، رد هارون الرشيد بالآتي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى كلب الرومان نيسوفوروس. لقد قرأنا رسالتكم يا ابن الكافرة، إنك لن تقرأ ردي بل سوف تراه»...

بعدها، أي: بعد عاصفة العنف التي هبّت على المقاطعة الشرقية من بيزنطيا، تعلّم الإمبراطور أن يكون أكثر حذراً في كتابة الرسائل!

لكن الأكثر أهمية من احتلال كريت كان سقوط صقلية، الجزيرة التي ظلت زمناً طويلاً حائرة بين إفريقيا وأوروبا. وقد انطلق الأسطول العربي من سوسة في تونس ووصل إلى صقلية دون أي مقاومة. وتمّ في البداية احتلال جزء صغير منها حوّل إلى مقر للقيادة. وفي العام 832 تحقق النصر الأساسي بسقوط باليرمو التي كان قدرها أن تصير هي العاصمة، كما كانت بالنسبة إلى أهل قرطاجة من قبل. وبعد ذلك بأحد عشر عاماً سقط مضيق مسينا، وأصبحت الطريق إلى إيطاليا مشرّعة، فانطلق العرب نحو روما. غير أن الخلافات بين المغاربة والأندلسيين كانت تمزق القوة المهاجمة التي توقفت عند الضفة الأولى من نهر التيبر، ومع ذلك فقد كانت سطوة العرب على المتوسط في العام 850 أكبر سيطرة سياسية وعسكرية من نوعها.

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع لم يتردد العرب في استخدام نفوذهم، فأقاموا مستعمرات في وادي «الرون» وصلت إلى «آرل» مدينة الجمال والرسامين. وصارت الجزر الإسبانية مرابط خيلهم انطلاقاً من برشلونة، وطالت أيديهم سردينيا حيث يستذكر المصيفون العرب في

فصل الصيف أمجادهم الغابرة على أجمل شواطئ العالم. ولم يبق ميناء مهم على المتوسط، في إيطاليا وجنوب فرنسا لم تجد السفن العربية لها مرسى فيه: مرسيليا ونيس، وجنوى وفيكييا وتشيفيتا!

وهكذا ظلت باليرمو، عاصمة صقلية ومقر الوالي، مدينة مسلمة طوال 230 عام. وانتقلت العلوم والحرف العربية لتعيش وتزدهر في الأندلس والقيروان، فيما كانت تندثر في بغداد ودمشق تحت وطأة الترك والتتار. وقد أظهر المسلمون في صقلية وأوروبا تسامحاً لم يعرفوه على أيدي المسيحيين حين حان وقت الانهيار. وحين تصاعد النزاع بين النورمانديين والعرب على صقلية تبين أن «العبيد» كانوا لا يزالون يتكلمون لغاتهم الأصلية كاليونانية وغيرها، وليس العربية التي لم تفرض فرضاً. كذلك كانت قباب الكنائس قائمة لم تمس، وطوال الحكم العربي تركت للمسيحيين حرية العبادة.

ماذا بقي للعرب من صقلية اليوم؟ هناك كرسي غربي واحد في جامعة باليرمو! كرسي واحد لقرنين ونصف من الحكم والحضارة والتاريخ. وليس هناك كتاب عربي، إلا فيما ندر، يأخذ بك إلى صقلية... ربما خوفاً. من «المافيا» والعرّابين!

(6)

حين وقفت في المغارة التي تركها طارق بن زياد في أعلى جبل طارق عام 711، لم يبهرني ما حفر في داخلها من مقاعد وقاعات تحت سقوف عالية من التراب، بل كنت لا أزال أتساءل: كيف وصل هذا الرجل على صهوة جواد إلى هذا المرتفع، في حين أن سيارة المرسيدس الحديثة وعلى طرقات حديثة... كادت لا تصل وبها قوة مئة حصان.

وحين دبَّ بنا الخوف ونحن نقطع جبال البيرنيه، في سيارة حديثة وعلى طرقات حديثة، حين دب بنا الخوف، ودبت بنا الرهبة من الصخور المعلّقة فوقنا، والوهاد التي تحاصرنا، والصمت والسكينة ومنحدرات تخافها العصافير، حينها تساءلت: كيف قطع هنيبعل جبال الألب... بالأفيال؟

لا. لا نستطيع الحديث عن مملكة المتوسط دون الحديث عن هنيبعل، ليس إكراماً فقط لأستاذنا ومؤرخه، جورج مصروعة، بل أيضاً إكراماً لأولئك الخارقين الذين كتبوا التاريخ، كل على طريقته، لدرجة قيل معها: لو كان لهنيبعل 50 فيلاً إضافياً لكان التاريخ كله قد تغير! تصور فقط لو كان هناك 50 فيلاً آخر.

كان هنيبعل شاباً مثل الإسكندر الذي جاء بعد انتصاراته بقرن واحد، لكننا لا ندري ما إذا كان وسيماً مثله؛ لأن تمثاله النصفي الموجود في نابولي يقال إنه يحمل من هنيبعل الاسم فقط. وكان هنيبعل فارساً وسيافاً نشأ في معسكرات التدريب اليونانية، وهناك أيضاً درس وتعلم على يد رجل من إسبارطة.

وإذا كانت فكرة عبور الألب والاندفاع من إسبانيا عبر فرنسا إلى إيطاليا تبدو خيالية اليوم؛ فكيف كانت تبدو في العام 218 قبل الميلاد؟ لكن كما عبر الإسكندر بلاد القوقاز ستكون لهنيبعل مغامرته المستحيلة أيضاً! وكما عبر هنيبعل ما يسمى الآن ممر «سان برنار» فقد عبر نابوليون الممر نفسه بعد ألفي عام. والفارق طبعاً أن الأول قهر الثلوج بفيلة معتادة على مناخ الاستواء وبمرتزقة من الإسبان معتادين على مناخ سيبيريا نيفادا!

ولعل بين المشاهد التي لا تنساها الإنسانية مشهد الفيلة وهي تعبر نهر «الرون» على طوافات خشبية ثم تتجه صعوداً إلى ممرات الألب. وخلال 26 يوماً قاد هنيبعل 40 ألف رجل تقريباً من «الرون» إلى منطقة «تورنيو» حيث فقد نصفهم أمام أناس ذهلوا خوفاً في بداية الأمر، ولما استفاقوا راحوا يقاتلون بشراسة! وذلك العبور المذهل لممرات الألب قد لا يقابله في التاريخ إلا عبور سيمون بوليفار لجبال «الأنديس» في العام 1815.

سبعة عشر عاماً وهنيبعل يقاتل. لكنه لن يصل إلى أعتاب روما إلا منهكاً، وقد تمزق حوله كل شيء بسبب خلافات أشقائه. ثم في روما أيضاً سوف يطلع نجم «سكوبيو» الذي رأى عدوه هنيبعل للمرة الأولى منتصراً في معركة «تيكونوس». ونشأ بين الاثنين إعجاب هائل، فكان أحدهما يكيل للآخر مديحاً يقارب الغزل أحياناً.

وفرَّ هنيبعل المنهزم إلى جزيرة كريت، ثم إلى آسيا الصغرى يحرض الناس ضد روما. وبعد 35 عاماً من معركته الأولى، وكان قد أصبح رجلاً مسناً، شاهد الجنود الرومانيين أمام منزله. وبدلاً من الأسر اختار السم.

كذلك مات في العام نفسه، «سكوبيو»، وقد مات منفياً مثل كل الأبطال. وكانت أُمنيتُه ووصيتُه الأخيرتان ألا يُدفن في أرضٍ رومانية!

لكن قبل أن ننسى تلك الحرب.. فإن فيها صورة لا تنسى، مثل عبور هنيبعل، إنها صورة أرخميدس عالم العلماء يطلب من الجندي الروماني الذي يهم بقتله... بضع دقائق فقط من الرحمة، لكي يكمل حل عمل حسابي!

بعد هنيبعل سوف تمتلك روما المتوسط، وبالتالي العالم المعروف آنذاك لخمسة قرون آتية. وقد استطاعت قرطاجة أن تبقى على قيد الحياة، دولة تجارية دون مستعمرات. لكن بما أنها لم تنتج شيئاً سوى تجاربها ولم تصدّر حضارة مثل أثينا، ولا أغنيات ولا ترجيديات ولا معابد ولا تماثيل ولا فلسفة ولا علوماً طبيعية... فإن اسمها سرعان ما خبا، في حين استمر التأثير اليوناني في كل مكان.

إلا أنه لن يظل التأثير الوحيد في هذا الفردوس الأرضي الذي اسمه حوض المتوسط. إن رياحه سوف تحمل في ركب الأمواج عصر النهضة وذراته إلى كل مكان. ومن «البروفانس» سوف يحمل الرون ألحان «التروبادور» إلى مرسيليا، ومنها إلى العالم. ومن دوقية «تولوز» و«غاسكونيا» سوف تنتقل آداب السلوك إلى بيوت بورغيزي في الجمهورية الإيطالية! وسوف تختلط، بطريقة عجيبة، الحضارة القديمة بالحضارة الجديدة. بل سوف تتصارعان. وسوف يخترق العلماء في إيطاليا وفرنسا التزمّت الكاثوليكي من أجل العودة إلى علم الفلك عند البطالسة أو الطب عند هيبوقراطيس. وسوف يقف رئيس الجامعة في شارتر معلناً: «إننا نقف مثل أقزام على أكتاف العلماء القدماء».

ولعل أغرب ما في العودة إلى الأصول هو أن العرب هم الذين أحيوا العلوم القديمة في مدارس إسبانيا وجنوب إيطاليا! إنه بحر حضارة وتجارة وحروب هذا المتوسط. وقد تبادل أهل الثقافات معارفهم كما تبادلوا السمك والتوابل الآتية من الهند! لقد كان هناك، هذا المتوسط، قبل أن نكتشف أميركا. وكان يضج بالحياة قبل أن نعرف الهند والصين

معرفة جيدة. هنا اخترع الصوريون النقد واخترع الإيطاليون «البنك»! بانكو سنيور! وانتزعوا التجارة من أيدي الفينيقيين. ثم من الأغارقة والعرب. وطافت سفن البندقية تبيع البضائع بأثمان خيالية في أسواق عكا.

غير أن المتوسط لم يعطِ الاحتكار لأحد. حتى أيام الإمبراطورية العثمانية في القرن السابع عشر أعطى الجزء الآخر لإسبانيا، مع أن الأتراك حكموا مساحة لم يعرفها سوى الرومان من قبل. وكلاهما ملأ البحر الأزرق دماء، لكن تركيا وإسبانيا الآن في حلف واحد. وكذلك اليونان. وكذلك فرنسا. لقد مضت على الأقل في هذا الجانب من المتوسط، عصور الأساطير والآلهة. إنهم يتشمسون حتى الاحتراق في سان تروبيز!

رسالة من مَطاحن لم يعرفها

«ألفونس دُوديه»

أشعر أحياناً وكأننا نتكوّن تحت خيمة من الأمثال. نكبر فنرى الأمثال ترافقنا إلى كل زمن، إلى كل مكان، إلى كل قضية، وكأنما المثل قاضٍ أو حاكم:

نكبر فنرى أن تلك الأمثال التي سمعناها صغاراً، تقودنا مثل عصي العميان، وبها نتلمس المجهول الذي أمامنا، فإذا لكل شيء مثل يختصره، من البخل إلى العشق إلى الغباء.

ويكتشف الإنسان وهو يغور في الزمان أنه مجرد مخلوق أعزل، يجلس على شرفته ويروح يستعيد الحياة، مرحلة مرحلة، وصورة وصورة، ودائماً يبدو أن الماضي هو الجمال، وهو الدفء، وهو العذوبة؛ لأن الحاضر عذاب والمستقبل قلق، وكيفما تلفّت اليوم أرى نفسي مستذكراً مثلاً من تلك الأمثال الجميلة التي كان ينثرها جدي ونحن في طريقنا إلى الكروم. وكان يعقد يديه خلف ظهره (يدان هرقليتان كبيرتان منبسطتان مثل بستان طيب) خلف ظهره المنحني قليلاً، مثل عارضة في الريح، وكان يعقد يديه ويمشي ويحكي لي خبرة الدهر، ويبعثر في الطريق، طوال الطريق، ما حفظ من الشعر وما اكتنز من الأمثال والحكم والحكايات.

وكان إذا تعب، ونحن نتسلّق الطريق الضيقة إلى الكروم، كان إذا تعب، توقف قليلاً وفرك جبيني بيده الهرقلية، وقال في شيء من السخرية الذاتية:

آه، لو عاد الشباب يوماً، لأخبره بما فعل المشيب!

وكنت أضحك لجدي، غير أنني لم أكن أفهم! كيف يفهم حكاية المشيب من هو في العاشرة من فجر الحياة؟

وكنت دائماً أضحك لجدي، فقد كان طيباً ومسلياً. آه، لقد كان جدي الطِّيبة نفسَها وقد مشتْ على قدمين. ولم يكنْ يملكُ في الدنيا إلا القليل لكن حتى هذا القليل لم يكن يملكه، فقد كان يتمشى في الدنيا، وقد عقد يديه إلى ظهره، كأنها مجرد جسر من مكان إلى مكان، ولم يكن يتأفف، ولم يكن يتذمر، ولم يكن يخاف، بل كان هكذا، يمشي دائماً إلى الكروم ويبعثر الأمثال والأشعار، مسكّنة حيث صعب عليه التحريك.

وقد كان يعرف لامية ابن الوردي معرفته لدرب الكروم أو لدرب المطحنة. آه، كانت في التلال، المطحنة كانت على كتف الوادي، هكذا كانت تصنّف في جغرافيا القرية.

ومثل الأمثال، ولامية ابن الوردي:

ولا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

ومثل درب الكروم، ومثل صمت جدتي، وقد جعلت تخبز أو تطبخ أو تغدو إلى الحقل مع أول عصفور استفاق على جمال الكون، مثل ذلك الصمت الجميل الذي كان يحيط بسيدتي الرائعة جدتي، لا أزال أذكر الدروب إلى المطاحن.

في الصيف كانت الدرب فيضاً من الفراشات وأعزائي شعراء الصنوبر، أسياد الصيف ومطربي البرية: الأزيازا! هكذا يسمونهم في صيدا.

في الشتاء، كانت، الدرب، امتحاناً لقوة أهل القرى في وجه الشتاء الفالت من تحت الأرض أو الهارب من بطون العتم والغيم.

وكان للحقول رائحة من خليط الأرض: قمح أخضر وسنابل ممشوقة مثل أعناق البجع، وزهور تنبت من تلقاء نفسها، فتجعل سطح الأرض مثل سقوف القصور في إشبيلية وغرناطة. وكان الربيع، إذا أطل، تباغتت الطيور في أوكارها، تطل برؤوسها مترددة فلا تصدق أن هذه الألوان ولدت من سيول الأمس وجنون الشتاء، وقد أزبدت العواصف وأرعدت وجنّت السواقي... وفرحت المطحنة.

وحدها المطحنة كانت تفرح بجنون المياه، فالسيل يدير حجرها الضخم المستدير، والحجر الضخم يجرش الحنطة جرشاً، فيرسل الطحين إلى مكان والنخالة إلى مكان، ويرسل إلى وجه الطحان غباراً أبيض مثل مساحيق أهل السينما، وإلى كل مكان، حيث يرسل حكايات القرية وأساطيرها.

... كلما جئت إلى جنوب فرنسا بحثت عن ذلك الزمن الضائع في جنوب لبنان، أتيه في براري «آرل»، وأدقق في حفافي الجلول في «سان بول» لكي أتاكد من أن أوراق السنديان اليابس هي التي تغطّي الأرض وتعطيها، للموسم المقبل، قوة السنديان.

ومثل المجانين، أبحث عن الطواحين القديمة. لا طاحونة «دون كيشوت» ذات المراوح المتعاكسة كالسيوف، ذات الأشرعة الخشبية، فهذه كانت حديثة جداً بالنسبة إلينا، لكنني أبحث عن المطاحن المختبئة إلى جانب الأنهر. ولم أعثر عليها بعد. فقط، عثرت عليها في كتاب «الفرنسي دوديه» الشهير، «رسائل من عند مطحنتي».

إليكم بعض ما فيه:

«إنني من هنا أكتب إليك، وبوابتي مفتوحة كلها للشمس الجميلة.

«أمامي تتدحرج غابة من الصنوبر مليئة بالنور، تتدرج حتى تصل إلى حافة الشاطئ. وفي الأفق تتكشف لك رؤوس الشجر الألبي الكث، لا ضجيج... وبالكاد يأتي لك من البعيد البعيد صوت ناي، أو رجفة عصفور يتنقل فوق أجباب الخزامى أو يتهادى إليك صوت جرس معلق في عنق بغل آتٍ من الطريق البعيدة. إن كل هذا المنظر البروفونسي الجميل لا يعيش إلا في الضوء».

«والآن كيف تريدني أن آسف لأنني تركت باريسك الصاخبة السوداء؟ إنني لسعيد جداً هنا في طاحونتي! إنه بالصبط الركن الذي كنت أبحث عنه، ركن حارّ وعابق بالعطر، على بعد مسافات من الصحف والعربات والضباب! كم هي كثيرة الأشياء الجميلة حولي! لم تمضِ علي هنا أكثر من ثمانية أيام، ومع ذلك فقد أصبح عقلي مكتظاً بالذكريات والانطباعات (...)».

«لا بد هنا من القول إن العادة قد جرت في (مقاطعة) البروفانس على إرسال القطيع إلى الألب حين يبدأ حرّ الصيف. وتمضي الناس والماشية خمسة أو ستة أشهر في المرتفعات هناك، ساكنة في ضوء النجوم، غارقة في العشب حتى خصورها، ثم في الرجفة الأولى من الخريف، ننزل مجدداً إلى مزارعنا في الساحل، ويعود القطيع إلى الرعي في عالم برجوازي فوق التلال الصغيرة المليئة بعطر الزّوال».

«هكذا عاد القطيع أمس، وكانت بوابة المزرعة في الانتظار، وقد انفتحت على مصراعيها، وفرشت للأغنام أكواماً من القش الطازج. وكنا نقول، بين ساعة وأخرى: لقد وصل القطيع الآن إلى «ديغيير». لقد وصل إلى «بارادو». وفجأة في المساء ثمة من أطلق صرخة مرتفعة: ها هو، ها هو».

«وفي البعيد رأينا القطيع يتقدم في عاصفة من الغبار، وكانت الطريق تبدو كأنها تمشي معه. وكانت رؤوس الماعز تتقدمها قرونها، هي التي تتقدم الجميع وكأنها مستعدة للتناطح. وخلفها كانت تمشي ببطء أمواج الخرفان، والنعاج بينها تعبة قليلاً، وخلفها تتهادى الحملان التي ولدت حديثاً في الجبل».

نشرة الخامسَة

كل يوم، في الخامسة مساء، أشاهد مع نصري نشرةَ الأخبار الخاصة بالأطفال. وأحياناً كثيرة أكتفي بذلك ولا أعود أشاهد نشرة الكبار. وصرتُ أشعرُ أن النشرةَ الحقيقة بالنسبة إليَّ هي أخبارُ الخامسة المليئة بالمعرفة والعلم والغبطة، لا أخبار السادسة أو التاسعة أو العاشرة المليئة بالخبث والمؤامرات وأخبار القتلة في كلِّ مكان.

الغريبُ أن نشرةَ الخامسة تعاملُ الطفل كإنسان، أما النشرات الأخرى فتعاملُ الرجلَ كمفترس. ففي الخامسة مثلاً تقول المذيعة: إنّ كمبوديا تعاني من الجوع، وإنّ رجلاً يدعى بول بوت قد حوّلها إلى هياكل عظمية، وإنّ كمبوديا بحاجة إلى مساعدات، وإنّ أطفالَ بريطانيا أرسلوا إلى تلك البلاد التي أبادهم رجلٌ مجنون مقدار 40 بقرةً حلوباً تدرُّ كل منها أرطالاً كثيرة.

وتشرحُ النشرة، نشرة الساعة الخامسة طبعاً، أن هذا النوع من البقرِ يدرُّ عشرة أضعافِ البقر في الشرق الأقصى، ثم تعدِّدُ منافع الحليب وخير المراعي وأهمية المزارع.

وحين يأتي موعد نشرة الكبار في التاسعة يقول المذيع للناس: إن بول بوت وصل إلى الصين لإجراء محادثاتٍ سياسية. انتهى الخبر، وانتهت، طبعاً، كمبودياً.

آه، ما أكبر عقول الصغار! وما أكبر قلوبهم! ما لهم ولهذا الجحيم المدعو بول بوت؟ إنّهم يرسلون البقر الحلوب إلى الأطفال الذين جوَّعهم. وها هو نصري أيضاً يرسلُ بضعة قروشٍ إلى العنوان الذي أعطته نشرة

الخامسة، لأنّه يريد أن يشاركَ في المساعدة. وأمس قال لي، ونحن نستمعُ إلى أخبار الخامسة: إنّه ذهب إلى مكتب البريد مع أمه وأرسل عشرة بنساتٍ إلى أهل «التيبت»؛ لأنّهم هناك دون كهرباء، ولأن ثمةَ مشروعاً لإضاءةِ تلك القرى الواقعة في آخر الأرض باستخدام الطاقة الشمسية.

أخبارُ الكبار لا تحكي عن «التيبت» إلّا إذا كان هناك نبأ عن عودةِ الدالاي لاما أو آخر، عن كيفية سرقة الصين خيراتِ وأخشاب وأشجار ذلك البلد المتاخم. أخبارُ الكبار ترى أن الكبارَ قد تبرعوا فلا تطلب منهم شيئاً، أخبار الكبار تعتقد أن للكبارِ قلوباً فلا تحثُّهم على شيء.

الداعي لمتابعتي أخبار الخامسة أن أصغي وأتعلم مع نصري. أصغي وأغتبط. أصغي وأطمئن؛ لأنّ ثمةَ عالماً مليئاً بالحنان والحبِّ والإنسان، إلى جانب هذا العالم المليء بنشرات الكبار في السادسة والتاسعة والعاشرة، وأحياناً أشعر أن الحل الوحيد لهذا العالم هو أن يُصغي إلى نشرةِ الخامسة. عندها فقط يعرفُ أنّ كمبوديا ليست فقط رجلاً من هواة الجماجم المكدّسة في الحقولِ يدعى بول بوت، بل إنّ هناك شعباً كمبودياً يحبُّ الحياةَ والأرز والغناء، وعندها يعرف أنّ لبنان ليست حكومات تتطاحن، ولا أحزاباً تتقاتلُ، بل شعبٌ يعيشُ في الظلام والخوف والعودة إلى العصر الحجري. وعندها يعرفُ أنّ الحياة ليست كلاماً فقط لا معنى له ووعوداً لا أصل لها، وهزاراً يظنُّ أنه جدي لمجرد أنّه ثقيل، بل هي أيضاً خير ومزارع ومراعٍ وبشر تساعد البشر... وقلوبٌ كبيرة في حجمِ الرجاء.

نصري وأنا نشاهد كل مساء أخبار الخامسة. نهتمُّ بالجائعين في السودان، مع أنّنا نديرُ وجوهنا أسى وحزناً حين تأتي أخبارُهم. ونهتم

بإنقاذِ آثار النوبة. ونعرفُ أن بور سعيد كانت مدينةً جميلة. ونتضايقُ لأن الإنسان يحرمُ الإنسان في البرازيل من الغابات التي فرشها الخالق من أجلِ عظمةِ الخلق. ولأنني اعتدتُ بلادة الكبار فإنني أقومُ في نهاية النشرة إلى الثلاجة لألتهم تفاحةً أو أكثر. أما نصري فيذهبُ إلى حقيبتهِ الصغيرة ويأخذُ منها بضعة بنساتٍ ثم يضعها في مغلف يرسله إلى نشرةِ الخامسة... ومنها إلى أترابه الجائعين في السودان. وأحياناً يرسلُ دميةً إلى أترابه في بيروت. ودائماً، دائماً لا يستمعُ إلى نشرات الكبار. إنَّه لن يفهمَ شيئاً من عالمِهم الرديء.

كيف تتغير الدنيَا!!

بعد ظهر ذات يوم كنت في أثينا، وكان أهل أثينا في قيلولة الظهيرة، ينامون عميقاً من أجل ليل تحطم فيه صحون الفخار البيضاء، ورحتُ أذرعُ الشوارع العريضة في هدوء، وحلَّ فيء العصر وأنا أمشي والمدينة غافية، وإذا أطللتُ على جادةٍ أخرى شاهدتُ دكاناً عتيقاً يبيع لوحات عتيقة وقطعاً من الفضة. وكانت المصنوعات الفضية كمثل ما يصنعون في اليمن من أساور وعقود تشبه معلقات من الشِعر الغزلي.

تيقنتُ فجأة ذلك العصر أنني موله بالمدن. وكما يحب المرء القرى والتلال والأودية والسواقي ويعيش معها ويخاطبها ويقول لها الشِعر وتقول له الموسيقى، هكذا أيضاً يمكن أن يولع بالمدن. القرى تحكي لنا، في الريح وفي النسيم وفي الصمت، القرى تحكي لنا الجمال، المدن تحكي لنا الإبداع. القرى تحكي لنا البساطة، المدن تكتب لنا التاريخ، حجراً حجراً، عصراً عصراً، زمناً إلى زمن.

القرى مهدٌ نولد فيه، فيدللنا حوشٌ صغير في حجم الطفل والطفولة. مربعٌ من مرابع الحياة، المدينة مدى ومستقبل وبناء. القرية حضن، المدينة وطن.

وأنا أعشق القرى وأحب المدن.

أنا والقرية مثل الطفل واليتيم. أنا والمدينة مثل الزواج. عقدٌ قانوني رسمي، وإنني على الرغم من كل ما لها من شروط، أحبُ المدن.

لا، ليست هناك مدينةٌ مفضلة، لا، هناك مجموعة مدن منتشرة في النفس مثل حب الأطفال، مثل عقد من الياسمين في عنق غجرية تبيع الورد في ليل طليطلة. هناك مدن نحب ضفائرها الرخامية، وهناك مدن نحب أنهرها، وهناك مدن قاتمة وهناك مدن كريهة، وهناك بوخارست.

لقد جئتُ إلى باريس في المرة الأولى وأنا في العشرين أو التاسعة عشرة من العمر، وكنتُ أعرف باريس قبل ذلك بعشرين عاماً. والآن وأنا أعرف باريس منذ ألف عام، لا أزال مولعاً بهذه المدينة الهيفاء، وكأنني أخطو إليها للمرة الأولى، أو كأنني أحبو. كلما وصلتُ إلى باريس وضعت حقيبتي في غرفة الفندق ومشيت إلى الجسور. كلما عنَّت في بالي إجازة رائعة حلمت بأن أمضيها في «الباري سيتيام» بين أرصفة «الكي دورسيه» وجنات «الشان دومارس».

وأحلم من ضمن الإجازة بأن أمَّر على المكتبة العامة في «الأفينو بوسكيه»، وأن أذهب إلى سوق الخضار في «الريوكلير» لتناول الغداء من عند المدام أنجليك: كيس من البطاطا المقليَّة وقطعة من الدجاج المشوي.

ـ ماذا يريد السيد؟

• كيساً من البطاطا المقليَّة وقطعة من الدجاج المشوي.

وتصرخُ المدام أنجليك في صوت تتأكد من أنَّ الحي كله قد سمعه، تصرخ في مساعدها خلف المشواة الكهربائية:

• كيساً من البطاطا المقليَّة وقطعة من الدجاج المشوي للسيد هنا. عشرون فرنكاً لو سمحت.

تبدو المدام أنجليك - بجسدها الضخم - كأنها خارجة للتو من إحدى روايات «مارسيل بانيول». ويخطُر لي أحياناً أنَّ بلزاك كان يفتش

عن أبطاله هنا، في هذه الأزقَّة الجميلة المليئة بالفرح والصراخ. لكن للأسف، لم يكن بلزاك يقطع شوارع باريس في النهار. كان يمخرُ عبابها في الليل، يستخرج أبطاله من حدائقها، ومن وراء جدرانها، كما يسعى الصيادون إلى اللؤلؤ في هدأةِ الليل وسكون المدى.

في النهار كان السيد بلزاك يكتب أو ينام أو يلزم البيت أو الحديقة، ولا يرد على الطارقين.

لقد كانوا جميعاً، جميعاً من الدائنين!

لذلك لم يكن المسيو بلزاك يخرج في وضح النهار. تمضي السنون وتظل «السيتيام» أو «باريس السابعة» في لغة وزارة البريد والبرق والهاتف منحوتة جمالية خارقة على الضفة اليسرى من السين، لا، ليس بسبب برج «إيفل» ولا بسبب «الأنفاليد» ولا بسبب «الكي دورسيه» مقر وزارة الخارجية.

آه، هنا، الكي دورسيه، هنا، لقد رأيتُ هنا ذات مساء صورة «الكاردينال ريشيليو» معلّقة على الجدار فوق رأس المسيو كلود شيسون. يُقال: إنَّ ريشيليو هو مؤسّس الديبلوماسية الفرنسية. يُقال: تاليران، يقال: نابليون، يُقال: إنها كانت - «الكي دورسيه» - مقرّ المؤامرات والدسائس الداخلية في العصور الغابرة. يُقال. لكن كيف يصدق المرء كل ما كتبه الروائيون الفرنسيون، بل كيف يستطيع أن يقرأ كل ماكتبه الرواة والروائيون والروايات في فرنسا.

إنها لعاصمة الثرثرة اللذيذة، باريس، إنها لعاصمة الثرثرة اللذيذة، منذ أن بدأت الثرثرة تُدون في الكتب.

جلستُ أمام المسيو كلود شيسون ذلك المساء، فرأيت خلفه صورة «الكاردينال ريشيلو»، ولاحظت على مكتبه صورة صغيرة بالألوان لطفلة ترتدي قميصاً أصفر، لم نتحدثْ عن الصورةالأولى، بل راح وزير الخارجية الفرنسية يروي لي كيف تبنَّى صاحبة الصورة الثانية. إنها طفلةٌ من كمبوديا.

كيف تتغير الدنيا؟

بين قلب ريشيليو وقلب كلود شيسون. كيف تتغير الدنيا؟

صحراء البندقية

ذهبت إلى مسرحية أوجين أونيل لا لكي أشاهد المسرحية بل لأتفرج على جاك ليمون. إنه ذلك الشاب الذي أضحكنا حتى مالت بنا دور السينما ونحن يافعون، ثم أبكانا رجالاً، عِرقاً عِرقاً، في «ذهب ولم يعد»، ذلك الفيلم الرائع الذي يحكي بشاعة الحياة والموت في جمهورية بينوشيه.

كان جاك ليمون، شارلي شابلن الأفلام الناطقة، لا يمنحك الابتسامة إلاَّ وقد علمك درساً إنسانياً ما، أو زرع في عقلك لوحة بشرية ما. وقد جاء إلى لندن، على الرغم من كل الشهرة التي خلفه؛ لأن مجد الممثل لا يكتمل إلا في المسرح. ففي لندن، يصلُ المسرح العالمي إلى ذُراه.

ثمة ممثلون خُلقوا للشاشة وحدها. لقد نسي جاك ليمون أن شخصيته تكمن في تلك الحركة الدائمة وفي حنجرة طريفة الصوت. نسي أنه خلق للكاميرا، فوقف على المسرح وأخفق. ورُحنا نتفرّج في أسى على الرجل وقد أعطى الأولوية على الخشبة لممثلين شابين مجهولين. لقد ضاقت به الخشبة، وجعلتها أكثر ضيقاً تلك الحدة الشهيرة في نص أونيل القاتم. وكانت خيبتُنا ثقيلة.

وقال أحدنا: إنه المسرح، وهو صعب، وقال آخر: إنه الدور، وقال الثالث: إنه المخرج لم يعرف كيف يحرّك الرجل، وقال آخر: لا هذا ولا ذاك، بل نحن. لقد جئنا إلى هنا لكي نتفرّج على شاب في الثامنة والعشرين وممثل في «الشقة»، ونسينا أننا لم نعد صغاراً، وأن جاك ليمون قد كبر، وأن هذا مسرح أونيل لا سينما بيلي وايلدر.

فالسنون لا تمر بك وحدك، بل بالآخرين أيضاً. وها أنت تراها في شعر جاك ليمون وقد عُلّق فوق رأسه مثل بحيرة الملح. طبعاً لديه سنون كثيرة قبل الدخول في زمن التجاعيد وقبل الوصول إلى «منطقة السكون العميق»، كما كان يقول شاتوبريان الذي بلغ من العمر ببطله رونسيه أنه «ما عاد شيئاً سوى بعض من الزمن».

لكن جاك ليمون لا ينتمي إلى عالم رومانسي مثل عالم رونسيه بل إلى مدنيّة جديدة تطلب الوظائف في الصحف مشترطة على الناس ألا يتقدموا إليها بعد الخامسة والأربعين. هذه المرحلة وصلها رونسيه فقط وهو في الثمانين: العشق الصدئي والمدن الخراب (روما) والقصور المهجورة (شامبور) والجميلات المنسيّات على قارعة الوقت. وفي زمن رونسيه كان التقدم في السنّ مرادفاً للحكمة والعمق والفلسفة. فالشيخوخة وباء مثل الحب كما يقول لنا شاتوبريان، وليست عذاباً طويلاً كما يقول ميشليه.

يؤكد لنا شاتوبريان أيضاً أن التقدم في السن لا يقرره الجسد أو العمر، بل تتحكم به الذكريات؛ إذ عندما تبدأ الذاكرة في السيطرة «على تنسيق عوالم النفس» تكون قد بلغت الشيخوخة حتى لو كنت شاباً.

رونسيه بلغها في الثمانين، أي: شاتوبريان طبعاً، بعدما كان قد عبر مثل معظم الكتّاب الفرنسيين الكبار شيئاً من أرض الشرق الساحرة بين غزة ويافا.

جميع الرجال يقول لنا كامو، يحتاجون إلى الصحراء في مرحلة ما من مراحل حياتهم. وجميع الآثار الغربية الكبرى تمر بصحارى الشرق أو جباله في مرحلة ما: هاهو بيار لوتي مغتبط بالشرق من بداياته، من

اسطنبول. ولامارتين يهاجر مع القافلة إلى بيروت، والرحالة يملؤون رفوف المكتبات بالطّيّب من الكلام وبالزعاف منه: «أرابيا ديزرتا»! تلك الشواسع الخوالي، المليئة بألف حلم وألف قصة وألف ليلة وليلة فوق الكثبان البنفسجية وحولها.

لقد كان للصحراء في بعضهم تأثير إيطاليا وفرنسا في بعض آخر. ما من أحد وجد ضالته في مدينة، ألم يذهب اللورد بايرون إلى البندقية لكي يزيد قنواتها شعراً وأغانيها رومنسية؟ لكن حتى البندقية يضعها بايرون في الدرجة الثانية بعد الشرق: «إن البندقية تفرحني بقدر ما كنت أنتظر. والحقيقة أنني كنت أنتظر الكثير. إنها إحدى المدن التي عرفتها قبل أن أراها، وهي، بعد الشرق، المكان الذي حلمت به أكثر من أي شيء آخر».

غريب الشرق عند بايرون، إنه شرق أرمينيا التي قالت له عشيقته الأرمنية: إن الجنة في أرضها. ومن أجل تلك الجنة وتلك العشيقة راح بايرون يتعلّم - دون كل اللغات - الأرمنية! والواقع أنه لم يأتِ إلى المدينة العائمة إلا لأنه كان يحلم بأن يصطدم ذات مساء بظل من ظلال ديدمونة أو بورتيا أو تاجر البندقية بالذات أو شكسبير نفسه.

أم إنه كان يبحث عن النفس؟

لقد كان مواطنه ورفيقه في العظمة شكسبير على بعد أمتار منه هنا في سترانفورد، فلماذا يذهب للبحث عنه في البندقية؟ هل لأنه كان ملهباً آنذاك في مدينة «بارس» بالعلاقة مع الآنسة غوردون دو غايت التي يصفها لنا أندريه مالرو بأنها لم تكن تملك من الجمال سوى 23 ألف جنيه؟ ثم أكان يبحث في البندقية حقاً عن المستر ويليام شكسبير أم عن السنيورة سيغالي؟ فليفعل ما يشاء. لقد كان شاعراً حقاً.

جواز الانتظار

كان هناك زمنٌ، كان فيه جوازُ السفر اللبناني، مثل أيّ جواز سفر آخر في العالم، أو أفضل أحياناً. وكان جوازاً عتيقاً، صلباً، كرتونياً، غامق اللون، ومع ذلك، فقد كان يكتبُ عليه يكلٍّ بساطة وطيبة: «إن رئيس الجمهورية يوصي بحاملِه جميع دول العالم وأرجاء الكون»!

وشيئاً فشيئاً تقدّم لبنان، ولم يعدْ رئيس الجمهورية هو الذي يمنحُ الجواز كما في الإمارات الخيالية والإمبراطوريات السابقة. وتطور الجواز كذلك، فلم يعد في حجم الجيب الكبيرة التي غيّرها العصر بل أصبح في حجم الجيب الصغيرة المعاصرة. ولم يعد كرتونياً مثل الدفاتر العتيقة، بل أصبح بلاستيكياً له رائحة المصانع. ولا عاد أزرق غامقاً بلون السماء الصافية، بل أصبح أزرق فاتحاً بلون علم الأُمم المتحدة.

لكن يبدو أن التطور الذي لحق بالجواز لم يشمل حامله أيضاً. فقد أخذنا نلاحظ في مطارات الأرض وفي كل الموانئ البرِّية والبحرية الأُخرى، أنّ ثمة نفوراً من الجواز الجديد، وثمة حذراً من حامله.

وأخذنا نعامل بعض الأحيان كما يعامل حاملو الأوبئة الخفيَّة. وأذكر أنني في العام 1975 وصلت إلى إحدى الحدود الأوروبية، وسلّمت جوازي للمأمور العزيز، فأمسك هذا به وكأنّه ممسكٌ بقاتل آبرهام لنكولن، وراح دون أن يلتفتَ إليَّ، يعدو نحو رئيسه وهو يهتفُ بصوت عالٍ سمعه كل ركاب القطار: «معي جواز لبناني. معي جواز لبناني». وركض رئيسه أيضاً نحوه

لكي يلتقيا في منتصف الرصيف ومن أجل عدم إضاعة الوقت. وأخذ يقلب الجواز بفرحٍ شبيهٍ بفرح السعادين، ثم أخذ لونُه يتغيّر قليلاً قليلاً. لقد أصيب بخيبة. لا الجواز مزوّر. ولا صاحبه مطلوب. وأعاده إليَّ وكأن في نيَّته أن يشتمني.

ومرّة ثانية وقفتُ وسط طابور من الناس في أحد بلدان العالم الثالث، فلما وصل الدورُ إليَّ، رفع المأمور إصبعه وأشار أليَّ بأن أعود إلى الوراء. وبحثتُ، كما يقول أهل طرابلس، عن «كلمتين نضاف» أقولهما له فلم أجدّ... لأن المكان كان قذراً.

وكنت أسافر من لندن إلى باريس بالقطار فأرى الناس تتدافع أمامي عبر بوابة الجمرك فلما يصل الدور إليَّ، تتوقف الحركة تماماً ويغرق الشرطي في عملية تأمل للجواز مثل حكماء الهند ـ أي: مدة ساعة من الصمت ـ تقريباً يقلب بعدها شفتيه ثم يسمح لي بالدخول.

وليس ضرورياً أن يحدث ذلك دائماً، ففي أحيان كثيرة ينظر الشرطي إلى الجواز وإلى صاحبه بالكثير من الشفقة يومئ إليه بالمرور وكأنه يقول له: صحيحٌ أنني سمعت أخبار تلفزيون أمس ومع ذلك فإنني أُغامر بمسؤوليتي الشخصية، وأمنحك حقَّ الدخول إلى هذا البلد الهادئ...

وفي البداية كانت المأساةُ في المطارات وجميع الموانئ البرّية والبحرية الأخرى. أما الآن فقد أصبحت في الخطوط الأمامية بلغة لبنان، أي: في القنصليات. وهذه تنقسم إلى قسمين: قسم يعطي الفيزا بعد شهر، وقسم يعطيها بعد دهر. وفي السابق كانت القنصليات تأخذ

بعين الاعتبار توصية ما، أما الآن فالأفضل أن تذهب على رسلك لكي لا تثير الاشتباه بأنّك مسافرٌ لتقيمَ لا لمجرد الزيارة. وقد ذهبت ذات مرة إلى إحدى القنصليات في مدينة كبرى ومعي توصية من القنصل اللبناني هناك، فكان أن حصلت على تأشيرة مدّتها تسعة أيام. لماذا تسعة لا عشرة ولا سبعة؟! لا أدري.

ويبدو أنه كلما تطورنا في لبنان تطورت النظرة إلينا في الخارج. وخصوصاً في القنصليات، وقد ذهبتُ منذ مدة إلى إحدى هذه القنصليات بعدما طلب إليَّ الحضور بنفسي. وصلت القاعة الكبرى التي تشبه قاعة «المحاكمة» عند فرانز كافكا، في الساعة الثانية عشرة. وكان هناك أناس من جميع الجنسيات. هنودٌ وسودٌ وبيضٌ وفيالقٌ من رجال «السيخ» بشعورهم الطويلة وفساتينهم القصيرة. وكانت هناك نسوة مع أطفالهن. وقالت جارتي في قاعة الانتظار: إنها من زامبيا وإن رفيقتها في الطرف الآخر من أوغندا.

ثم أخذت القاعة تفرغ. وكان الذين جاؤوا قبلي والذين جاؤوا بعدي يحصلون على تأشيراتهم ويذهبون. وراحت القاعة تفرغ. وفي الثالثة نوديَ على الرقم الذي أحمله فتوّجهت إلى نافذة الرجل العظيم «هنيبعل» التأشيرات. وطرح عليَّ بضعة أسئلة واقعية رددتُ عليها بكلّ تهذيب. ثم أمرني بأن أعود إلى القاعة ثم أنتظر.

وعدت وانتظرتُ. وانتظرتُ. وعندما دقّت الساعة الخامسة كانت القاعة قد فرغت تماماً من كل الجنسيات. وبقيت الجنسية اللبنانية في جناح الانتظار. وتقدمت من النافذة أسأل عن الجواز، فقيل لي: اذهب وانتظر.

وعدت وانتظرت، ودخل عمال القمامة ينظفون ما تساقط من طلاب السفر وخشيت أن أنسى ويغلق عليَّ في قاعة الانتظار، فقمت إلى النافذة من جديد وسألت موظفاً لم يكن قد رآني من قبل وبالتالي لم يكن قد اشتبه بأنني قد أرغب بالإقامة في بلده، فتطلّع هذا بدوره إلى زميلته وقال بكلٍّ براءة: ماذا حدث؟ أين جواز السيّد؟

وقالت زميلته من شفتها السفلى: لا. لا لشيء. معه جواز سفر لبناني!

وتراجع الرجل إلى الوراء وكأنه في حالة اعتذار... من زميلته طبعاً، ثم تطلّع إليّ وقال: لا بد من الانتظار. كانت السادسة إلّا الربع عندما أعطيت الجواز الأزرق الذي كان ذات يوم جواز مرور، فإذا به جواز انتظار في كل أجنحة الانتظار في العالم.

الشّلال والصنوبر والدول الخمس

أمضيتُ سنوات طويلة من عملي الصحفي وأنا أكتب في الشؤون الدولية: موسكو وواشنطن والصين، وباريس، وإيرلندة، والفيتنام. والخلاف على الثروة السمكية في قاع البحار، وعن أنّ الرجال في اللاوس، أصبحوا، للمرة الأولى في التاريخ، يسمحون للمرأة بأن تتقدمهم في الطرقات العامة، وذلك طبعاً بسبب الألغام التي نُسيت دون تفجير خلال حرب الهند الصينية. والكتابة في الشؤون الدولية ترافقها متعتان: متعة المعرفة ومتعة البعد. ومع المتعتين هناك أيضاً هبة الحرية. إذ مهما كتبت عن فرنسا أو مهما قلت في السوفييت أو مهما قلت في الأميركيين فإنَّ أحداً لن يتصل بك: لا معاتباً ولا شاكراً ولا مهدداً. ليس لأنهم لا يقرؤون وقد اخترع غوتنبرغ لهم فن الطباعة منذ زمن، ولا لأنهم لا يهتمون فسفاراتهم تترجم كلّ حرف عن بلدانها، بل لأنهم إذا قرؤوا عرفوا أنّ الكتابةَ رأيٌ وفكرٌ ووجهة نظر.. أو هكذا عوَّدتهم السنون على الأقل.

لذلك فضّلتُ بكل وعيٍ كامل، الكتابة في الشؤون الدولية، اللّهم إلاّ المواقف القومية والأحداث القومية، فعندما كنتُ أحرص على ألاّ أكون إلى جانب الآخرين ولا خلفهم. وماعدا ذلك رأيت أنّ الكتابة في الشؤون العربية شوكٌ نمشي بينه أو عليه. أما الكتابة في الشؤون اللبنانية فقد كانت في زمن السلم شيئاً رتيباً في معظم الحالات، فلمّا جاءت الحرب رفض بعضنا، كما قال الأستاذ جان عزيز «لكل العرب» بعمقه الشديد، أن يدفع أحداً إلى الموت.

لذا، كنت أكتبُ في الشؤون الدولية، وحتى جان عزيز، هذا القاضي الطاهر الكف النقي الجبين وهذا السياسي الذي ظل نصفه في الأدب والفكر ونصفه المتردد في النيابة، وهذا النيابي الذي انهارت الدنيا من حوله دون أن يتأوه، خوفاً من أن يخطئ، هذا الرجل الذي كان نائبي لم أكتب عنه، فقد كنت أكتب في الشؤون الدولية.

كانت الشؤون الدولية مريحة، صراع الكبار والصغار. صراع الجبارين. صراع الجنوب والشمال، أي: الفقر والغنى. الساندنيستا.

أرجوك لاتنسَ الساندنيستا. ومعاهدة فرساي. وكنت أجيء إلى باريس لأركض لاهثاً وراء المرشحين للرئاسة ومن أجل كلمة أو كلمتين. بل ذهبت أحياناً إلى إيطاليا لتغطية الانتخابات البلدية... ولكي نعرف هل سيربح الفاشيست في بولونيا أم إن الشيوعيين سيأخذون ميسينا.

من كان يدري أننا سنصبحُ ذات يومٍ قضية دولية.

ومن كان يدري أنه إذا كتبَ المرء في الشؤون الدولية فلا بد له عند ذاك بالضبط من الكتابة عن جان عزيز: ليس كأقرب الناس إليك بل كأقرب الناس إلى حدود التماس بين الشرق والغرب، وبين البركان الدولي ونهر الأولي الذي كنّا نسميه نهر بسْري، يوم كنا، في هدأة الصيف وهنائه ننشد مقهى النهر برفقة جان عزيز طلباً للنسمة في حنايا الوادي، وللندى في حديث الشاعر السياسي. في الشؤون الدولية كنا نقرأ كثيراً عن خط ماجينو، عن سايكس بيكو. بل أذكر أنني ذهبت في العام 1979، إلى زيارة جان عزيز في دارته في جزين، وكان كالعادة يلتف بعباءة صيفية سوداء ومعه كتاب أو أكثر. كان يومها وحيداً قانعاً من عراقته السياسية

بأنه استطاع أن يسد رياح الحرب عن المنطقة. لا يذهب إلى أحد، لكنه يرحب بالقلائل الذين ظلوا يقطعون الطريق إلى داره، عارفين أن جان عزيز بحد ذاته انتصار، ولا تنطبق عليه قوانين الهزائم السياسية. ولما استأذنت بالذهاب، قال لي ضاحكاً، كمن يقرأ في مستقبل: إذا شاهدت العميد في باريس فقل له: إن نهاد بويز قطع نهر الروبيكون!

ماجينو؟ الروبيكون؟ الشرق والغرب؟ أنا أعرف أن منطقة جزين مجموعة من التلال والوهاد، وبحر من الصنوبر، وسواقٍ نحتتها الشلالات بمهارة وعناية، وأشجار سنديان من عمر التعايش الحقيقي في لبنان. وبالصدفة التاريخية أو القصد التاريخي، توزعت المنطقة على كل الطوائف والمذاهب، وبالقصد التاريخي أيضاً تقاسمت مع الشوف الماء والهواء وحبة الحنطة، ولم تتبادل معها علاقة الاحترام فحسب، بل علاقة التكريم على الدوام.

إذن، ماذا حدث لكي تصير جزين شيئاً دولياً؟

ماذا حدث لكي تصير هي الخط الذي يقسّم أو يوحد؟ وهذه المنطقة التي كانت في كل تاريخها بعيدة عن المطاحنات الحزبية وبعيدة عن السياسة غير المحلية، بل هي الوحيدة التي استطاعت طوال الحرب أن تظل بعيدة عن الحرب، ماذا حدث لها الآن لكي تتدخل الدول الخمس في شؤونها؟

حدثت الحرب.

والحرب حوّلت لبنان من مجموعة أسماء شاعرية إلى أسماء تكتب على خرائط الاستراتجيين، وإلى أسماء تكتب بلغة الحروب. فتصير الساقية قصة تاريخية، والمطلّ موقعاً حربياً، وطرقات الطفولة خطوطاً

لوجستية وخيوطاً أمنية، لا في خريطة لبنان التي محيت من الخريطة، بل في الخريطة السياسية الدولية، وفي الصراع الذي تجرجره إسرائيل خلفها من منطقة إلى منطقة، ومن ساقية إلى شلال.

لذلك يُكتب عن جزين الآن في خانة الشؤون الدولية!

لكن نحن أبناء هذه المنطقة التي اختلط في مدارسها الدرزي بالكاثوليكي بالشيعي بالسني بالماروني، المنطقة التي طلبت العلم من جبل عامل واللقمة من صيدا، وذهبت إلى السند في المختارة، نحن لا نستطيع أن نراها إلّا كما رأيناها دائماً. وهاداً وتلالاً وسهولاً من الصنوبر التي يستظل فيئها كل الناس.

فهل يمكن أن تحاسب جزين على خطيئة غيرها؟ وهل يمكن أن يُهمل تاريخ منطقة جزين لأن إسرائيل وضعتها مرغمة في خانة الاستراتيجيات الدولية؟

وهل يمكن أن يتحوّل100 عام من تاريخ جزين بين الشوف وجبل عامل وصيدا إلى مجرد صفحة منسية؛ لأن ظروفها أصبحت أقوى منها، ولأن أعواد الثقاب أشعلت في ثيابها؟

إنَّ جزين التي حوّلت من شلال إلى شأن دولي تلتفت الآن إلى أقرباء الأمس وإخوان اليوم وغد. لا تريد أن تكون قضية دولية تتدخل من أجلها الدول الخمس. تريد فقط، وبكل بساطة أن تكون بلدة في مقابل جبل الشوف، وفي جانب جبل عامل، وفي قلب الجنوب النقي.

لا تريد أن تقطع خط «الروبيكون» الذي كان يتحدث عنه جان عزيز طوال الحرب، ذلك الخط الذي قطعه القيصر لكي يشعل الحرب ضد بومباي، أو بالأحرى ذلك التعبير الذي أصبح يعني في معجم السياسة الدولية نقطة اللاعودة واللارجوع.

إن جزين لم تذهب طوعاً إلى أي مكان لكي يصبح لزاماً عليها العودة أو اللاعودة، ومن قراها القليلة المتناثرة هنا وهناك خرجت مدارس التعايش الحقيقي والأصيل، ومن قراها منذ زمن طويل، صدرت ملاحم عيد الغدير وفلسطين وعيد الرياض، وقبل ذلك بأزمان كثيرة كان نجيب العازوري يطلق الدعوة إلى القومية العربية في غوابر القرن التاسع عشر. ولقد كان أول كاردينال من جزين، وظل يعرف باسم بولس بطرس المعوشي حتى ثورة 1958 عندما أطلق عليه معارضوه لقب «محمد المعوشي». وهي تهمة لم ينفِها، وشرف لم يدّعِه.

وذلك الرجل هو خال جان عزيز، الذي خذلته منطقة جزين في زمن السلم، وأعلنته مع رفاقه ممثلاً لها في أحلك أزمان الحرب.

بَارون الأمَم!

تحتفل الأمم المتحدة بذكرى أربعين عاماً على قيامها دون أن تدري أن أربعين عاماً أخرى قد سقطت من ضلعها في نهر الرماد. فقد غادرها ليفون كيشيشيان، كما جاء إليها يوم اكتمل المبنى الأزرق على ضفّة «الإيست ريفر»، باسماً، وحيداً، متذمراً، راضياً، بل وعاملاً حقيقياً يتصبب منه العرق والشقاء.

كان ليفون كيشيشيان ظاهرة باسمة، فريدة، متحركة بالنسبة إلى أهل المبنى، وكان علامةً فارقة بالنسبة إلى عروبة المبنى وعربه. عفواً، بابا، عفواً، كان طبعاً أرمنياً قبل كل شيء. وحفظ الله أرمينيا الصغرى وأرمينيا الكبرى. لكن فوراً، بعد ذلك كان عربياً مشرقياً مقدسياً أمضى العمر وهو ينطنطُ في أروقةِ الأمم المتحدة قفزاً وراء القضايا العربية، أو قفزاً أمام الدبلوماسيين والسياسيين والصحافيين العرب الذين في عنقِ كلٍّ منهم خدمة من ليفون، أو صورة منه أو «مرحبا بابا وينك إنتا» أو «مرحبا بابا إنتا ما رحت مجلس الأمن!».

لأصدقائِه العرب كان يسهِّلُ الأمور، فينادي نفسَه ببساطةٍ «ليفون».

للآخرين كان بكلِّ جديةٍ واستعلاءٍ «المستر كيشيشيان»، بكلِّ ما في اللفظة من شهشهةٍ وتعدّدٍ أبجديّ. وكان في كلِّ مكانٍ من الأمم المتحدة. يصور في قاعة الطعام، يأخذ مقابلةً في الردهة، يلاحقُ سفيراً في صالة المندوبين، يخانقُ حارساً عند البوابة الكبرى، يركضُ ضاحكاً وراء وزير خارجية عربي. يرفعُ صوتَه عند غرفةِ البرقيات أو...

أو يجلس في مكتبِه الصغير. مكتب صغير، أجرد، متقشف مثله، فيه هاتفٌ أو هاتفان، وطاولتان أو ثلاث. وآلتان طابعتان. ومقص أو مقصان أو ثلاثة. وكومةٌ صحف. وفيه مساعدة، أرمنية طبعاً: «معلوم هذا أرمين بابا إنتا شو بخصك». وفيه جول. رفيق عمره جول كيشيجيان. جول بابا، جالساً في الزاوية مثل أكيم تاميروف أو بيتر لوري في أفلام «جول فيرن». وجول هو قلم ليفون العربي. قلم هذا المراسل الأرمني النشيط، النشيط حتى الموت، الذي غاب دون أن يعرف أحدٌ ما إذا كان يجيدُ كتابة العربية أم لا.

لقد كانت شخصيتُه الصغيرة المرحة طاغية بحيث لم يخطرْ لأحدٍ، في أيِّ يومٍ، أن يسألَ مراسل «الأهرام» في أكثر المراكز دقّة وشفافية ما إذا كان يعرف كتابةَ العربية أم إنه كان يكتفي بكتابةِ كل شيء بالإنكليزية. حتى حسنين هيكل لم يناقشْ ليفون كيشيشيان. وفي الدورات الحامية كانت «الأهرام» توفد من القاهرة صحافياً عربياً أو أكثر يكتبُ لها الرسائل المطولة، أما ليفون فكان برقياً... برقاً برقاً برقاً.

كان ظاهرةً ضاحكةً كثيرةَ الجدّية والعمل. كان أرمنياً لكن من القدس. وكان مراسلاً لـ «الأهرام»، لكنه يحمل جواز سفر من اليمن الجنوبي. وكان يروي بطيبةٍ وابتسامٍ كيف بدأ البارون ليفون كيشيشيان حياته العملية سكرتيراً في حزب التحرير الإسلامي في القدس. وكان مصوراً ماهراً مثل كل أرمني «بارون باب أول خوش مصور». وكان صياحاً عصبياً (نرفوزاً) راكضاً دائماً إلى عمل. لكنه أسرّ إليّ ذات يومٍ أن أرقى ما في الحياة هو الشعر. وكان كلما لمحني في الردهة، رفع يده محيّياً في الهواء وهز رأسَه بيأسٍ وتساءل: «ليش ما عم تكتب شعر بابا هالأيام؟».

وكانت جدران مكتبه الصغيرة النصفية مليئة بالصور. كلُّ الحكام العرب الذين ذهبوا إلى المنظمة تصوّروا مع ليفون أو صوّرهم ليفون. وكل الوزراء صادقوا ليفون، وكلُّ الجامعة العربية لم تجتمع أو تتّفق في يومٍ كما اجتمعت على جدار مكتب البارون كيشيشيان الصغير. وكلُّ المراسلين الذين عملوا في الأمم المتحدة بدأوا عملهم من مكتب ليفون: لكي تعرف طريقك في مجاهلها الأنيقة المغطاة بالسجاد الغالي، كان عليك أن تذهب إلى ليفون أولاً.

وعندما ذهبت إلى المنظمة للمرّة الأولى في العام 1973 كان الجميعُ يسألني: هل اجتمعت إلى «ليفون»؟ ولكثرةِ ما سُئلت ظننتُ لوهلةٍ أن «ليفون» اسم وهميٌّ مثل «غودو». لكن ما لبث زميلي وصديقي رفيق خليل المعلوف أن قدّمني إليه، وهو يعبُر عاصفاً رواق الجناح الصحافي ذات مرّة. صافحني وكأنه لم يرَني، وأكملَ طريقهَ، يحييّ هذا، يحدِّث ذاك، يناقش، وتقفز الأرض تحت خطواته الصغيرة وهو ذاهبٌ إلى عملٍ أو آتٍ منه.

كان خطأً مستقيماً بين عملين. واحد أُنجز وآخر لا بد من أن يُنجزَ الآن. وكان يقتطعُ مقتطفاتٍ من الصحف بيده وكأنما بدأ الصحافة اليوم، ويكتب إلى «الأهرام» وكأنه مضى عليه في الصحافة نصف قرن. وكان يعمل لجميعِ الوفود العربية قاطبة. ولم يكتفِ «ليفون كيشيشيان» بأن يكون مراسلاً كتابياً بل مراسلاً لإذاعات عربية عدة. كيف؟ كان هو يكتب وجول كيشيجيان يقرأ، ولو بخنَّةٍ من أنف بيتر لوري أو كيم تاميروف! وقد تزوّج هذا العاصفُ المتدفِّق الفوار من سيدةٍ أرمنيةٍ هادئةٍ مثل بحيرة البجع. وكان هو متخرجاً في أستديو البارون كيفورك للتصوير، وهي متخرجة في هارفرد. وكانت هادئةً هانئةً عاشت وهي تصغي إليه يصرخُ ويعطي الأوامر ويخبئ

عنها في درجه زجاجةً ما. ولما غابت غاب فرحُه. وظل يتحرّك لكنّه لم يعدْ المثال القاطع على أن الحركة الدائمة ممكنة. وأخذ يقطعُ أحاديثه في السياسة وفي الصحافة وفي الأمم المتحدة لكي يتحدّث عنها. وظل على الرغم من غيابها الطويل يتحدث عنها وكأنها على قيد الحياة، أو كأنها نازلة غداً إلى المكتب لكي تؤنبه بهدوئها الروحي العميق. إلى أن غاب هو أيضاً، تاركاً جبلاً حقيقياً بارداً من الهدوء في الطابق الرابع من المبنى الأزرق، مخلفاً شيئاً كثيراً من الحزن لدى الرفاق في كل مكان. «بابا ليفون هيدا أمم متحدة لم يعد كما كان. يعني مش تمام. ورحمتك».

رسائل من الذاكرة الريفية

حين يسُود البَرد ويتوالى الليل والنهار كما في رباعيَات الخيام

إذاً، القطيع في «البروفانس»، كان يؤخذ في الصيف إلى الجبال، وفي الشتاء كان يُعاد إلى الساحل البورجوازي، هكذا دوّن ألفونس دوريه في الحلقة الماضية!

... عندنا، في الجنوب كانت القطعان تنقل في الشتاء إلى الأودية لحمايتها من أن تنفق في ثلوج الجبال والمرتفعات، حين يسود البرد وتتوالى العاصفة مثل الليل والنهار كما في رباعيات الخيام، وحين يختلط البرد بالحجر، وتنغلق أبواب القرية على أهلها، ولا تعود ترى فوق السطوح سوى دخان هادئ يتصاعد من المداخن، ملتوياً هارباً تقلبه ريح الشمال كيفما انقلبت، أو كيفما عصفت، أو كيفما قرصت قرصاً شديداً يسمونه ريح الشمال.

أما القطيع والرعاة فكانوا يتدثرون بجدران الأودية! وأسوارها العالية من أشجار السرو! وما إن يبدأ الخريف بالتراجع أمام كرّ الشتاء، ويستعد لأن يرفع قبعته مودعاً، أواخر العناقيد وأكواز التين الشتوي، حتى نبدأ نسمع ناي الرعاة القادمين من التلال والمرتفعات المجاورة.

وكان الرعاة يطلقون ألحاناً غير مألوفة لنا، مبطنة دائماً بشيء من الحزن، وكانوا جماعات جماعات. أربعة أو خمسة، ومعهم كلاب حزينة قُصّت آذانها خوفاً من أن تظل ممسكاً هيناً للذئاب حين يأتيها هي أيضاً الجوع، فتهاجم دون حساب، متشبعة قبل أي شيء رائحة الماعز الشهي نيئاً أم مشوياً في أواخر الصيف المقبل.

وكانت تأتينا نحن، في التلال، حكايات الذئاب الكاسرة وبطولات الرعيان، فيدبّ بنا الخوف من الاثنين، ونروح نلقي التحية على الرعاة بكل تأدب، حين يطلعون أحياناً إلى ساحة القرية لكي يشتروا شيئاً من الخبز أو شيئاً من القمح أو قليلاً من الطحين.

لغير ذلك لم يكونوا يتركون الوادي إلى شيء: من نهايات الخريف إلى إطلالات الربيع، وكانوا يأكلون وينامون ويشربون مع القطيع الذي نلمحه من بعيد في طلات الشمس، وأحياناً تظل تأتينا من الوادي الأنغام المرتفعة من الناي؛ إذ يبدو وكأن هبة من العشق قد دبّت في عزلة الراعي، بعيداً عن أهله، بعيداً عن كل شيء إلا الماعز والمياه المتجمدة في السواقي والينابيع المتجمدة مثل ثريات في قصر مهجور.

كان الرعاة يأتوننا من القرى المعلّقة في رؤوس الجبال القريبة، وكانت الرحلة إلى الوادي تأخذ منهم نهاراً وليلة كاملين، فالماعز بين كسول ساهم يفكر في قصيدة، أو في رعي، وبين ملعون يقفز هنا وهناك ويضيّع الوقت مثل الفراشات. وهكذا يمضي الراعي نهاره وهو يرفع عصاه، متنقلاً خلف القطيع مثل الرجل المطاط في فيلم «والت ديزني»، هاتفاً أبداً ذلك الحوار الوحيد بينه وبين ناحلات الحقول:

ـ هو، هو، هو!

وبسبب استعجال الوصول إلى الوادي لم نكن نتعرّف إلى الرعاة جيداً حين يصلون إلى ساحة القرية، فقد كانوا يلقون التحية بسرعة وهم يحاولون إبقاء الماعز في صفوف نظامية، وأحياناً كان القطيع يطلّ ونحن في المدرسة، متحلقين حول الموقد، فنسمع صوت الوصول، ونسمع هدير كعوب القطيع مثل خيل تهب من بعيد، لكننا لا نرى القطيع ولا الرعاة.

وكنا نتوقف عن القراءة وتتحول آذاننا إلى الخارج، ويكون «المعلم» قد أعطى أذنه هو أيضاً إلى هذا الفضول، فيتصنّع التسامح معنا إلى أن يغيب هدير القطيع من جديد، فيتنبه فجأة ويرفع عصاه الصغيرة في وجوهنا!

ـ أنت اقرأ.

هكذا كان «المعلم» يبدد سأم النهارات الباردة في مواطن الخريف، وكانت أجيال كثيرة قد مرت عليه في تلك الغرفة، وكرر الأشياء نفسها والأمثولات نفسها مثل الليل والنهار في رباعيات الخيام، فلم يتبقَّ له سوى السأم وعلبة سجائر فضية، يضع فيها التبغ، وفي جيب سترته التي يبدو أنها حيكت مع اختراع الأبجدية، في جيب سترته يضع ورق لف السجائر الشفاف، وإذ يصل يعلّق معطفه إلى جانبه (صنع بعد الأبجدية بقليل)، كان يجلس خلف مكتبه العتيق، ويفتح العلبة الفضية، وينتقي الورق الرقيق، ويروح يقتل السأم متظاهراً بأن عينه علينا.

ومن وقت إلى آخر، كان يصرخ، مثل حراس الليل الذين يطردون النوم والنعاس:

ـ أنت يا ولد، اسكت!

كان يضمن أن ثمة ولداً يتكلّم أو يوشوش في أي وقت من أوقات النهار، وكانت «المدرسة» كلها عبارة عن هذه الغرفة الفسيحة قليلاً، وقد حشرت فيها كل «الصفوف» والحطب والمدفأة ومعطف «المعلم» وقبعته والأحذية الكاوتشوك التي كنا نلبسها في الشتاء تفادياً للصقيع، وسترة «المعلم» وعصاه وشاربيه الأصفرين من كثرة التدخين، وسأمه اليابس من كثرة التعليم:

ـ اسكت يا صبي!

أحياناً، ربما لدقيقة أو اثنتين، يكون الصمت مخيماً بالصدفة على الجميع، لكن «المعلم» يصرخ مثل ساعة «الكوكو»:

ـ اسكت يا ولد!

ويضحك الأولاد، ويسكتون في أي حال.

يمرُّ بنا الحدث الريفي الوحيد دون أن نراه، فمجيء القطيع هو الحدث «الخارجي» الوحيد. كل شيء آخر كان رتابة العام الفائت، وكانت في ذاكرتنا دائماً صورة «الراعي الكبير»، وهو رجل مبني من شاربين أحمرين وعقال، آه، وأيضاً سروال أسود مثل راقصي الفولكلور الروس، والحقيقة أنه كان يبدو وكأنه آتٍ من جبال القفقاز، وليس من الجبال الجنوبية المجاورة، وكان هو الذي يتوقف في الساحة ليلقي التحية مفصلة على أهل القرية فيما يكمل الرعاة الآخرون طول الطريق.

وكانت الساحة كبيرة مثل الحلم، مثل حجم الأشياء في عيون الأطفال، ولم يكن هناك جمع من الناس، فالناس في الحقول أو في البيوت، لكن كانت هناك دائماً دون خطأ سوى خطأ الرشح، دائماً كانت هناك «فرقة» أو جماعة الساحة.

والفرقة كانت مؤلفة من السادة صاحب «الدكان الأهلي الكبير»، وهو شاعر في أوقات الفراغ، ومن عمي رسيم، وهو شاعر في أوقات الفراغ أيضاً، ومن المختار، وهو شاعر في أوقات الفراغ، ومن شرطي البلدية، وهو شاعر متفرغ، ومن «الناطور» أو حارس القرية، وهو رجل لم يكن لديه ما يحرسه في عالم لا يعرف السرقة، فكان ينام أحياناً أو يغفو في الساحة، ولم يكن شاعراً متفرغاً.

كانت وظيفته أن يستمع.

وكنا في الصباح نأتي إلى المدرسة متلكئين، وقد علّقنا في أكتافنا أكياس الكتب المصنوعة من القماش. لم تكن هناك حقائب! وكنا نحلم في الليل بأن الثلج سيتساقط، فلا يعود المعلّم قادراً على المجيء من القرية المجاورة، لكن ذلك النسناس الأبيض نادراً ما منحنا عطلة شائقة! وكنا إذ نصل نجد أعضاء الفرقة قد جلسوا جميعاً على عتبة حجرية واحدة وراحوا يتناقشون.

كل يوم كانوا يتناقشون، وأحياناً تعلو أصواتهم لكسر الرتابة أو لتأكيد موقف ما، وعلى الرغم من البرد الذي أخذ يطلّ كانت جباههم العريضة تتبلل عرقاً، فيزيح عمي رسيم قبعته قليلاً إلى الخلف، وتبدو صلعته في مثل الثلوج المقبلة، ويمسح العرق وهو يتأفأف من غباء الآخرين الذين لا يفقهون شيئاً، شيئاً أبداً.

وكان النقاش يستمر طوال الصيف والربيع والخريف، فما إن يطلّ القطيع ويعرف السادة الشعراء أن الشتاء قد أصبح جدياً حتى يهرعوا إلى الاختباء تحت قبعاتهم الصوفية، خلف المواقد أو أمامها، وإلى هناك،

إلى «غرف الشتاء» تنتقل سوق الحكايات، وتنتقل بطولات عنترة والزير أبو ليلى المهلهل، ولا ينام السادة الشعراء، متفرغين أو غير متفرغين، إلا بعد الاطمئنان إلى أن «الأبجر» لم يصب أو أن عنترة قد التقى عبلة من بعيد وقال لها شيئاً ما.

ماذا قال عنترة لابنة عمه سليلة آل عبس الكرام، أشاوس الصحراء، أكارم الناس؟

لقد وقف راعي «الأبجر»، واستلّ سيفه من جانبه، وأنشد و«الأبجر» من تحته يتهمز:

فوددت تقبيل السيوف لأنها

لمعت كبارق ثغرك المتبسم

بماذا ردت عبلة؟

آه، لقد أشكل الأمر على السادة الشعراء. لكن أخيراً يحلّ «المختار» المسألة:

«يا جماعة قلنا لكم النسوان لا تحكي لا تحكي».

ويذبل الجمر في الموقد، ويسترسل أهل «غرف الشتاء» في نوم هادئ مثل ليل القرى.

نيسَان

كان نيسان يجيئنا في حقائب الشعراء وقبعات الرعيان. وكان يطل من التلال والأودية وجنبات البرية ذات صباح وكأنه كان مختبئاً في الفجر منذ زمن طويل. وكان يطل مرة واحدة كأنه مقدمة موسيقية أو كأنه رفّ آخر من رفوف الطيور العائدة مع الدفء ويقظة الربيع من سبات العتم والمطر. وكان إذا أطل عرفنا أنها خاتمة الفصول المنطوية وبدايات التفتح وكساء الأشجار وأناشيد اللوز.

وردة من هنا وخرير من هناك، ثم يتمخطر السيد الربيع عارفاً سلفاً أنه السيد الربيع، وأنه دلال الفصول. كيفما طاب للأرض أن تدور حول نفسها أو حول كواكبها الحائرة مثل طائرات الورق في ملاعب الأطفال.

فجأة أفتح النافذة فإذا نيسان على حافتها، هو وعصافير التيه وتلك الألوان الغائبة بالأمس في عالم الأمس، وقد تبعثرت على الأرض مثل البذار. ويدبُّ فرح نيسان في الناس، فيرفعها عن الأرض، وتروح تمشي مثل الجنادب الحالمة، راكضة إلى الكسل والغبطة ومروج البيلسان.

ويتمطى الفقراء ويتثاءبون فوق أحطابهم كأنما أعطاهم نيسان مثقالاً من الذهب أو مثقالين، فشعروا بلذة غامضة مثل غبار البيادر.

إنه على الأرجح يجيء هكذا منذ مئات السنين، ساقان من الشقائق وخفان من الشعر. وهو يخلع معطفه عند الباب مثل فرسان الطاولة المستديرة، ويعلق الشتاء خارجاً عند المعالف، ويتركه مثل فرس جرباء

تجتر حكايات الضجر وشوك الليالي الخوالي، والناس أيضاً تروي حكايات الأطفال إذا أطل، خارجاً إلى الحدائق. لقد دانت لأقدامهم الصغيرة أتربة الفرح الآن، وانتهت المسألة! فليتدبروا الأمر بينهم وبينه، ألم يكن هو الذي أوقف العاصفة براحة يده قبل أن يتكئ مطمئناً على حافة النهر؟ يتغير نمط الأشياء والبشر. يرتدي كلاهما رداء متجاوباً ومنسجماً مع رتابة التغيير في إطلالة الفصول. تنبسط الأرض مثل كف كريمة، ويعلو صوت الشمس، فتلفح بالسوط الوجوه التي ترتفع في وجهها.

إنه نيسان.

وقد عرفنا بذلك من رسائل الحبق ومن نقلة العصافير وطلائع اللوز. وعجائز الساحة شعروا فجأة بشيء إضافي من الحياة، فخف مسيرهم وارتفعت ظهورهم بعد انحناء طويل، ودبت في كل مكان رائحة الأرض مثل عطر الأرض، توزع مجاناً على المارة والجالسين والمتأملين في جمال سيدة الطبيعة، زجاجات عطر كُتب عليها نيسان.

وفي السماء تصفو السماء للعشاق وشعراء الزجل، زرقاء بنفسجية مثل الزعفران. وتمد سماء نيسان الليل من أجل العاشقين. لكن الفجر سرعان ما يداهم أهل الحقل لكي يقوموا إلى حقولهم، فيقومون ويحرثون ويأكلون وينعمون في الفيء بأجمل قيلولة تحت قرص الشمس.

إنه نيسان: نبتة الحياة في الفصول، تنبت من كل مكان، وتملأ الحقل والسهل خضرة ويفاعاً وحياة، فيعود الصفاء إلى المياه والطير إلى الغصن والفجر إلى الفجر. كثيرة حكاياته، نيسان، وكثيرات صباياه تعرفهن من وردة عقدت فجأة في آخر الجدائل.

وكنا نعرفه بالصمت أو بالمناداة.

وكانت فيروز تذكرنا إذا ما أغفلنا أمر الحبق ورسائل المرغريت. تذكرنا أنه جاء وتسلق الأبواب، وتعلق بالقلوب، وغنى الغناء الربيعي الموشى بكل أنواع الزهر والخير والعطاء.

سوى أن نيسان جاء هذه المرة ونحن في البعد. نتخيله كما ألفناه شهر الزهر والطير. وقمراً يحاكي بالسكون تلك المناظر الرائعة التي تتبدى له من كوة الليل.

سيدتي الجميلة... جداً

شاهدتها في دورها الأول في فيلم «إجازة في روما». والذين في عمري أو عمرها أو أي عمر من أعمار السينما لا ينسون تلك الغرّة الطائرة فوق رأسٍ جميل فوق دراجة بخارية يقودها غريغوري بك بكل جنون. ولا ينسون ابتسامتها، ولا ينسون تنهيدتها، ولا ينسون حنجرتها، ولا ينسون أنّها مثلت دور النبيلة التي تاهت في شوارع روما، فجنَّتْ قليلاً، وكان جنونها نبيلاً رائعاً مثل عينيها التائهتين بين ضفتين من الجمال.

ولا أنسى حنجرتها. خصوصاً حنجرتها.

وهذه الحنجرة سمعتُها فيما بعد في أفلام رعاة البقر تقول إن صاحبتها ذاهبةٌ إلى ويتشيتا، وسمعتها في فيلم «سيدتي الجميلة» تبعثُ الجمال في الجمال، وتبعثُ الجمال في البشاعة، وتبعثُ الجمال حتى في أبشع أشياء الأرض أي الفقر.

وهذه الحنجرة سمعتُها في فيلم «حبّ عند الغروب» مع غاري كوبر، وسمعتُها وهي تبعثُ الوداعة في الوداعة، والحبَّ في الحياة والموسيقى، في الحبِّ والعشق، كله في محطة قطار... فإذا المحطة تسافر في السحر والقطار والحبِّ والغروب، وتبقى حنجرة أودري هيبورن الطفولية في المخيلة مثل صوتها ومثل نحولها ومثل طيفها العذب.

وحين كبرت كنتُ أظنُّ أنني أحببتُ أودري هيبورن؛ لأنني ساذجٌ ولأنني أحبُّ النساء الطاهرات المنظر حتى على شاشات السينما أو حتى في «الفطور عند تيفاني». لكنني اكتشفت أن كلَّ العالم يحبُّ أودري هيبورن

للأسباب نفسها، وأنّ كلَّ العالم يحترمُها؛ لأنها عاشت في عالم آسنٍ، وظلّت مثل زنبقةٍ على عنق تلة. وظلّت دائماً حنجرةً رائعةً خفيفة الظلِّ حتى لا تكاد تراها، وجسداً ناحلاً لا تكاد تراه.

شاهدتُها في أفلام بوليسية مع كاري غرانت، وكان العملاقُ كاري غرانت يبدو إلى جانبها مثل مخلوقٍ صغير. وشاهدتها إلى جانب عملاق آخر وحنجرة سينمائية أخرى هي غاري كوبر، ومع ذلك بدا غاري كوبر في طولها المتواضع تقريباً. وشاهدتها تهزل إلى جانب بيتر أوتول وهو بعد في عزّهِ الفني، لكنه بدا أمامها مثل فروج فلتان. وشاهدتها إلى جانب جين كيلي فإذا هو إلى جانبها، وليست هي إلى جانبه.

وعلى الرغم من كلِّ شيءٍ لم (تتشرشحْ) مرّةً واحدة. لم تمثلْ فيلماً لا تحترمه، ولم تقبلْ دوراً لا تحبُّه، ولم تبتذلْ في الحياة ولا على الشاشة ولا في هوليود. وقبل 12 عاماً تقريباً شاهدتها في برنامج جوني كارسون، وهو رجلٌ فظٌ يتصنّع السخافةَ أو يتقنها، لا أدري، ويقدّم أكثر البرامج نجاحاً في أميركا. وعندما أطلّت توقّعتُ أن يظلَّ جوني كارسون جالساً كالعادةِ، وأن يملأ المكان بنكاتٍ من سقط المتاع كالعادة أيضاً، وأن يضحكَ يميناً ويساراً كالأغبياء كالمعتاد. لكنّ الذي حدث أنّها ما إن أطلّت حتى هبَّ جوني كارسون واقفاً، ثم انحنى يقبِّلُ يدها، ولم ينادِها طوال السهرة إلا بلقبها الطبيعي الذي ولد معها: سيدتي!

ومنذ ذلك الوقت لم أعدْ أرى أودري هيبورن إلاّ على الفيديو حين أكرِّسُ ليلةً بعد أُخرى للتفرّج على إيلايزا دي ليتل تبيعُ الزهر واللهجة العامية في سوق الغوبن غاردن. أما الأفلام فقد انسحبت منها وكذلك

البرامج التلفزيونية التي لم تقربْها قط. وقبل عامين أو ثلاثة صدر كتابٌ عن سيرة حياتها، فهرعت إلى قراءته بكلِّ ارتياحٍ ومتعة؛ إذ اكتشفت أنّها من أصلٍ نبيلٍ في الحياة الخاصة أيضاً.

مدةٌ طويلةٌ مضت ولا من أودري هيبورن ولا من خليفة لها. وبدلاً من ذلك تمتلئ الصحف بصور «كوستارك» و«دانا رايس» وذلك المنتوف غاري هارت وهو يهرب من البيت الأبيض عائداً عارياً إلى جبال الكولورادو. ويمتلئ العالم أيضاً بالأخبار الرديئة. وتمتلئ الشاشات بداينستي من صنعٍ أميركيٍّ، وأُخرى من صنع أُستراليٍّ وثالثة من صنعٍ فرنسي. وتغيبُ عن الشاشة والعيون عيونُ أودري هيبورن، وحنجرتها وأيضاً ـ بالإذن من نزيه خاطر ـ تلك «السيلوات» الناحلة مثل شجرة أمام أُفق.

وأمس كنت أحضر نشرةَ الأخبار عندما أطلّت. ليس على درّاجة نارية، ولا تبيع الزهر في كوبن غاردن، ولا تتشمّس في جبال سويسرا. لقد أطلّت هذه المرّة من بين الأحداث، ومن ضباب الأخبار السياسية سفيرةً للأونسكو لدى جياع أفريقيا.

وكان هذا بالتأكيد أجمل دور أرى فيه أودري هيبورن، ولم أتخيّلْ أن مؤاساة الجياع وضحايا الجفاف تليقُ بامرأةٍ على هذه الأرض كما تليق بـ «سيدتي الجميلة». لقد أصبحت بعد هذه المهمة «سيدتي الجميلة... جداً جداً». سيدتي الرائعة الجمال. وكما كانت تملأ أمسياتنا متعة ملأت علينا بالأمس تلك العشية اعتزازاً؛ إذ من عالم الثرثرة والسبات والحذر يطلع بين حينٍ وآخر مخلوقٌ من هذه الطبقة العليا من المشاعر.

لقد بدت لنا أودري هيبورن وهي تركعُ أمام الأطفال الجياع في الصحراء مثل واحة طويلة ناحلة سوداء العينين وذات حنجرة لها وقع لا ينسى.

الرحلة إلى فلورنسه
طريق بَبن متحفين

القطار المتّجه من نيس إلى فلورنسه كان مليئاً بالناس. أُناس كبار وشبان وأناس مع حقائب جميلة وآخرون مع أكياس صغيرة، رُبطت إلى ظهورهم دلالة على اللامبالاة بكل شيء وبأي شيء. إنهم مشردو العصر الحديث.

وتلك المقصورة التي حاولت أن أعثر لنفسي على مقعد فيها، كانت هي أيضاً مزدحمة بمندوبين ومندوبات عن القارات الخمس. فالممر كان حافلاً بأهل الجنس الأصفر من يابانيين أو كوريين، أو من لهم مثل هذه العيون المشقوقة التي تشبه الهويات المكتوبة على الجبين. وفوق المقاعد وتحت المقاعد وإلى جانبها، كان هناك شبان إيطاليون عائدون على ما يبدو من رحلة إلى إسبانيا، وقد أتخموا بالذكريات الجميلة؛ لأنهم لم يملوا الحديث عنها طوال الطريق. وبعدما عثرت على مكان بين مكانين، ودفعت حقائبي دفعاً إلى الرفوف المكتظة بأشياء الآخرين، تطلعت حولي فإذا أنا في عالم يكاد يكون مكتملاً.

والذين يرددون دائماً أن العالم صغير حقاً، يرون العالم أصغر من ذلك بكثير حين يتفرجون عليه وقد تجمع في مطار أو ميناء أو قطار، حيث يبدو المشهد كأنه سوق رومانية قديمة تباع فيها الغنائم البشرية وسبايا الحرب.

وسرعان ما يشعر أهل القطار بألفة غريبة فيما بينهم، أو لعل هذا شعور تلقائي يجمع أهل السفر جميعاً: صداقات ودية تبدأ في أول الطريق، لكنها لا تلبث أن تنتهي في نهاية الطريق أيضاً، حين يتفرق الناس ويودعون بعضهم بعضاً غير قادرين على القول: إلى اللقاء... فهم في نهاية الأمر غرباء في مواطن غريبة.

كانت الرحلة من نيس إلى فلورنسه كمثل المرور بين متحفين، الأول بشري وهو مقصورة القطار ورفاق الطريق، والثاني متحف تاريخي تراه يمر أمامك مسرعاً خلف الزجاج، وسط السهول والشواطئ والتلال، في شكل عمارات وآثار وأبراج تركها لك عصر النهضة الإيطالي حين كان الفن هو الحياة. وقبيل فلورنسه يبدو لك من بعيد برج بيزا المائل الذي ظل إلى الآن أحجية لا يقلدها المعماريون والمهندسون؛ لأنها تخالف كل قاعدة من قواعد المعمار والهندسة. وقد رأينا كيف أن بعض المدن تخطت برج «إيفل»، وجعلته يبدو مجرد عمود فولاذي صغير وسط بادية من الحجارة الجميلة تدعى باريس. ففي «تورنتو» يرتفع برج من الإسمنت مرتين أعلى من تحفة المهندس «إيفل»، وفي نيويورك وشيكاغو تسكن الناس أعالي الأبراج كما تسكن الطيور أعالي الجبال. وفي اليابان يشيدون ناطحات السحاب في المياه لكي تميل زواياها مع الريح إذا هبت، ومع الأرض إذا زلزلت. وفي باريس أقيم في ساحة اللوفر أهرام مثل أهرام خوفو، ولكن من الزجاج.

كل الزوايا الهندسية وجدت من يخلدها إلا هذا البرج المائل الذي يتبدى لك من نافذة القطار، وكأنه رجل عجوز انحنى يقبل حفيداً عائداً من السفر.

طبعاً، هذه الطريق بين متحفين تليق جداً بوجهتك إلى فلورنسه التي هي، بلا شك من أكبر المتاحف القائمة في العراء. إنك حين تصل إلى عاصمة عصر النهضة هذه وتصعد تلالها ثم تلتفت إلى الوادي تحتك، ينبسط أمامك سهل من السطوح القرميدية العتيقة وبحر من أشجار الكستناء التي تشبه رؤوس الإفريقيات الجميلات بشعرهن الأجعد، ويمتدُّ أمامك نهر «الأرنو» ملتفاً حول المدينة بكل هدوء وكأنه حارس الليل والنهار.

إنه هناك منذ العصور يرقب المتاحف تبنى حوله والجسور تعلّق فوقه وكأنها امتداد لتلك المتاحف، ويمر بكل هدوء أمام النصب والمنحوتات التي تروي لك تاريخ «توسكانا» يوم كانت إمارة من أهم إمارات أوروبا قبل أن يأتي غاريبالدي، ويوحد إيطاليا جاعلاً منها عاصمة الفناء والرسم والرخام ومقاهي الكسل الجميل في العالم. آه، عفواً، لقد نسينا أنك في الطريق إلى فلورنسه، يتوقف بك القطار في «كارارا» ينبوع الرخام الجميل، وهذا ما يفسر لك لماذا اشتغل أهل «توسكانا» جميعاً بتزيين الصخور كما اشتغل أهل الأندلس بنقش السقوف والجدران، وتركوا في إسبانيا أجمل ما يمكن أن تقع عليه العين.

كم كان سعيداً الأمير فخر الدين المعني، حين نفي إلى «توسكانا» بعيداً عن جبل لبنان الذي كان أميره. ألم يعد من منفاه وهو محمّلٌ بكل هذه الأحلام الهندسية الجميلة، وهذه العمارات ذات القناطر والسطوح القرميدية التي تملأ اليوم تلال لبنان، أليست كلها من آثار «توسكانا» التي نقلها الأمير الكبير الطيب الطاهر القلب، الذي انتهى في مغارة صغيرة في الجبل الذي أحبه... وإلى اللقاء.

الكَون في عينيها

حدت ماريا أمس إلى عامها الثاني. فعلت ذلك على قدمين صغيرتين في حجم وردة متفتحة، وكانت تضحك وتضحك حتى تغيب عيناها الرائعتان بين الجفن والفرح.

إنها، ماريا، الفرح الذي جاءنا من المفاجأة. لقد كان نصري فرح الانتظار الطويل، أما هي فقد فاجأتنا مثل قوس قزح. ومنذ أن بكت بكاءها الأول وصرخت صرختها الأولى وانتهى الأمر، وهي تملأ الدنيا ابتساماً. كيفما تطلعت تبتسم. تتعثر بذاتها الطرية كمثل زنابق المروج، تتعثر فتقع، ثم تبتسم وتمضي النهار تدور حول نفسها، تشق الطريق إلى عالمها، وتلامس عبر الكنبة والمقاعد والدمى المعلقة عالمها الجديد.

تضحك ماريا، تضحك، نؤنبها، فتصمت قليلاً ثم تضاحكنا لكي تهدنا وتلغي مقاومتنا، فنضحك وتضحك. تقع فتضحك. تقطع الغرفة حدواً وعدواً ودبدبة ثم تتوقف وكأنها بلغت نهاية السباق. ثم تضحك.

لا أدري كيف تنظر ماريا إلى هذا الكون. لكن كم يبدو الكون جميلاً في عينيها السماويتين. وكم يبدو بسيطاً. وحتى العالم، هذا العالم، يبدو رائعاً في المساء حين أعود من الفراغ، وتهفو ماريا قفزاً فرحاً مشعاً، فتملأ ما حولها، وتطرد بطفولتها أشباح السوء وسموم النهار، فيصير الوجود هو هذا الوجود.

لها قدرة رائعة على طرد الحزن، هذه المخلوقة التي كلما كبرت يوماً صغرنا جيلاً. ولها مقدرة غريبة على الحوار، هذه الصامتة الصغيرة حين تتحول ضفيرتها إلى أجمل القصائد، أو حين، إذا ما ابتسمت عرفنا دون أن تقول شيئاً أن الدنيا ستمطر فرحاً وربيعاً.

وأمس أكملت ماريا ربيعها الأول، لم تعرف طبعاً أي ربيع هي. فالورد لا يعرف أنه الورد. ولا الندى يعرف أنه الندى. فأشياء الربيع تمر في الربيع وهي صامتة تبتسم. هكذا، مثل ماريا، ومثل ماريا تحاول أن تطير إلى الأشياء. ولذا تشعر وكأنك تجاور النسمة حين تغمرك ماريا كالعاصفة الصغيرة.

● ● ●

أقرأ القصائد لماريا من دفتري، فلا تفهم، لكنها تبتسم. تظل تبتسم. وقد قرأت عليها أمس، على مرأى من شجر الحديقة العامة، وعلى مسمع من الوقت، أنني أنا الزمان والضياع. الريح والفصول وأنا.

وقلت لها منذ البيت الأول:

أرخي ضفيرتك الصغيرة؛ فإنها الحقيقة الوحيدة.

الفاصل الوحيد بين الكآبة والحزن

الجسر الوحيد بين الزرقة والعاصفة

أرخيها على المكان، أما الزمان فهو يعرف جيداً كيف يتهدّل.

● ● ●

الزمان والريح والفصول وأنا

نكتب الشعر ونذرّه على البيادر

نَذْروه في القيثارات والنايات.

وفي البراري نتلمس طرقاتنا واستراحاتنا.

ونرتجي سكون البحيرات

والبحيرات جاثمة عند أقدام الكواسر.

البحيرات خائفة من الحصى

خائفة من الدوائر

خائفة تتلظّى في السكون وتحت أجنحة البجع.

● ● ●

لقد دخلت ماريا ربيعها الثاني كما أكملت ربيعها الأول، وهي تبتسم. وقد ابتسمت ماريا فابتسم كل شيء، وفي آخر الحديقة رميت قصائدي وغنيت. ما لها هذه وللربيع الجميل، وللقصائد.

مثل ذر الحصَاد

أكملت «ماريا» أمس عامها الثاني في ربيع الحياة. وهي تتقفز الآن من الصمت الجميل إلى الكلام الندي. وغالباً لا نفهم ماذا تريد «ماريا»، لكننا دائماً نهفو إلى ما تقول. وتبعثر «ماريا» الكلام مثل ذر القمح في مواسم الحصاد أو مثل رذاذ الشلالات في ضوء القمر.

وحين يستعصي التعبير على ابنتي ترفع في وجهي سيفها: تندفع نحوي وتغمرني، فإذا السعادة غمر بين ذراعين صغيرتين.

تترك «ماريا» العالم دونها، فلا تعي ماذا في أدغال الخارج ولا تعرف. وبهذه السعادة الطفولية الكلية المطلقة، تمكننا نحن أيضاً، أن نترك العالم دوننا لحظات، ترد عنا بسيفها غبار التلوّث من سموم الآخرين. لكن أنّى لها أن تعرف أي منحة تمنحنا في الصباح حين نفيق على ثغائها، وأي نعمة نحمل على أسرتنا حين - قبل أن ننام - نرد عنها الغطاء قليلاً وهي غارقة في حلم الليل بعدما أتعبها حلم النهار.

كم هو رائعٌ وجميلٌ ومبعثرٌ عالم «ماريا». تضحك بلا حساب، وتلهو بلا حساب، وإذا بكتْ مرّة سرعان ما تضحكُ ودموعها البريئة بعد على خدِّها، فيتساوى في عالمها البكاء مع الضحك، كما تتساوى على وجهها معالم الفرح.

قبل أن تأتي ماريا إلى هذا العالم كنت أقول لأمها: أخشى إذا منَّ الله علينا بمولود آخر ألّا نستطيع أن نحبه مثل «نصري». لكن «ماريا» جاءت لنكتشف أن في الأهل مخزوناً غريباً من المشاعر وأن الطفل يرمي حوله أنهاراً من الحنان.

وتروضنا أحياناً ماريا.

أحياناً أجد نفسي أدبٌّ أمامها كذوات الأربع لكي أسمعها تضحك، وأحياناً أقلد لها الطيور والدواجن ومواء الهررة لكي تضحك، وأحياناً أبعثر لها الكلام كي أبدو مثلها في أول الكلام. فتفهم وتوافق.

أكملت عامها الثاني «ماريا»، وقد بدأت منذ أسابيع بالذهاب إلى الحضانة، أو مجمع السعادات والفرح.

لكن في لغتها تصرّ أنها «المديسي» أو... «المدرسة»! وتعود كل يوم من «المديسي» وقد كبرت كلمة ويوماً في عالمها الجميل. ومثل حقل ربيعي نشعر أنها كبرت زهرةً فزهرة ونضرةً فنضرة وفراشة هائمة في الجمال بعد فراشة.

أنّى لها أن تعرف «ماريا» ماذا فعلت من أجلنا. كيف أشرح لها أنني أسمع الإذاعات فلا أغتسل إلّا حين أضمها، وأقرأ الصحف فلا أغتسل من الحزن إلّا حين أضمها، وأقرأ في كتاب الناس فلا أنسى إلّا حين تغمرني ابنتي وهي تضحك وتبعثر في الهواء كلاماً مثل ذر القمح في زمن الحصاد.

كيف نشرح «لماريا» غداً أن ثمة سعادة مجانية لا مثيل لها كانت تحل بيتنا كيفما تنقلت في البيت، وكيفما قلبت أشياءه، وكيفما كسرت أوانيه؟وأنّى «لماريا» أن تفهم ما يحدث حين تعود من «المديسي» وهي تهتف: «بابا» ماذا يحدث؟

هذا هُو شاعري

منذ مدة طويلة لم أسافر في البحر، حتى إنني نسيتُ ذلك الشبه الغريب بين الباخرة والقطار: كلاهما ناعسان مثل النوم، ضجران مثل الملل، واحدة في أعالي البحر وواحدٌ في منبسطات الأرض ومتعرجاتها، وفي أنفاق تخرقُ الجبال من أرضٍ إلى أرض، ومن حدود إلى حدود ومن لغاتٍ إلى شعوب . ويبدو ركاب البواخر ساهمين بأنفسهم وكأنّ لكلٍّ واحدٍ منهم حكايةً أو كأنّ الحياة حقاً ليست أكثر من مقالة رولان بارت: بضع لمسات من الوحدة مع الذات.

ويُساقُ الركابُ إلى البواخر في الليل مثل أسرى الهزيع الأخير وقد اقتادهم زوار الفجر إلى قبور الحياة. وينقادون في صفوفٍ طويلة كأنّهم يطلبون الخبزَ لا الوطن، وكأنّ الرحلة مجرّد ركوب لظهر البحر، وليست عودة إلى أحضان الهوى والحنان. وما إن تبحرَ والناس نيامٌ حتى يبدأ عالمٌ طويل من الرتابة. ضوء وراء ضوء كأنك في القطار المسافر بين كيبك ونيو برانزويك، أو كأنّك تتمشى في أدغال النيون المعلقة على سطوح «بيغال»، وموجة خلف موجة كأنّك الرملُ يصغي إلى البحر، يقدم ثم يتراجعُ ثم يقدم ثم يتراجعُ كمثل الإثم والعقاب.

تبحرُ هذه السفينة الرتيبة وكأنّها محمّلةٌ بكادحين من لدن أسطورة سيزيف. وبعض الناس يكتبون التاريخ هكذا، بالرحيل، وعلى لحى البحارة الخشنة الطويلة المحشوة بصفرة الدخان وأثير النيكوتين. وبعض الشعوب تكتبُ تاريخها على السواري وفوق العارضات، وتمضي

العمر تحصي الأشرعة التي مزقتها الريح، وشعوب أخرى تكتب التاريخ بالنصب والتماثيل والخيول البرونزية، وقد اشرأبّت في الساحات العامة مثل الأبجر أمام مضارب بني عبس.

لا تاريخ إلى جانبي البحر، لا شيء إلى جانبي البحر سوى البحر وامتداده من الرمال. إنّه ليس النيل يروي الضفتين فتتكوّم حوله الناس والبيوت والطوب ومناديل الصبايا وروايات الحكيم، إنّه ليس دجلة يروي حكاية الخلفاء، إنه ليس العاصي يُسحر الرحّالة والحالمين وكتّاب الكتب الجميلة. إنه البحر، يطوّق السفن كما تطوّق الأرض القطارات بلا ضفافٍ ولا نهايات، ويطوّق الناس كطيور النورس. يشدّها إليه حيثما كان وحيثما كانت، وهو في كلِّ مكان يلاحق الأرض حتى الموانئ، وينقلُ الأوطان من مكان إلى مكان، ويطوّق الجزر مثل الأصفاد، ويزرع النعاس والملح في أفواه المسافرين، ويرشُّ حول أطرافه ونهاياته أحلاماً... بالوصول.

ثمة كتابات على الجدران في الموانئ كما في المحطات. كتاباتٌ من أجل تلويث الجدران بالكتابات. شعارات تركها أصحابها ومضوا إلى بيوتهم لتناول العشاء، وتركوها هنا يتسلى بها المسافرون إذ تتحرك الباخرة منسلة من الليل إلى الليل، محمَّلةً بالأحلام والنعاس والمهاجرين الذين لا يملكون تغيير جواربهم وغسلها من عرق البارحة. وفي الرواق الطويل تنامُ الناس مثل تلامذة المدارس ووجهها إلى لوحٍ غير معلق، وإلى درس لم يؤخذ بعد. وتتكدّس الأنفاس فوق الأنفاس بشكلٍ فوضوي متضارب، وتختلطُ أحلامُ النيام وكأنّها سفينة من الأسرى والعبيد تبحرُ إلى العالم الجديد.

كانت مقمرةً تلك الليلة. وكانت الأبنية وأضواءُ النيون ترمي بظلالها في المرفأ بلا حساب، وكان الناس نعاساً. إن هذا الشعور الكبير بالبحر يحمل المرء على الظنِّ أنه أمام فخٍ ميتافيزيقيٍّ من « القلق الكوني» كما يقول التشيلي ريكاردو لاتشام. غير أن فيروز أكثر بساطة بكثير، إنها تقف هناك في شبح النهار لا في شبحِ الليل تنادي بأعلى حنجرتها، ومن فوق سارية صوتها: «شايف البحر شو كبير!».لكنّ المشكلة مشكلة البحر في أيِّ حال، إنّه هو الذي يرى. إنه شيءٌ ضخم في قلب الأرض أو الأرض في قبله. إنّه ليس النهر. آه، النهر، إنه شاعري.

السفنُ تسافر. المسافرون يسافرون. الشعراءُ يصمدون هناك.العذابُ هو ما يريد ذلك الشاعر. ومن هذه الكوّة الصغيرة، كوّته تكون معاناته كونية وسعَ الفكر وعلى مدى القوافي. ومعذبٌ أيضاً كالشعراء هو هذا النادل الذي يصعد السلم الخشبي وينزله وفي يده صينية مستقيمة تجانب السقوط في الدوار. إنّه يبدو تعباً من المسافرين ومن الطلبات ومن الحياة. وسرعان ما تهرب من النظر إلى مأساته الصغيرة بالنظر إلى الآخرين. إنهم يتلهون بالقراءة. أحدُهم يقرأ كتاباً عن البنوك، وثانٍ يقرأ كتاباً عن التراث، وثمة حسناء منزوية تقرأ رسائل ريلكه. إنني أغبطك يا سيدتي على محاربة هذا البحر من السأم بهذه البحار من الشعر.آه، إنه ريلكه يكتب الرسائل إلى الشعراء اليافعين. لو تدرين يا سيدتي كم هو سيدٌ بين الكتب العظيمة هذا الملف الصغير. إنّه الوصية النهائية المطلقة إلى أهل الشعر.

ينامُ الذين ينامون، ويبقى السهارى سهارى في انتظار الفجر والميناء. ويطوّق الملل السفينة من كلِّ جانب مثل البحر والرتابة، والموج يتقافز فوق بعضه بعضاً مثل الجنادب. وفي قلب كلِّ موجةٍ موجة أخرى مثل الكانغارو

ونطاط الصحارى البعيدة. تدور دورةُ الليل والنهار من جديد، وتبدأ في الأفق مرة أخرى تلال وجبال ونواتئ. ويتغيَّر لون المياه إشارة الوصول، وتبدأ رائحة الاطمئنان الآتية من اليابسة.

أنا شاعري النهر. الأنهر الصغيرة التي يعترضها الأطفال بالحجارة من أجل السمك، والأنهر الكبيرة التي حولها تنشأ المدن الكبيرة. أنا، شعرائي نهر الأولي وسواقيه وصوت الصمت على ضفافه، وصوت سقوط العصافير فوق أشجاره، وصوت ارتطام المياه بالمياه، وصوت لمس الفراش في ذلك الغشاء النقي من المياه، وشاعري نهر السين، تتدلى من حوله كالثريات حكايات التاريخ وظلال الملهمات اللواتي ادعى هوغو أنهن يخاطبنه كلما جلس إلى ريشة أو طاولة. وشاعري الريوغراندي تقوم على ضفافه بلادٌ بعد بلاد وملاحمُ بعد ملاحم، ومنه ينبت الشعر اللاتيني مثل زنابق النينوفار في البحيرات النائية.

في الفجر ترمى المرساة في القعرِ، ويستفيق النوادل متعبين يفركون عيونهم متعبين، وتندسُّ الباخرة بالأرض عبر سلمٍ صغير، فتتفرقُ جماعةُ البارحة كما يتفرقُ مسافرو القطارات في المحطات... وينسون من شدّة الفرح باليابسة أن يلوحوا بأيديهم لرفاق الليل... إنّهم على عجل.

حوذي بيروت

عدت إلى بيروت بعد تغيب دام أكثر من خمس سنوات. وقد طال الغياب حتى كادت لا تعرفني ولا أعرفها. كنت أحب الهدوء والعزلة، وهي تمعن في الضجيج والفوران وتناطح السحاب كأن لا حرب مرت من هنا ولا من يحاربون.

وإني أبدو من هنا مضحكاً مثل مهاجر بريسبان في مسرحية جورج شحادة. مضحكاً وتائهاً ولا أعرف شيئاً من الطرقات ولا شيئاً من جوانبها ولا شيئاً مما تقوله ألف إذاعة وألف قناة تلفزيونية وألف جمهورية تضمها هذه الجمهورية التي تتصرف وكأنها صانع سياسة الكون، أو كأنها نقطة الارتكاز في سياسة العالم. وهو أمر مضحك أحياناً محير أحياناً أخرى.

كل شيء تغير إلا اللبنانيين. أما لبنان فكم تغير. اللبنانيون لم يتغيروا. إنهم هنا فوق الطرقات المليئة بالحفر (يجوقلون) السيارات والسيارات تطير، أحياناً لمواجهة بعضها بعضاً، وأحياناً من كل جهة نحو بعضها بعضاً، السيارات تطير، واللبنانيون يطيرون ترحاً أو غضباً أو حماسة. وكل سهرة فيها مازة وتزكة وفيها كيلو الفجل بثلاثمئة وخمسين ليرة، بدلاً من عشرة قروش. وفيها غورباتشوف وريغان وحديث عن الوفاق الدولي، كأنك في قمة جنيف أو قمة البندقية. ولم يعد اللبناني يهتم بالمحليات إلا من حيث كونها شؤوناً دولية، والحديث الأساسي لدى الجميع هو ما يعرفه الساهرون ـ طالت أعمارهم جميعاً ـ عما يدور في خلد رجلين طائشين، واحد يدعى ريغان والآخر يدعى غورباتشوف.

وليس في الكون كله كثافة سياسية بقدر ما في هذه البقعة المؤلفة من عشرة آلاف وأربع مئة كيلومتر مربع. لا في واشنطن ولا في باريس، حتى في أيام الانتخابات الرئاسية، ولا في لندن ولا في أي مكان. ينام اللبناني على سعر الدولار، ويستفيق على بورصة الرئاسة، وخلال النهار أو الليل يصنع سياسة ما في الجبل، وسياسة ما في صيدا، وسياسة أخرى في بيروت، وسياسة أخرى من بيروت الأخرى. وسياسة أخرى في هذه البيروت التي لا يفصل بينها سوى خيط وهمي طويل، مثل هذا البحر الأزرق المترامي وسع العين والأفق والجمال. تتطلع في بيروت فلا تصدق.

وأنت السائح المحترم تعرف الآن بحكم الخبرة والدوران في ديار الله الواسعة بحثاً عن شيء مثل بيروت أن... لا شيء مثل بيروت! لا شيء. وقد بنى اللبنانيون خلال حرب السنوات الثلاث عشرة بيوتاً أجمل من بيوت الريفييرا، وأكبر من بيوت كاليفورنيا، وأكثر رخاماً من قصور لوكريس بورجيا. بنوا بيوتاً معلقة، وبيوتاً على حافة الصخور، بيوتاً في الصخور، وتركوا الخراب للخراب، وحددوا ساحات القتال وساحات الصراخ، وأبقوا الباقي لأنفسهم بيوتاً لا الريفييرا ولا سردينيا ولا بحيرة كومو ولا أعالي «سان بول» حفظ الله سكانها جميعاً.

مثل الحوذي في مهاجر بربسبان أتلمس طريقي فلا أعرفها، وبيروت القديمة السلام عليكم، ومع ذلك فهي تطير وإلى جانبها طبعاً البورش والمرسيدس 500 والـ ب. أم. مثل التراب، والنكتة تقول: إن أحدهم اشترى حماراً من طراز ب.أم... من أجل (التشفيط).

إنني آسف شديد الأسف، لكن تسمحون لي أيها السادة بهذه المشاعر. مشاعر السياح أو المغتربين على الأقل، إذ لولا بعض البساتين لما كانت لي علامات أتذكر بها الطريق، وبائعو السمك الطازج على الطرقات طبعاً، السمك المستورد من تركيا من عشرة أيام على أكثر تقدير، وبائعو الصعتر والسماق وأطباق الكعك والزعيق، وهذه السيارات التي تتداخل في بعضها بعضاً مثل بائعي الرقيق الأبيض في روما القديمة.

من أين مرّت الحرب؟

هناك طرق للحرب مرت بها. هناك دشم وراجمات وتعابير خاصة. تعابير جديدة مأخوذة من عالم الخنادق الذي كان، والذي يضرع اللبنانيون كل لحظة ألا يعود. والشاب الذي أوصلني أمس أراد أن يقول لي: إنه لم ينم، فقال باللغة الجديدة: «طوال الليل رأسي مش عم يفرز».

ماذا؟

ليست كل بيروت فرحاً ومباني مذهلة. وهناك ألف بيروت أخرى تحت هذا القناع، وربما ألف فقر وألف لبناني كل واحد يرى أنه الجمهورية، يعين الرئيس المقبل، ويرسم خطوط الوفاق الدولي، ويطرح لك حول المائدة ألف مشروع حل ينقضها بألف مشروع آخر، وفي نهاية الأمر يفرك يديه قائلاً: وأنتم هناك كيف ترون الأمور؟

نحن هناك يا عزيزي كنا نعتقد أننا نرى حتى جئنا إلى بيروت، فرأينا أننا لم نكن نرى شيئاً.

على الإطلاق.

هاتف ونرد و... باراكالو!

عدتُ إلى لبنان بعد كلِّ هذا الغياب دون أن أستطيع العودة إلى «بتدين اللقش». قريتي! ولبنان بالنسبة إليَّ، هو قبل أي شيء تلك التلال والسواقي والحقول المعلّقة على أفنان الجنوب مثل طيور الفجر.

لم أذهبْ إلى القرية منذ العام 1979. وثمة من نصحني بأن أتّصل هاتفياً ببعض الأقارب هناك. فالهاتف أصبح «أوتوماتيكياً» وعن «طريق قبرص»، وليس لك سوى أن تضغط الرقم الذي تريده. ورحنا نضغط أرقاماً وهواتف طوال النهار. وبدلاً من أن يرنَّ الهاتف في بيتنا كان يرنُّ دائماً عند عاملة التلفون في قبرص، وهذه تردُّ عن طريق المسجِّل: باراكالو! أي: اطلب مرّة ثانية أو سافرْ أو اذهبْ لتناول الغداء عند «سقراط»!

في الماضي، قبل أن يحلَّ علينا التقدُّم و«الأوتوماتيك» والتطوُّر عن «طريق قبرص» كنّا نرفع السمّاعة، فيرنُّ الهاتف في بيروت، وعاملة بيروت ترنُّ لعاملة جزين، وعاملة جزين ترنُّ للدُّكان في بكاسين، وبكاسين ترنُّ «للسنترال» (لاحظ من فضلك كلمة سنترال) في بتدين اللقش، و«السنترال» (لاحظ إذا تكرمت، كلمة سنترال) يرنُّ لك أخيراً.

كم كان يستغرق هذا العمل اليدوي قبل حلول «الأوتوماتيك» والتطوُّر «عن طريق قبرص»؟ دقائق. إليكم مثلاً هذه المحادثة:

ـ آلو، السنترال؟

وتردُّ عاملة السنترال في بيروت وهي - دون شك - تحيك كنزة صوف أو تقضم تفاحة.

• نعم السنترال. مين بتريد أُستاذ؟

ـ من فضلك مدموزيل (إذا قلتُ لها آنسة تغلق السمّاعة) ممكن تعطيني بتدين اللقش؟

• بتدين اللقش؟ شو هيدي بتدين اللقش؟ وين بتوقع هيدي؟

ـ عن سنترال جزين.

• قول جزين من الأوّل (تعلك).

ثم تسمع وهي تطلب صيدا وتقول: آلو، صيدا، هون بيروت. وحياتك «شيري» بدِّي منك جزين مستعجل! شو؟ مشغول؟ جربي وحياتك.

وتجرِّب «الشيري» جزين، فترنُّ جزين، وتسلَّمك عاملة بيروت إلى عامل جزين قائلة: تفضَّل أُستاذ. معك جزين! آلو، جزين، معك بيروت. احكي!

من الطرف الآخر يأتي صوت عامل الهاتف في جزين، وهو طبعاً يعرف صوتك، ويعرف سلفاً إلى من تريد التحدُّث، وما سوف تقول، وعمّن سوف تسأل، ولذلك يبدأُ بالترحيب بك.

أهلاً أُستاذ. شو أخبارنا هالإيام؟ شو قولك بها الحكومي... بتهدِّي؟ كيف؟ قلتللي ما بتهدِّي؟ كيف أبو سمير؟ شو مش جايي هالصيف؟ عم تسافر كتير هالإيام؟ مين بعطيك؟ بيت عمَّك أو بيت خالك؟ لحظة معي!

وينهي عامل جزين المحادثة فقط لأن أحداً آخر رنَّ له، فيطلب لك عامل بكاسين. لكن عامل بكاسين ليس متكرساً لهذا العمل النبيل بل هو «بارت تايم» في خدمة الشعب، وباقي الوقت يبيع للناس قمحاً وسكراً وبرتقالاً مهترئاً. لذلك يرنُّ الهاتف عنده طويلاً قبل أن يرفعه، قائلاً في صوتٍ جهوري لا مبال:

• مين؟

ـ وينَك ولاه يوسف؟ ساعة حتى ترد؟ قاعد عم تلعب طاولة؟ أكيد خسران. مبيِّن من صوتك خسران يا ملعون؟ كم دق صرتو لعبانين؟ دخلك هالفرن عندكم عم يشتغل؟

على كلِّ هذا الكلام، يردّ يوسف باللهجة اللامبالية إياها:

• خلّصني هلق. شو بدَّك؟

ـ أعطني «بتدين»!

وأسمع يوسف يدير «مِبرم» الهاتف عنده. وأشعر بالفرح. هنا على الأقل، قريتي ليست مجهولة، بل ثمة من يناديها باسمها الأوّل. صحيحٌ أن المسافة التي تفصل بين العزيز يوسف و«سنترال» بتدين ليست أكثر من أربعة كيلومترات... لكنها معروفة هنا في أيِّ حال، في حين تشير إليها عاملة بيروت على أنها «شي» غريب قد يكون صحناً طائراً أو بنطلوناً أو مصنعاً للحدود في هانوفر.

يحيلني يوسف بصوته الأجش المستعجل للعودة إلى «دق» الطاولة، على «سنترال» بتدين اللقش. وبعد قليل تردّ «الست سعاد» وهي تذوب تهذيباً:

• أهلاً بالأُستاذ، كيفكم؟ كيف الوالد؟ كيف الصحّة؟ مبروك ما عملتم، قال ابن عمَّك تزوج؟ مين أخذ؟ مين؟ آه، يللا. كلو مليح. المهم التوفيق؟ نعم؟ لأ. السنة ماشتِّت كتير. بلى تلجت شوي بس شتي ما شتِّت كتير؟ شو تفضلت؟ بيت خالك؟ تكرم عينك. وصلوا مبارح بس نجاة وولادها بعد ما وصلوا. لحظة معي. راح حوِّلك. خلينا نشوفكم بس تطلعوا. ما تنسى تسلملي على عمتك. أهلاً.

كنت إذا أردت أن تخاطب أحداً، تحدَّثتَ إلى كل لبنان، أو هو تحدَّث إليك. لكن ذلك كان في عصر التأخُّر، أما الآن والتقدُّم قد حصل عن «طريق قبرص» فإنك تمضي النهار كله على الهاتف ولا يأتيك سوى جواب واحد: باراكالو! أي: حاول مرّة ثانية أو سافرْ أو هذا هو الحائط... تفضّل انطحه!

اليتيم الذي تبنى الفرح

لم ينطبق مثلٌ على أحد، كما انطبق على سعيد فريحة المثل الفرنسي؛ إن الأسلوب هو الرجل.

بالنسبة إلى سعيد فريحة كان الرجل هو الأسلوب، هو المقال. هو الفقرة الأولى والفقرة الأخيرة والبياض الواقع بين فقرة وأُخرى. يعيش لكي يكتب، وبطريق الصدفة، يكتب عرضاً، لكي يعيش.

عاش كما كتب، وكتب كما عاش: ملء الحياة هنا. ملء الكتب هناك.

عاش يصل الليل بالنهار والنهار بالليل. هكذا عاش سعيد فريحة الرجل. سعيد فريحة الكاتب، سكن بين دفتين: الغلاف الأول والغلاف الأخير.

عبثاً حاولت البحث عن عناصر النصِّ لدى سعيد فريحة. وقد قرأت له على الأرجح، على مدى السنين، كل كلمة كتبها. وكنت كلما انتقلت من كلمةٍ إلى أخرى ازددت قناعةً بأن سعيد فريحة هو النص.

فالكاتب هنا مثل محرِّك الدمى في مسارح الأطفال: هو الراوي، وهو المؤدي، وهو الحنجرة التي تتحرَّك أوتارها مع فصول الحكاية حزناً أو فرحاً.

لكن الغريب في نصِّ سعيد فريحة أنه نصٌّ حزين في العمق، لكنه خالٍ من الحزن. إنها شهوةٌ مطلقة للفرح لدى هذا اليتيم الذي يروي لنا - في نصٍّ مرير وضاحك وفرح أحياناً - مأساة العائلة التي انتقلت زمن المجاعة من «رأس المتن» إلى حلب مشياً على الأقدام دون رغيفٍ في الطريق.

كبير العائلة يومها كان صبياً يدعى سعيد فريحة. لكن لا تعابير مأساوية في النص. لا توقُّف عند الأحداث التي تشكِّل في حدِّ ذاتها فصلاً من «البؤساء» في حياة «جان فالجان». بل إن النص سيظل متدفقاً كالنهر، فإذا توقَّف قليلاً، فعل ذلك على طريقة فيلليني، حيث يختلط الفن بالحياة. وهكذا فإن سعيد فريحة الذي يروي أشدَّ البدايات حزناً بأكثر التعابير فرحاً، يتوقَّف قليلاً عند الرجل الذي استوقف العائلة الجائعة المهاجرة إلى حلب، وأخذ منها الأرغفة القليلة التي تحملها.

نهاية النص؟

لا، بعد سنين طويلة يكون سعيد فريحة، الصبي الجائع الهارب من الحرب العالمية الأولى، الصبي الذي لا يجد سراجاً يتعلّم في ضوئه القراءة، يكون قد أصبح سعيد فريحة: علماً من أعلام الصحافة العربية، ورفيقاً من رفاق الزعماء العرب. وإذ يدخل إلى إحدى السهرات ذات يوم، يصادفه هناك الرجل الذي سرق الأرغفة من العائلة المهاجرة إلى حلب.

مأساة؟ صدمة؟ انتقام وثأر؟

لا. المزيد من النص. المزيد من الفرح. الأسلوب هو الرجل. ولذلك يكتب سعيد فريحة في النهاية «جعبة» واحدة متّصلة ذات فصولٍ متعددة، قوامها هذا السرد الجزل الذي يساوي بين أقصى المأساة وأقصى المرارة بجملةٍ واحدةٍ تشبه غالباً العصفور الذي يطرب لا لأنه غني في التنوعات الموسيقية بل لأنه يكرِّر عليك، في رتابة رائعة، المقطع الذي تحبُّ كما يكرِّر البحر في الليل رتابة الموج الحائر بين هدوء الشاطئ والعودة إلى متعة المحيط.

انتمى سعيد فريحة في لبنان إلى جيلٍ يكتب في «المهم» من الشعر أو الأدب أو الصحافة فقط. كان هذا جيل ما بين الحربين وما بعد الحربين. وهو الجيل الذي عايش أو عرف عن قرب عمالقة الشعر والنثر والرواية في لبنان. إليكم فقط بعض الأسماء: «الأخطل الصغير». ميخائيل نعيمة. سعيد تقي الدين. خليل تقي الدين، بولس سلامة، أمين نخلة. عمر فاخوري، عبد الله العلايلي، توفيق عواد، فؤاد أبو سليمان. إلخ.

جميعهم كتبوا في «الجدّي» من الأدب. حتى سعيد تقي الدين، الذي رفع الأدب الساخر إلى أرقى مراتبه، كان ساخراً، لكنه لم يكن « فرحاً». وكان يمكن لسعيد فريحة أن يكون بطلاً مأساوياً مثالياً في «الرغيف» الذي صنع مجد توفيق عواد الروائي، لكنه ظل يكتب حتى اللحظة الأخيرة في الفرح، كمن يخشى لوعةَ الحزن والجوع والفقر.

في هذا الإطار أيضاً تفرّد سعيد حين اختار أن تكون معاناته من «مأساة الجيل» مختلفة تماماً عن الأسلوب الذي اختاره الآخرون. ويبدو مثيراً أحياناً أن يكون سعيد فريحة قد ترك كل هذا النتائج دون أن يقع في إغراء تجربة النص الدرامي، على الرغم من محاولاته العاجلة في الرواية، وهي محاولات عاملها بعد حين كأن لا علاقة له بها. وهكذا بقي أسير النص الواحد، المسهَب، الثريّ، الذي يروي، أو يكرِّر، حوادث يومية عابرة بمواقف إنسانية غير عابرة إطلاقاً. فهو بدلاً من أن يخترع لنفسه أبطالاً وأشخاصاً من المخيلة، يبحث دائماً حوله عن هؤلاء الأبطال. بأسمائهم الحقيقية. بنفوسهم الجميلة أو المريضة، بوجوههم الحسنة أو المقيتة. وهو غالباً ما يلعب مع أحد هؤلاء اللعبة «الهيتشكوكية» المضحكة؛ إذ يغيب أحد هؤلاء «الأبطال» عن النص سنوات طويلة، ثم فجأةً، في لفتةٍ

أو دعابةٍ أو لمعةٍ أخّاذة الظرف، يعود صاحبنا، فيطلّ في تشبيهٍ أو استعارة أو موقف، كأنما سعيد فريحة في نهاية الأمر مع نصٍّ واحد بدأ في الرحلة من «رأس المتن» إلى حلب، وراح يتغيّر، مع العمر والمشاعر والتقلبات والصدمات والمباهج، ولكن كما تتغيّر المفاتيح لدى كاتب سيمفونيات واحد: ظل الأسلوب واحداً، في تجانسٍ هائل، تلقائي، عفوي فرح.

وفي هدوءٍ وسرية تنصّل سعيد فريحة من الكتابات السياسية التي رافقت حياته كلها. لم يجمعْ سوى «الجعبة»، عمله الأدبي الوحيد ونصه الأدبي المستمر حتى اللحظة الأخيرة. السياسة، والكتابة السياسية، كانت وسيلته إلى العيش لا طريقه إلى الحياة. وكان سعيد فريحة الصحافي يشتغل عند سعيد فريحة الأديب: يطعمه إذا جاع، ويدفع عنه فاتورة السهر الطويل من أجل أن تتحوّل السهرة، في نهاية الأمر، إلى نص.

كلُّ شيء كان يتحوّل إلى نصٍّ: المرأة التي يحبُّ، والمرأة الجارة العجوز التي اشترى منها الديك الذي يقطع عليه كتابة «الجعبة» عند الفجر، وشقيقه الأكبر الذي كان ينهره وهو يحاول تعلُّم القراءة، والرجل الصحافي الذي يحمل اسماً غليظاً، والخادمة التي لم تعرفْ أنه مصابٌ بالرشح في فندق «جورج الخامس» و... مكيِّف الهواء في اليابان.

كلُّ شيء يصير نصاً، كما يتحوّل كلُّ شيء إلى «أدب» حين يعود غابرييل غارسيا ماركيزاً إلى قريته بعد غياب عشرين عاماً، لم تعد الأشياء هي الأشياء، لم تعدْ لها المعاني نفسها. هاهي الصخور والصنوبرات والسواقي، إذن، تتحوّل إلى رواية أو قصيدة.

أو «جعبة».

كان نصُّ «الجعبة» عملاً أدبياً صارخاً يتذرَّع بالحياة اليومية والكتابة الصحافية. ومع أنه لم يقرأ جيمس توربر أو إي بي وايت، فقد كانت «الجعبة» شيئاً شبيهاً بهما إلى حدٍّ بعيد، وإنما مع المزيد من المشاعر والمزيد من الفرح. والفرح هنا بمعنى البهجة لا بمعنى الدعابة أو السخرية.

لقد ترك لنا سعيد فريحة في عالم النص الساخر مدرسة فريدة بقيت دون تلامذة، وترك أنموذجاً ساحراً في الأدب ظل دون اقتداء.

إلى جَنوى... بالطريق المعاكس

ذهبنا إلى جنوى من أجل نصري! لقد بدأ يقرأ الآن في سيَر الرحّالة الذين استطلعوا العالم واكتشفوا الكرة، وقد فعلوا ذلك من أجل أن يتقاتل الكبار، لكن هاهم الآن الصغار ينبهرون. وقد سحرت نصري حكاية ذلك البحار الإيطالي كريستوفر كولومبوس الذي طلع من جنوى إلى عرض البحر ثم إلى أعالي المحيط دون أن يعرف أنه سوف يغير وجه العالم.

لا أحب لنصري أن يولع مثلي بالسفر والترحال ورائحة المرافئ عند المغيب، لكنني أحب له هذا الولع بالتاريخ، من أجل أن يكبر وقد عرف شيئاً من سرِّ الحياة، وشيئاً من خداع التاريخ الذي كتب نفسه على جدران الكون، مجرد مجموعاتٍ من ملصقات القتل ومعلقات الإبادة. دائماً باسم صناعة التاريخ.

أبحرنا من «ليماسول»، وهي مرفأ باهت، أجرد، على ساحل قبرص التي لا تني تنادي على نفسها بأنها جزيرة أوروبية. لكن عبثاً تحاول الهرب من قيودها الآسيوية الشائكة. وليس في هذا المرفأ الحديث تاريخٌ ولا أزقّةٌ ولا شرفات تطلُّ منها الزهور والصبايا. لكنه مرفأ يبحر منه المبحرون.

بعد نهارٍ وليل أطلّت «رودوس» ملءَ المتوسط. وأخذنا نبحر جانبها والمياه هادئة كالبِّر. وقد تعلمنا من الملّاحين أنه كلما كان الطقسُ جميلاً والرياحُ ساكنة تجرأت السفن على البقاء قرب اليابسة، فتروح تحفر في المياه دون أن تخشى الهبوب، فالموج، فالارتجاج. وهكذا يظل البرُّ يؤنس

خلاء البحر، ويظل الأمان على مرأى من المسافرين الذين ما إن ترفع السفينة مرساتها حتى يشعروا بالوحشة وقد خلّفوا على اليابسة ذلك الشعور الغريب بمتعة الجاذبية والتوازن.

ما إن تركنا «رودوس» حتى تراءى لنا، عن مسافةٍ، البرُّ اليوناني المستطيل. ويبدأُ يخامرك شعورٌ غريب بأنك الآن فقط سوف تشرع في الإطلالة على أوروبا. أوروبا ليست كلمةً تقال أو هويةً تُمنح بمجرد أن يقدم المرءُ طلباً رسمياً. ولا آسيا مجرّد كلمة عابرة في هذه الأرض. إنه التاريخ الذي انقسم، منذ التاريخ، منذ فجر التاريخ، بين قارتين تتصارعان، تتقاتلان، تتبارزان، مثل فارس أو تنين أو ديوك مجنونة، من أجل أن يكون العالم عالمها وحدها والدنيا دنياها وحدها وفرح الأرض فرحها.

كان ذلك طبعاً قبل زمنٍ طويل من ولادة هذا البحّار الحالم، السنيور «كريستوفر كولومبوس» الذي سوف يفتح دون أن يعرف ذلك لحظةً واحدة، أبواب قارة جديدة، تتقدَّم هي القارتين السابقتين، وتتقدم للصراع معهما وحولهما، وتكاد تلغي من الذاكرة قروناً طويلة كان خلالها الإنسان يقاتل ويُشرك معه دائماً «الآلهة» الذين وزّعهم الإغريقي القديم على أهوائه ونوازعه وأساطيره.

يطلّ الليل، والبحر هادئٌ ورتيب. ولا صوت سوى الليل والصمت. ومن على سطح الباخرة يروح البرُّ اليوناني القريب يغيب في الليل والغياب. وتطلُّ أيضاً سطور «هوميروس»! ألم يكنْ هذا الملحمي الرائع أول من حدَّثنا، بالنفس الملحمي النادر، عن آسيا وأوروبا، أو عن الآسيويين والأوروبيين؟ ألم يقسمْ العالم، منذ السطور الأولى «للإلياذة» إلى قسمين: من جهة الآسيويين، أهل طروادة، المولعين بالبطولات، المتحرِّكين بالمشاعر، الهائمين بالسيادة، ومن جهةٍ أخرى أوروبا، أي: اليونانيين الهائمين بالحكمة. بالمنطق، بالتحليل.

من جهة أبطال طروادة: بريام وباريس وكاسندرا؛ رمز الروح الآسيوية. من الجهة المقابلة: أوليس وشاكلاس وأغاممنون ونسطور؛ رموز الحذر والحكمة وسلطة المنطق! أخيل، اليوناني، يعمل أكثر بكثير ممّا يتكلّم، أما هكتور الآسيوي فهو يتكلّم أكثر ممّا يعمل. إننا نرى هكتور دائماً يتباهى، دائماً في خيلاء، دائماً بطلاً... ولكنه دائماً منهزم! ثم بعدما تنتهي الأسطورة عند هوميروس يأتي الإسكندر، الرجل «الأوروبي»، وأول ما يفعل هو الذهاب في اتجاه آسيا، نحو الهند، وبعد سقوط اليونان تقوم روما. دائماً، دائماً، أوروبا في مواجهة آسيا، أو العكس.

وإلى اللقاء

لكن أين اليونان الآن من أوروبا؟ بل أين هي من اليونان؟ تغرَق الباخرة في شيءٍ من الظلام، وتظلُّ رؤوس الجبال تتراءى، والجبال، والصخور التي في حجم الجزر. ويُخيَّل إليك أن هكذا وُلدت الأساطير عند القدماء في أيام العتم والريح، فبدت الصخور مثل أشباحٍ، وعوّلت الريح الصرصر عويلاً، وتخاطبت أخيلة الظلمة في فضاء الليل، فراح العقل البشري يصوِّرها وفقاً لمخاوفه، وراحت المخيِّلة تُملي الشعر والحكاية، والبحر رتيب يمتدُّ في الزمن والذاكرة، لا يدري ولا يلوي.

الليل يمضي إلى الليل، وأنا على سطح الباخرة ومعي - في إلحاحٍ غريب - السيد هوميروس وأبطاله. غداً سوف ترسو السفينة في «هيراكليون»، عاصمة «كريت» وأرض نيكوس كاتزانتزاكيس مؤلف «زوربا». ألم يكن هو أيضاً امتداداً «لهوميروس» وليس فقط مترجمه إلى الإنكليزية؟ ألا نرى في كلٍّ

صفحةٍ من كلِّ كتاب وضعه، صورة أو حكاية الصراع بين أوروبا وآسيا؟ بين تركيا الآسيوية واليونان الأوروبية؟ وما هي قبرص التي لا تني تعلن عن نفسها «أنها العاصمة الأوروبية الوحيدة التي لا تزال مجزأة»؟ هل هي برلين؟

لا، هي رمزٌ آخر من رموز ذلك الصراع الذي كتب عنه هوميروس. وهذا الهوميروس المسكين ليس مقروءاً تماماً في دوائر السياحة ومكاتب السفر وباحات الفنادق. طبعاً كان يمكن أن تذهب حرب طروادة إلى الرمال والنسيان... لولا هذا الشاعر. وكان يمكن أيضاً أن تظل طروادة مجرّد اسم في ملحمة لولا عامل بريد ألماني كان مولعاً بالشعر، وظل يلاحق أبيات هوميروس إلى أن اكتشف لنا أن طروادة ليست سوى «هيسارليك» التركية اليوم. هنا، في «هيسارليك» ارتكبت هيلينا الخطيئة الكبرى مع «باريس»، وكانت الحرب وإعلان النفير، وظلّت السفن المهاجمة تأتي من اليونان طوال عشر سنين، أو أكثر. وظل المهاجمون يذبحون أبناء «بريام» المئة واحداً بعد الآخر وهو يتطلّع من البرج! عشر سنين. وكل ذلك بسبب عواطف ابنه «باريس» بسبب خطف هيلينا الجميلة!

يا للهول. يا للهول.

كان يُفترض أن تمرَّ بنا الباخرة في ميناء الإسكندرية. وهل هناك متوسط دون هذه المدينة المنسيّة التي كانت تزيِّنها عرباتُ الخيل والقصور ذات اللون الزهري. لكن ها نحن نترك البرّ اليوناني خلفنا، ولم نمرّ بالمدينة التي كانت مدينة كليوباترا وأنطونيو، وأحمد شوقي يغنيها، ومحمد عبد الوهاب يغنيها، ويُغني أنطونيو وشوقي، وبعد ذلك ينحسر التاريخ، وتصبح الإسكندرية معروفة بعمر الشريف.

كم تتحمّل هذه الذاكرة وكم نحمِّلها. ويقول علماء اليوم: إن الكون كله ذو ذاكرة واحدة. وهم يحاولون أن يثبتوا ذلك بكل الطرق. لكن الذاكرة مثل الشجرة تتساقط منها الأشياء مع الفصول، فنسعد أحياناً بالنسيان، لكن هي، الذاكرة، تظل تساعدنا على طرد اللحظات الكريهة كما يطرد العطر الكرائه.

لن أستطيع أن أطرد من الذاكرة – على الأقل ليس قبل أن تنتهي هذه الرحلة – ذلك الملصق القبرصي: نيقوسيا هي العاصمة «الأوروبية» الوحيدة المجزّأة! إننا نستطيع أن نرمي على وجه التاريخ الكثير من المساحيق، لكن الجغرافيا! آه من الجغرافيا! إنني أتذكّر إميل لودفيغ الرجل الذي أرّخ لنا أجمل الأنهر، النيل، وأجمل البحار، المتوسط!أتذكّر كيف وصل إلى «سميرنا» في تركيا، وتوقّف أمام الميناء شاعراً بثقل التاريخ فوق منكبيه: هذه هي المدينة الساحلية الكبرى في آسيا الصغرى (وهي على مسافات من قبرص «الأوروبية» التي تبعد 60 كيلومتراً من الساحل اللبناني)، هذه هي، «سميرنا»، مدينة الإسكندر وماركوس أوريليوس، هذه هي المدينة التي قال العثمانيون: إنها عين آسيا الصغرى، وقال الرومان: إنها «أول الدساكر في آسيا»، أما اليونانيون فطلبوا النسب بالقول: إنها مسقط رأس هوميروس. صديقنا إياه!

في «سميرنا» تذكر إميل لودفيغ فلورنسا، هذا المتحف القائم في الهواء الطلق. تذكّرها بسبب أشجار السرو وبساتين الزيتون. لكن فلورنسا لا تذكّرني إلاّ بتلك الشرفات العتيقة في لبنان وبساتين صيدا وصور. إنها المدينة التي نُفيَ إليها الأمير فخر الدين المعني لكي يعود من هذا المنفى الجميل بكلِّ ما هو هندسة معمارية في لبنان. وبعد

عودة فخر الدين، الرجل الباني، الرجل العمّار الذي حاول أن يبني وطناً للجميع، نُفي وطورد وقُتل في مغارة. ونسيَه اللبنانيون. كم تدخل الذاكرة أحياناً في عالم الجريمة. كم ترتكب الذاكرة من الجرائم حين تنسى - هكذا، طوعاً - الرجال والأعمال، وترمي بالوفاء إلى حاملي القمامة يرمونه في البحر في البحر!

منذ سنين وأنا أقرأُ أن المتوسط ملوّث، وأنه أكثر بحار العالم تلوثاً.

لكن المتوسط ليس ملوثاً بالقاذورات. البحار، منذ التكوُّن، تأخذ وتلفظ، ولا مَن يلوثها سوى العقوق.

جميلةٌ زرقة المتوسط، حتى في الليل، حين تختلط عليك الأشياء والأشكال والأشباح كما اختلطت على الأغارقة من قبلك. وسوف أُكرِّر دائماً ما قاله لي «ميلوفان دجيلاس» ذات مرّةٍ بعدما «منحه» الماريشال تيتو حريته وأطلقه من السجن. يومها قال: إنه لن ينسى أن زرقة المتوسط في لبنان أكثر كثافة منها في أيِّ مكانٍ آخر.

كان ميلوفان دجيلاس يحبُّ الشعر وزرقة البحار والمرافئ التي لها مصابيح وشرفات مزهرة . لذلك، عاش حياته خاسراً. بدأ حياته رفيقاً لجوزيب بروزتيتو، ثم صار نائباً للرئيس اليوغوسلافي. ثم أعطاه تيتو للسجون بتهمة الرجعية والذيلية والانحراف عن الخط الاشتراكي، بينما اتّخذ هو، تيتو، لنفسه جزراً كاملة ويخوتاً وطائرات خاصة وثياباً لمّاعة وأوسمة تُغطي الجزء الأيسر من صدره، وتحاول أن تغطي أيضاً أسماء وعناوين السجون التي تزدهر وحدها في ظلِّ الطغاة.

دائماً باسم الحرية. دائماً.

كانت الموضة أن تنقضّ على الرجال الذين هم أكثر عقلاً أو فكراً أو استحقاقاً، بكلِّ التهم القابلة للتصديق باعتبارها غير قابلة للنقاش. وكانت تهمةُ العمالة هي الأكثر خصوبة والأكثر سهولة والتي لا تقبل أي نقاش. لذلك، أُتُّهِم جوزيب بروزتيتو نائبه الأول، بالعمالة للغرب. للأميركيين. ثم رماه في السجن. لكن بالتأكيد لم يكن دجيلاس رجل الغرب ولا رجل الأميركيين ولا رجل أحد.

لو كان لما دخل السجن! ليس سجن تيتو في أيِّ حال!

السفينة تمضي في رتابةٍ تشبه القافية في شعر بوشكين. والبرُّ اليوناني يمضي خلفنا، وبعد قليل، قبل أن نذهب إلى النوم سوف نعبر المتوسط عند الجزر الأيونية لكي ندخل إلى الأدرياتيكي، إننا نبحر إلى «جنوى» بالطريق المعاكسة تماماً، فنحن لن نبقى في المتوسط حتى نصل إليها، بل سنرسو غداً في «أنكونا» الأدرياتيكية، ومن هناك أقود السيارة إلى فلورنسا، فننام الليل، ونمضي النهار، وآخذ نصري وماريا ومي إلى المتاحف حتى نتعب، وفي اليوم التالي نمضي في الطريق إلى «جنوى»، عبر بساتين توسكانة، ومن خلال السرو والزيتون... والمشمش المعلّق الذي لم يلحظْه إميل لودفيغ.

آه، عفواً، ثمة مدينة أخرى لن نمرَّ بها قبل أن نترك المتوسط إلى الأدرياتيكي، إنها أثينا. لقد كتبت ذات مرّةٍ، في السبعينيات، أن بعض المدن مثل بعض النساء، تقوم بينك وبينها حالة من الهوى. ويومها كنت هائماً في عشق أثينا، أمضي النهار في مطالعة أعمدتها، والعشايا في مطالعة أزقّتها، ولا أنام إلّا بعدما تكون هي قد أوت إلى مخادعها، وسكتت

على تلالها كل أوتار «البوزوكيا» التي لا تزال - مثل أبيها «العود»، مثل ابنة عمِّها «القيثارة» - حائرة بين الحزن والفرح، فاللقاء حنين، والوداع حنين، والعناق حنين، كأنما لا عشق دون فراق، ولا حب دون مرّ.

لكنني من زمان نسيت أثينا، ولم أعدْ أُعلقها في كتبي وروزنامتي ودفاتري. وذابت مقاهيها في أودية ذاكرتي، وصارت - مثل أشياء كثيرة - مجرّد اسم معلق في الذاكرة.

هذه الرغبة اليونانية في الامّحاء، حتى من الذاكرة! تمرُّ هذه الباخرة في كلِّ مكان، فلا تلمح سوى بقايا أعمدة وبقايا ذكريات وغبار من التاريخ يعيش منه اليوم السادة الأدلاء السياحيون. ويبدو لك أحياناً - وأنت في الأهرام أو وأنت في قرطبة أو وأنت في ساحات فلورنسا - أنَّ كل ما بُنيَ من عجائب فنيَّة في هذا الكون، إنما بُني من أجل السادة الأدلاء، كي يعثروا على معيشةٍ لهم وسط قصور الأولين الذين عاشوا أعمارهم هنيئة، فتسنى لهم أن يكلفوا عظماء الفن والعمّار بأن ينحتوا لهم التماثيل ويرسموا اللوحات و... يوقعوها... فإذا صاحب التوقيع في نهاية الأمر هو التاريخ وهو اللوحة وهو كلُّ شيء، ولا مَن يعرف أو يهمه أن يعرف لمَن الصورة، وكيف رُسمت أو متى!

ضيِّقةٌ ذاكرة التاريخ، ولا تتَّسع لكلِّ شيء! إننا نعرف في المقابل لمَن بُنيت الأهرامات، لكننا لا نعرف شيئاً عن الذين بنوها، ونعرف أن الهرم الكبير ظل أعلى قبّةٍ في العالم إلى أن جاء المسيو «إيفل»، وبنى هذا البرج الفولاذي في قلب باريس، فوق «السين»، على مقربةٍ من «الشان دو مارس» في «الدائرة السابعة»، قبالة الجسور، قبالة المكتبات العتيقة، في هذه الدائرة الصغيرة التي تملّكت، صدفةً أو عمداً، نصف أمجاد فرنسا، تاركةً للضفة اليمنى بعض النصف الآخر و«قوس النصر».

أصبح البرُّ اليوناني تماماً خلفنا. وكذلك الجزر و«كورفو»، وفي الأدرياتيكي بدأ يتغيّر لون سطح المياه. لم يعدْ أزرقَ صافياً، بل أخذ يميل الآن إلى شيء من السواد. ونصري يلحُّ للوصول إلى «جنوى»، فلا فكرة واضحة لديه بعد عن المسافات. لقد قيل لهم في المدرسة: إن نصف ألفية قد مضت على ولادة كريستوفر كولومبوس، وهو يريد أن يلتقط لنفسه صورة مع أحد أنصابه أو تماثيله. إن نصري لا يعرف الإيطاليين، إنه لا يعرف أن جنوى مليئةٌ بكل أنواع التماثيل لهذا الرجل، وأن ثمةَ صناعة كاملة في جنوى اسمها كولومبوس، وثمة تجارة كاملة أيضاً. فالإيطاليون يبيعون التاريخ في كلّ مكان وحيثما وجد. وهناك الكثير منه في البلد الجميل الذي كان مجموعة من البلدان الجميلة، جمعها «غاريبالدي» كلها حول عاصمة مبنيّة من الرخام والحدائق والخرائب الإمبراطورية، اسمها روما.

انتهت «توسكانا» فشعرتُ بشيء من الحزن وأنا أقرأُ اللافتة على الطريق. وإذ رحنا ندخل إلى إمارة «لورغيا» قبيل جنوى بقليلٍ أخذت الأنفاق تزداد طولاً، وكذلك الجسور المعلّقة. وكنا نمخر الجبال المغطاة بالضباب كمَن يدخل نفقاً دائرياً لا نهاية له، وقبالتنا في الأسفل البعيد، عاد المتوسط يبدو من جديد، لكننا هذه المرّة لن نبحر في هدوئه، بل سوف ننحدر إليه شيئاً فشيئاً فوق هذه الطرقات المنحوتة نحتاً في قلب الصخور أو المعلّقة تعليقاً فوق الأودية السحيقة والوهاد، وهاهو المطر ينهمر حتى يعيق الرؤيا، وكأننا في عزِّ الشتاء، لكن ما إن نصل بعد قليلٍ إلى مشارف جنوى الشمالية حتى يعود الصيف من جديد، وتعود الحرارة إلى ما كانت عليه طوال الطريق منذ أن تركنا ليماسول، ذلك المرفأ دون مصابيح، دون شرفات، الذي ذهب إليه لورانس داريل (صاحب «رباعية الإسكندرية») في الخمسينيات لكي يكتب من هناك «شجر الحامض المرّ».

كان اليوم عطلة، وجنوى شبه خالية هذا الصباح، تتجوّل فيها كما تشاء دون هاجس الزعيق الإيطالي، وحيداً كأنك في نزهةٍ خاصة بين هذه القصور المتقاربة، في هذه الأزقّة الضيقة التي تفضي إلى جاداتٍ فسيحة كبرى، إلى حدائق الميناء الهائل الذي لم أرَ في مثل حجمه من قبل.

وإذ تصل إلى الميناء وتلتفت خلفك، حيث كنت قبل قليل، في قلب هذه الجبال المستحيلة المتطلعة إلى البحار مثل مناورةٍ خضراء مهجورة، لا بدَّ لك من أن تتساءل: لماذا بنوا جنوى هنا؟ وكيف بنوا جنوى هنا؟

لكن من هنا - في أيّ حال - أبحر البحّارة إلى المجهول من أجل أن يعودوا بأحمال الذهب. وهنا أيضاً كُتب تاريخٌ من المغامرة والدماء. وهذه اللوحات المعلّقة في المتاحف تروي، الواحدة بعد الأخرى، حكاية معركة بعد الأخرى في خليج جنوى، وتصوّر العمارات البحرية يقودها الأباطرة والبابوات يقصفون بعضهم بعضاً في سفح هذا الجبل الرهيب. لكن الدماء فوق هذه المياه الزرقاء لم تبقَ فقط دماء القادمين الطامعين من أهل إيطاليا فقط، ففي المتاحف أيضاً، أو في الكتب، لوحات الأسطول الفرنسي ونزول النمساويين وبعثات نابليون.

وهنا على باب قصر عادي عتيق لوحةٌ كُتبت في التذكير بكولومبوس. نصري يهرع ويتصوّر إلى جانبها غير عارف أن كلَّ ميناء على الريفييرا الإيطالية يقيم تمثالاً لهذا البحّار الشهير، مدعياً الانتساب إليه، ولعل أشهر هذه التماثيل ذلك القائم في «سانتا مارغريتا» وقد كُتب تحته: «مهدى إلى مواطننا العظيم الذي عاد سالماً من أميركا»! أليس هذا الرجل هو رمز جنوى الكبير: السفر في المجهول والعودة بالكنوز؟

لم يقبل كولومبوس شيئاً دون المحيط يوم كانت السفن تتيه بسهولةٍ في البحر والبحيرات. تصوّروا المحيط الأطلسي في تلك الأيام. إن «الكونكورد» تقطعه اليوم بمدة ساعتين تقريباً، محلقة بأسرع من الصوت، أما هذا البحّار فلم تكن سرعته بأكثر من سرعة شراع من القماش المقوى، المصنوع هنا طبعاً في جنوى، على ضفاف هذا المتوسط الجميل المسدود البوابات العالية: واحدة في السويس، وأُخرى في الدردنيل، وثالثة في جبل طارق. ومن هناك يذهب المتوسط إلى الأطلسي ويذوب فيه.

من هناك ذهب كريستوفر كولومبوس في أشهر رحلة في التاريخ، تاركاً خلفه العالم القديم، مغيِّراً إلى الأبد، في معالم العصور وتاريخ الإمبراطوريات.

نيويُورك والحَبيبَة

إلى مَي

• زيارتك الأُولى؟

ـ في الكتب لا. في هذه الزحمة البشرية نعم. الأولى.

• أيُّ انطباع؟

ـ مليون. كل منها يلغي الآخر.

• تحبُّها؟

ـ أحبُّ حبيبتي.

• هل هي معك؟

ـ لا. في النهار تكون مع الشمس. في الليل مع القمر.

• ماذا أتى بك؟

ـ الضجر. أنا جافٍ وألهو بالرحيل!

• كهواية؟

ـ كسبب.

• لماذا نيويورك؟

– لأنها بعيدة. في البعد تصفو وحدتك. في المدن الكبرى تؤوب إلى نفسك. في الازدحام يتألَّق وجهُ حبيبتك.

• ألمْ يقولوا لك إن نيويورك تصهر الناس والحديد والإسمنت؟

ـ لي صَدفة من الشرق. أنا مَحارُ الشرق. والشرق مثل الذكريات لا يذوب. الشرق قدر. الشرق حكايةٌ مثل عنترة يحبُّ عبلة، فيتحرَّر بالحبِّ قبل ألفي عام، ونيويورك لم تتحرَّرْ بعد. لي يا سيدي صَدفة من الشرق!

• تبدو غنائياً في مدينة صاخبة!

ـ أعتذر.

• كيف تعاملك نيويورك؟

ـ أدارت لي ظهر «الأمباير ستايت» ومشَت.

• ما هذا الضجيج؟

ـ لا شيء. لا شيء. إنها سيارة الإسعاف تبحث عن رجلٍ ما. لا بدَّ من أن تعثر عليه وشيكاً.

• بماذا تذكرك نيويورك؟

ـ بالأرض. إنها مدينةٌ تحاول عبثاً الهرب إلى السحاب. إنها أقرب المدن إلى الأرض. لا تصدِّق أبداً نفسك حين تتطلّع إلى فوق، انظر حولك.

• كم لك من العمر؟

ـ حبيبتي.

• ألم تحبَّ غيرها؟

ـ أحببتُ غيرها كثيراً من أجل أن أعرف كيف أحبُّها حقاً.

• تبدو غنائياً في مدينة صاخبة.

ـ أعتذر. كنت أظنُّ أنني رجلٌ غنائي في مدينة صاخبة.

• ما بك ساهماً؟

– إنني أفكِّر في الرجل الذي اخترع كلمة «لماذا»؟

• لماذا؟

ـ لأنه عرف أن لا جواب. لماذا هي السؤال. هي الجواب. هذه عبقرية «لماذا». بجميع اللغات.

العاصفة

ثمة اثنتان، يقولُ المرء: إنه لا بد له من الكتابةِ عنهما في العمق: حبيبته ونيويورك. لكن المرء لا يكتبُ عن حبيبته، في العمق، على الإطلاق؛ لأنه إذا فعل شاعت. أصبحت مثل غيرها. يقولُ لها: طوبى لجميع النساء من أجلكِ، ويلفُّها في حِرام ورديٍّ، ثم يغلق الباب خلفه، وينسحب.

كل ما يستطيع أن يكتبه وكل ما لا يستطيع أن يكتبه، تكون هي قد قرأته في عينيه وتحت حرامِها فتصبح الكتابة مثل الكلام: الرأس في مواجهة الجدار.

يتأبط المستحيل، إذن، ويمشي. وإذ ترفعُ رأسها من تحت اللحاف لتسأله: إلى أين، يتجاهل الموضوع تماماً ويجيبها ببساطة: آه، إن ثمة عاصفة ثلجية تنتظرني في الشارع الرابع والخمسين.

لكنه بالتأكيد، في موقع الخيانة: لا أحد ينتظرُه في الشارع الرابع والخمسين. ولا حتى العاصفة. العاصفةُ تحت إبطه، لكنه يخبئها.

لكن، لابد من وداعٍ ما. ترفع الحِرام أكثر وتحتمي بالجدار خوفاً من أن يأكلها كحلٍّ مثالي للمشكلة، ثم تقول له وكأنّها تخاطب قاضي القضاة: إنّك لم تحبّني. إنّك تحبُّ مارا وماريا ومارينا وماشا وماروشكا وأريكا وباربارا وسوما ولوريتا.

يضحكُ. لا يريدُ أن يقول لها الحقيقة. ثمة حقيقة واحدة: طوبى لجميع النساء من أجلك.

وتعود تصرخُ به من جديد: الشارع الرابع والخمسون؟ عاصفةٌ ثلجيةٌ، إيه؟ لماذا لا تقولُ: إنّها في انتظارك. طار زمان الرمز. قلْ: إنّها في انتظارك.

ثم تزدادُ احتماءً بالجدارِ وكأنّها تدعوهُ إلى اختراق الجدار. لكنه يستكملُ عناصر الوداع. يتأبّطُ المستحيل، وينتقي دمعتين كبيرتين، ويخفيهما تحت ربطةِ عنقِه، ويقولُ لها: إنَّ الميلاد سوف يأتي، ويكون هو مع العاصفةِ الثلجيّة في الشارع الرابع والخمسين. وتقتنعُ هي بذلك، لكنّها ترفضُ أن تصدق. ليس هناك حبٌّ بالهجرة، هو قال لها ذلك، هناك فقط حبُّ الاقتحام.

تزدادُ احتماءً بالجدار، وتمدُّ ذراعيها في إشارة إلى الخارج: اذهب إلى الشارع الرابع والخمسين. لا، أعطني يدَك أُقبلها.

ينتقي دمعتين كبيرتين أُخريين، ويخفيهما في ربطةِ عنقِه. يتأبّطُ المستحيل والعاصفة، ويذهبُ إلى الشارع الرابع والخمسين. يشتري حِراماً وبطاقات معايدة، ويعنون واحدةً إلى المجدلية.

بارك أفنيو

صديقي ـ «صديقي» هنا تعبير يطلقه الناس على الذين يلتقونهم أول مرّةٍ، ولا يكررون اللقب بعد ذلك ـ أصرّ على أن أجولَ في مكاتبه بعد الثانية عشرة ليلاً. ولأنه كان صاحبَ الدعوة إلى العشاء ذهبتُ.

«صديقي» ثريّ ثريّ ثريّ.

فتحَ باب المكتب، بعد الثانية عشرة ليلاً، فوجدنا امرأتين من البورتغال، تنظفان الأرض والطاولات والكراسي، وتذهبان إلى البيت عند الفجر، والحرارة 17ـ تحت الصفرـ وتشتريان خبزاً للأولاد ولحماً معلباً وزجاجةً من الكولا، وتدعوان بطولِ العمر «لصديقي» الذي اختصر كل حياتهما بينما كان يشرحُ لي نوع المكتب الذي يفضله، بأن نظر إليهما وقال: هاي.

وردّت السيدتان: هاي، سيرا! وعادتا إلى عالم الغبار في الطوابق العليا.

الوست أند

الساعة 11 ـ ثلاثة زنوج على بنكٍ أخضر في طرف برودواي.

الساعة 13 ـ ثلاثة زنوج، ناعسون، واحد يحمل صحيفة كانت مرمية، وثانٍ يُسنِدُ رأسَهُ إلى كفّيه و يُسنِدُ ساعديه على ركبتيه، وثالث يتأملُ الهواء.

الساعة 15 ـ ثلاثة زنوج في دفءِ شمسٍ باردة وثلاث قبعاتٍ ويوناني يمشي متثائباً، ويلقي التحيّة.

الساعة 17 ـ ثلاثة زنوج. ذكريات عن «البارك» القريب.

الساعة 19 ـ ثلاثة زنوج، تسع زجاجات من البيرة ـ فارغة، وثلاث قبعاتٍ على البنك.

الساعة 21 ـ ثلاثة زنوج، ثلاث حكايات.

الساعة 23 ـ ثلاثة زنوج، ثلاث أُغنيات، ثلاث ثورات مبحوحة، ثلاث سعادات، ثلاث ثورات غير منظمة، ثلاث أساطير.

الساعة 9 (صباحاً) ثلاثة زنوج، نيويورك من أمامهم. نيويورك من ورائهم. ثلاث ضحكاتٍ عالية وعالم صغير على بنكٍ واحد. يستفيقُ أعضاءُ العائلة ويحيّون بعضهم بعضاً بالصوتِ المبحوح إياه:

Hey there, It`s a Nice Weather today.

Eh? it sure is man it sure is!

أحياناً دورة الحياة في نيويورك لا تتخطى المقعد الخلفي.

الطابق التاسع والعشرون

من الغرفة الصغيرة في الطابق التاسع والعشرين تبدو نيوجرسي والنهر والجسور المعلّقة في الهواء والمباني العتيقة وصوت سيارات الإسعاف الذي، لكثرتِه، يتّخذُ شكل جسمٍ في الهواء، والمداخن والجارات والجيران.

في هذه الغرفة الصغيرة أنا حوتٌ في علبة سردين.

والمبنى الذي أمامي هو أيضاً من ثلاثين طابقاً، وكذلك الذي إلى جانبه. مجمعٌ سكنيٌّ يدعى «اللنكولن تاورز»، فيه عشرة آلاف بشري، يستحمّون ونوافذهم مفتوحة، يخرجون إلى الشرفات شبه عراة، فإذا أقام أحدهم حفلةً فكأنّك بين المدعوّين وأنت في غرفتك.

ولا تزال في «الوست أند» هل تذكر قصة «الحي الغربي»؟ هل تذكرُ «كاوبوي منتصف الليل»؟ هل تذكرُ «النافذة الخلفية»؟

من غرفتك في الطابق التاسع والعشرين تبدو كأنّك الرجل الذي أخرج كل تلك الأفلام والأفلام التي ستأتي. وإذا أزعجك منظر الرجل الذي يدخلُ إلى بيت الخلاء دون أن يغلق باب نافذتهِ فإنّ كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تنزل ستائرك.

أو أن تنزل إلى الشارع، فيعبر بك الناس وهم ناعسون، بعضهم ينوءُ بهمومِه، وبعضهم يحملُ وحدته في عينيه أو على جبينه، وبعض آخر على البنوك، مثل الزنوج الثلاثة، ينتظرون أيامهم يوماً آخر، بعض الناس غير قادر على جمع أي شيءٍ سوى الأيام.

وعندما تقطعُ الرصيف تصبحُ على «البرودواي»، تمشي ـ طبعاً في النهار، لا أحد يمشي ليلاً في نيويورك ـ وتمشي حتى تصل إلى المسارح ودور السينما ودكاكين الجنس والقوادين والأضواء والأفلام الجنسية المعلبة، وإذا كنتَ سعيد الحظ شهدْتَ عمليةَ سطو كالتي تشاهدها عادةً في الأفلام.

قاسيةٌ نيويورك، وفي الليل تبدو بكل ملايينها مثل مدينةٍ مهجورة، يحكمها الخوف والرعب وبرامج التلفاز.

السيارة الصفراء

في لندن سيارات التاكسي مقسومة عادة من الداخل بحاجز زجاجي. لياقات إنكليزية.

في نيويورك سيارات التاكسي مقسومة –كلها– بحاجز حديديٍّ فيه كوة صغيرة تضع فيها أُجرة الانتقال. وممنوعٌ عليك أن تعطي السائق ورقةً أكبر من خمسة دولارات... لأنّك خطرٌ ومرعبٌ إلى أن يثبتَ العكس. أي: إنك خطرٌ إلى أن تنزلَ من التاكسي الأصفر دون أن تهددَ الرجل بمسدسٍ وتطلب منه غلةَ النهار.

وحدها نيويورك، من بين مدن أميركا فيها هذه القاعدة، خائفان في سيارات التاكسي عبر الليل! الراكب والسائق.

نساء

السيدة الواقفة على زاوية الشارع الخامس والأربعين توزِّعُ عليك المنشورات! والمنشورات لا تدعو إلى الثورة، بل تدعوك إلى حمامٍ تركي فيه مسّاج وساونا ومضيفات خبيرات في العروق المتشنجة. المضيفة العارية بعشرين دولاراً ـ خالية الضرائب ـ والمضيفة العارية الصدر بعشرة، وهناك بالطبع إضافات تتمشى مع روح العصر. شيئان لا يدخلان في الفاتورة، المنشور وتحية المساء.

والسيدة الواقفة على المدخل الخلفي «للوالدوف استوريا» ترتدي ثياب السهرة، وتحمل حقيبةً جلديةً لماعة. وتقف هناك وكأنّها في انتظار زوجها لكي تذهب معه إلى حفلة رسمية. لكنها في الواقع تنتظرك أنت. وقوادها ينتظرها في الخارج. لكل سيدةٍ من هذا النوع رجلٌ «يحميها»... لأن الرعب يحكمُ صناعة الليل أيضاً.

والسيدة الجالسة منفردةً في «ماكسويل بلام» تنتظرُ السيد. والسيد هو أنت. أو أي شخص آخر يساعدها على قتل المساء، دون مقابل وحتى دون أن تدفع ثمن العشاء.

والسيدة الزنجية ذات القامة الخارقة والوركين الواضحين مغنية منذ عشر سنين، ويتسربُ لونها حتى إلى صوتها، فيخرج عميقاً ودافئاً وحزيناً.

والسيدة في المطعم «الكوت دو باسك» فوق الخمسين، لكنّها تبدو في الثلاثين. يا إلهي تساعدُ الجواهر المرأة على العودة إلى عشرينياتها.

والسيدة التي تتعشى عند «طوني» في أسفل أسفل منهاتن، إيطالية وصلت للتو. وصلت هذا المساء. لكنّها اشتاقت إلى السباغيتي والسلاطة بالسيلاري، ووجدت صديقاً، ولا تزال تبحث عن عريسٍ يؤمن لها الجنسية الأميركية.

والسيدة العجوز في الباص تعيش على الإعالة، وتأكل الخبز واللحم المجفف والتلفاز.

والسيدة جارتي دليلةٌ سياحيةٌ تذهب إلى «البرونكس»، وتخرج على قيد الحياة مرتين في الأسبوع.

والسيدة وطفلتُها حيث يغسلُ سكان المبنى ثيابهم لا تعرف من الإنكليزية سوى جملة واحدة: آسفة، لا أتكلّمُ الإنكليزية.

والسيدات، كل السيدات، يحببن نيويورك، «إنّها شيءٌ آخر، أليس كذلك»؟

امرأة

دستُ، خطأً، قدم جارتي في قطار نيويورك ـ واشنطن، هي في الثالثة والعشرين تقريباً. هيبية تقريباً. ومعها كتاب.

● آسف.

ـ أوه، لا تقل آسف.

• ماذا أقولُ، إذن؟

ـ لا شيء، ليس هناك ما يستحقُّ الأسف.

• هاي!

ـ أوه، هاي،

• إنني أُدعى...

ـ ذاهبٌ إلى واشنطن؟

• لا، إلى بالتيمور.

ـ وأنا أيضاً، أوه. إنّها مدينةٌ بشعة، بشعة.

• إني آسف، أنا لا أعرفها بعد.

ـ أوه، لا تقل آسف. لماذا تأسف، لماذا تضعُ كلمة آسف بعد كل كلمة جيدة تقولها.

• لا أدري. لكنّها كلمةٌ غير مشينة في أيِّ حال.

ـ أوه، ماذا ستفعل في بالتيمور؟ هل أنت تاجرٌ متجوِّل؟

• لا، أنا مسافرٌ متجوِّل. عندي صديقٌ هناك.

ـ هل تأخذني إلى العشاء الليلة؟

• آسف... إنني!

ـ أوه، لقد عدت إلى أسفِكَ، ألا تملك شيئاً آخر؟

• لا.

ونامت جارتي بقية الطريق. وقبل أن نصلَ بقليلٍ استفاقت وانتقدتْ التلوث والتضخّم المالي والذين تخطوا الثلاثين والرئيس الأميركي ووالدها وزوج عمّتها وصديقها السابق وعاملة الاستعلامات في الهاتف، ومدينة نيويورك وأُستاذها في... جونز هوبكنز والذين يأسفون والناقد الأدبي في «البالتيمور صن» وكاثوليك الولايات المتحدة.

وتوقف القطار، ونادى بائعُ التذاكر بالوصول كأنّه يعلنُ نهايةَ الحرب.

المدن

هناك، «إيطاليا الصغيرة»، وهناك «الفيلاج»، وهناك «البلدة الصينية»، وهناك مانهاتن والبرونكس والكوينز والهارلم وبروسلين.

«إيطاليا الصغيرة» و«الفيلاج» و«البلدة الصينية» في قلب مانهاتن، الجزيرة التي كانت نيويورك القديمة، الباقي خارج مانهاتن، وكل هذه المدن، هي نيويورك.

ليست مدينة واحدة هذه المدينة. ولا هي شعبٌ واحد، لا علاقة لها بأي مكانٍ من العالم. وهي، أيضاً، خارج أميركا. هي فقط بوابة أميركا. ولذلك فإنّك لن تقابلَ أميركياً... في نيويورك. كأنّها مجموعةُ حصون. العرب في بروكلين، والإيطاليون في «إيطاليا الصغيرة»، والصينيون في البلدة الصينية، والإيرلنديون في أحيائهم، والفقراء في الحيِّ الغربي، والميسورون في الحيّ الشرقي، والفنانون والمثقفون في «الفيلاج» والوسط في الكوينز. بشر، بشر، بشر وبنايات ومجموعة عوالم صغيرة وضخمة، وملايين الملايين من المال، وخوف وأقصى المتعة وأفضل المسارح

وأفخم دور السينما وأعلى المباني وأعظم الصحف وأكبر البنوك وأكبر المآسي وأكثر الإفلاسات رعباً، وتظاهرات كل يوم، وخمارات وكراجات وجادات، كل جادة فيها عالمٌ وحيدٌ فريدٌ عجيبٌ. أول الجادة عالم، وآخرها عالم آخر. والسنترال بارك متعة في النهار وسلب ومحششة في الليل. ومخدرات، وفظائع. ومدينة بلا قلب ولا هوية. أرقام. الناس أرقام، الشوارع أرقام، الأدمغة أرقام. ولافتات كلها أوامر: احذرْ! احذرْ! أغلق بابك جيداً (ثلاثة أفعال). قفْ. امشِ. تنبهْ.

وإعلانات، إعلانات. كيفما التفت، أينما تطلعت، وصوت صفارات سيارات الشرطة والإطفاء والإسعاف. كل دقيقة. كل لحظة. ومخازن فيها حراس. ومخازن فيها آلات تصوير ضد السرقة. ومحلات فيها، كلها، أجراس إنذار. ومعترضو أو قطاعو طرق، وسكارى، ومدمنون:

Hey Buddy got A quarter?

وبشاعة وقذارة وناس مهووسون من شدّة الوحدة والعذاب. وأعظم الكتّاب وأكبر الصحافيين وأروع المتاحف وأجمل المكتبات وأجمل الهندسات الداخلية ونجوم وأسماء لماعة جداً ومخابز عربية وهامبورغر وأقليات وخوف وحصون وجنس وحرية وجرائم واغتصاب وقطارات وباصات بالآلاف. والناس أصفارٌ كبيرة أو أصفارٌ صغيرة. أصفارٌ سعيدة أو أصفارٌ تعِسة. أصفارٌ فقيرة أو أصفارٌ ثرية.

ومن الطائرة تبدأ تشمُّ رائحة نيويورك وأنت تتأمّلُ هذا الشبح من فوق. وتسألُ جارتك العائدة من باريس بعد قصةِ حبٍّ لم تولد: هل ستمضين الليلة في نيويورك. وتجيبك: بحقِّ السماء لن أفعل، سوف أستقلُ أول طائرة إلى «يوتاه».

وفي المطار الضخم تبدو مثل السعدان الواصل حديثاً إلى الحديقة. أهلاً وسهلاً بك. هذه هي غابتك. هذه هو المحيطُ الذي اعتقدت أنّك عبرته لتوك.

الحيوانات

بين مئات اللافتات التي تقرؤها في شوارعِ نيويورك واحدة تطلب إليك بتهذيبٍ أن تقنعَ كلبك بألا يقضي حاجته على الطريق. حافظْ على نظافةِ مدينتك.

لكن الأرصفة للبشر والكلاب معاً، وفي مقال بتوقيع كولمان مكارثي في «الواشنطن بوست» الإحصاءات الآتية:

في نيويورك 500 ألف كلب تبوَّل أُقّة على الأرصفة في العام وتتغوط 40 مليون أُقّة في الأماكن العامة.

النتيجة، جمعيات عدة لمحاربة هذا التلوث، بينها واحدة اسمها «الأطفال قبل الكلاب».

كلام على الجدار

الفن الآخر في نيويورك هو «الغرافيتيس» أو الكتابة على الجدران، وفي الصبواي تحت الأرض وعلى القطارات وغيرها. حكايات وشعارات وكلمات حبٍّ وعظات ورسوم وخطوط وصور ورسائل إلى الرئيس والحكومة وكاهن الرعية وهيربرت ماركوز وأنجيلا ديفيس ومعارضة وثورة والأب بيريغان.

«الغرافيتيس» صورة لحالة من حالات الشباب الأميركي. كان هناك «الروك» ثم «البيتنياس» ثم الهيبيّون، أما الكلام على الجدران فهو لكل المراحل، مثل حفر الأسماء على الشجر ضمن قلوبٍ متعبة.

مطعم لبناني

ذات مساء، ذات عشاء، في مطعم لبناني. فيروز تغني المتين، والمازات جيدة. وهذا الحوار على الطاولة المجاورة:

ـ مين بيكون هالأخو...

ـ إسا منيح. شوبدنا بسيرتو.

ـ لأ بدي احرق... بيو.

ـ يا خيي عيفنا.

ـ الأخو... بدو ياكل البيضة والتقشيرة. ثلاثة آلاف ريال ضبهن، قال هوِّي بحسابو، من وَين لوَينْ حسابو هالإبن...

ـ يا حبيبي حسابو والا حسابك. الشغلة من الأساس مش ربيحة. حدا بينادي ع زيتو عكر...

ـ ليك ليك. مش عارف حالو مع مين علقان. أنا بشلو قلبو. بسحبو سحب.

ـ ولك بسيطة يا شيخ. كاسك.

ـ روح، كاسك.

ـ ولك يا ولد حطلنا شي غنية لوديع.

الهارلم

303 و، الشارع الثاني والأربعون، مقر شركة بيني للسياحة في المدينة. ثلاث مراتٍ في الأسبوع، بعد الظهر، تستطيع أن تركَب باص الشركة إلى الهارلم، فتتفرج وتتعشى هناك في «الكونسرتو ووست»، وتستمع إلى الجاز.

وأنت في الباص تقولُ لك الدليلةُ إن هنا كان منزل ديوك ويلنغتون، وهناك كان منزل إيللا فيتزجيرالد وكاونت ديب وغيرهم. ثم تنزلُ إلى الكنيسة لترتّلَ باللحن الزنجي. لا رجل أبيض في الهارلم منذ أوائل الستينيات.

في «الكونسرتو وست» بضعة مغنين وعشرات الأغنيات الدافئة. هذه إحداها:

«لا تنتظريني في المحطةِ الشرقيّة

فأنا ذاهبٌ غرباً

أشتري لكِ سلاسلَ وعقوداً من الفضة

لكنني ذاهبٌ غرباً

غرباً في الصحراء

حيث يبقى ظلّكِ واضحاً

في النهار وفي ضوء القمر

لا تنتظريني في المحطةِ الشرقيّة

لأنها باردةٌ وعابقةٌ بروائح الناس

ولأنني ذاهبٌ غرباً

أروي حكايتي للأطفال

وأحمي أكواخَهم من العواصف

وأنتظرُ معهم ساعي البريد،

الآتي من المحطةِ الشرقيّة

في قطارِ الانتظار».

الأمباير ستايت

كان جميعُ المغتربين الذين يعودون إلى قريتنا لكي يمضوا بقيّة العمر، يتحدثون دائماً عن «الأمباير ستايت». ولم يكونوا بالضرورةِ عائدين من نيويورك، بل كانت أغلبيتهم من حوضِ الميشيغان حيث هاجروا في البداية، وحملوا كشة عبر البرد أو اشتغلوا في مصانع السيارات.

وكان همي الأساسي أن أرى «الأمباير ستايت»، لكن مضت أسابيع قبل أن يسمحَ الوقت بذلك، «وذات يومٍ دعاني أنطوني إبراهام إلى الغداء في الطابق الخامس والعشرين... من «الأمباير ستايت».

... ولك يا عمي افتكرنا الباشا باشا!

أيضاً

قبل أن تنسي، أحبّكِ.

باريس: اليوم الأول

إنه يوم شتوي موشى بالرذاذ. وقد وصلت لتوّك ومعك هذه الحقيبة الجلديّة التي تبدو كأنّها قُصّت على عجلٍ ولم تدخل الدباغة في «مشغرة» قبل أن تسافر معك إلى باريس. ولم تخيبك باريس إلى الآن، فهي رماديّة كما وصفت في كلِّ الكتب، وأنت تريد أن ترى كل شيء في يومٍ؛ لأن جيبك مثل حقيبتك ملتصقة بالجلد. وأنت عاشقٌ وتستعجل حلول المساء لكي تكتب الرسالة الأولى، وعليها طابع بريدي أزرق لكي تثبت للفتاة التي تحبُّ أنك في المدينة التي تحبان. وتريد أن ترى كل شيء من كلِّ النوافذ. وأنت أيها الفتى تعتقد أن باريس بُنيَت من أجلك.

وهاهي باريس تنبسط حقاً أمام أحلامك بلونها الرمادي، كأنما الحقيقة رماديّة هي أيضاً. وإليك باريس فماذا تريد بعد. لكنك على عجلةٍ من أمرك كأنها تهرب منك. وهي لا تهرب. هي تبقى هنا تحت هذه الجسور، تضحك من العشّاق وتواكب الكهول إلى عزلتهم كل مساء.

وهي تمسك أحياناً بأيدي الشعراء، وتكتب لهم القصائد نيابةً عن الجنيات. وأنت تريد أن تذهب إلى كلِّ المقاهي وإلى كلِّ الأزقّة لكي تعود وتكتب قصيدتك الأولى. ولن تكتب قصيدتك الأولى، سوف تتعب وتهدأ وتنام. تصبح على باريس يا صبي.

هل لاحظت أنك بدأت تحنُّ إلى بيروت وأنت في المطار؟ مطار بيروت. حكاية مدينتين، آه، حكاية مدينتين، أليس كذلك؟ ولذا، في اليوم الأول،

هذا اليوم الرمادي الأول، أنت على موعدٍ في «الكافيه دو لابيه». مع جورج سكاف وجوزف صايغ وجميل ألوف، زحلة في ألقها الأدبي. والثالث هو الشاعر الذي لم يكتب قصيدةً واحدة؛ جميل ألوف هو القصيدة غير المكتوبة، بكلِّ ما فيها من غزارةٍ غير ممكنة التعبير. وأنت منبهر بـ«الكافيه دو لابيه». إنه اليوم الأول. وأنت تشرب قهوتك تحت سقف الأوبرا الأخضر، وتتأمّل أعمدة المادلين، وتطالع «النهار». ما أسعدك يا ولد!

أنت تجلس إلى طاولة في مقهى؛ لأن كل شيء في باريس يبدأ في مقهى. اسأل «إيروين شو»! كل باريس، حكاية بين مقهيين. وها هم يترجلون من هذا الباص الأخضر المكشوف مثل لعب الأطفال، ويتوجّهون، أو بالأحرى يتوزّعون على المقاهي. وهم طبعاً، يتكلّمون أو يتجادلون. أين بيزنطيا من هذه المدينة التي تبدو عناوين الصحف فيها مثل عناوين متساقطة من فصول لأرسطو أو أفلاطون. أو برنادشو! لقد قتلوا المسيو فولون في شارع «السان مارتان» عام 1789 بأن ملؤوا فمه بالحشيش حتى الموت! لماذا؟ لأن المسكين المسيو فولون قال عن أهل باريس ضاحكاً: «إذا لم يحصلوا على القمح فإنهم سيأكلون الشعير». مسكين، المسيو فولون. ماري أنطوانيت أطعمتهم «بسكوت» فقتلوها! شعير يا فولون؟

تترك «الكافيه دو لابيه» وتهبط إلى «المترو»، الذي ينقل كل باريس، تحت الأرض. أنت، عالمك، الضفّة اليسرى حيث ذوو الحقائب الجلديّة كثرٌ. لكنك تتذكّر أنك، في هذه العجقة، لم ترَ الشانزليزيه بعد. كيف يا صبي لم ترَ الشانزليزيه بعد واليوم الأول يكاد يبدأ بالانقضاء؟ يكاد يدرك المساء، تصل أنت والأضواء معاً. لكن باريس أخرى تطالعك وأنت تخرج مجدداً إلى سطح الأرض، إلى أجمل جادةٍ على سطح الأرض. إنها باريس

المرتعدة خوفاً مما يجري في الجزائر هذا اليوم الشتوي الرمادي من عام 1961. وترى باصات الشرطة الزرقاء تملأُ الأرصفة. والجنود يختبئون تحت الرداءات الكحلية والقبعات الصغيرة. وتعرف أن باريس مدينةٌ تخاف مثل غيرها. وينسى رجال الشرطة أحياناً حالة الطوارئ، ويرفعون قبعاتهم الصغيرة للسيدات العابرات، عطراً وأناقة، وهنَّ قليلات هذا المساء. إن باريس تأوي إلى البيوت خوفاً من «المظليين»، وأنت أيضاً تريد أن تأوي سريعاً إلى الفندق. لماذا؟ لكي تكتب رسالتك الأولى! كم أنت ولدٌ يا صبي!

تخرج من تحت سطح الأرض مجدداً في السان جيرمان. إنها تمطر من جديد. وأنت بلا مظلة. بلا هدف. ولا تستطيع أن تفرِّط في ثمن مظلة. الأفضل أن تشتري كرسياً في مقهى. ثم فجأةً، هذه الفتاة الصغيرة. في السادسة عشرة أو الثامنة عشرة. هذه الفتاة، تضع أيضاً معطفاً كحلياً في شكل رداء. وتعترضك في الطريق. ثم تعرض شيئاً ما! إنها تبيع الشعر، مكتوباً على ورق أصفر. كل قصيدة بـ 15 فرنكاً. اشترِ يا صبي. هذه قصيدتك الأولى!

قصائدك الأخرى سوف تضيع عند الجسور. هل تعرف أجمل عنوان في العالم؟ إنه الذي أعطاه بائع الصحف للسائح الجديد: «نهر السين؟ آه، إنه قبالتك هناك، شرقي جسر ألكسندر الثالث!». إنها مدينة الجسور. نقلوا فلورنسا إلى هنا، وجعلوها أكثر أُبهة. وأمام كل جسرٍ قصر رائع ما. وإلى جانبك هنا، في قصر الجمعية الوطنية عند جسر الكونكورد قال كليمنصو جملته الشهيرة: «أنا ضدّ الحكومات، بما فيها حكومتي!».

أنت أيضاً ضدّ كل الحكومات. بما فيها، طبعاً، حكومتك. لكنك الآن في باريس، بعيداً عنها. وباريس أيضاً تتملكها هذه العادة الرديئة: المدينة التي تبعد عاشقيها. لقد كتب هوغو ذات يومٍ يقول: «أي رمز أعظم من

هذا الرمز. أن تكون لوتسيا ثم تصبح باريس. أن تكون طيناً ثم تصبح روحاً». وبعد ذلك كتب: «باريس هي سقف الجنس البشري». وبعد ذلك، يا عزيزي، نُفي المسيو هوغو إلى جزيرة «جرزي» حيث ظل هناك ما ظل نابليون الثالث في... باريس.

لا تصدِّق كثيراً هذه الأسماء المكتوبة على اللوحات الزرقاء المعلّقة على زوايا الجادات والشوارع. إنها عادة باريسية قديمة. تنفي باريس أبطالها أو تعلقهم على المقصلة، ثم تستعيض عن ذلك بهذه اللوحات الزرقاء! لقد عاش فولتير أكثر عمره في سويسرا، ثم عاد جثماناً يُدفن في «البانتيون». وقد قطعت باريس رأس «دانتون»، لكنها كافأته على ذلك فيما بعد بتعليق رأس برونزية له في ساحة الأوديون. ومات بلزاك معدماً، لكن رودان نحت له ثلاثين تمثالاً نصفياً قبل انتقاء الأنموذج الذي سيرفع على البولفار «راسباي».

إنه اليوم الأول، وأنت تشعر كأنك تملك باريس. وتدلف إلى غرفتك فإذا أنت لا تملك سوى الوحدة. لقد ضحكت عليك باريس كما ضحكت على غيرك. تعطيك الأرصفة والأضواء والرذاذ وبائعة الشعر في السان جيرمان، وعند باب الغرفة تجرّدك من كلِّ شيء، وتسلّمك إلى نفسك، هذه باريس فأين أنت؟ وأنا باريس فمَن أنت؟

أنت فتى يصدِّق الكتب ويتحرّك مع ما يقرأ، ويعتقد أن الحل في الشعر. وقد وصلت إلى هنا على طائرة شحن بتذكرة مجانية. الدجاج كان يملك ثمن تذكرته، وكل الصناديق الأخرى على الطائرة. إلاّ أنت! أنت، والمرأة الفرنسية العجوز. وطبعاً القبطان الذي كان يخرج إلى مسافريه

لكي يقطع على نفسه الملل ورتابة الطيران البطيء. وكان يدخِّن الغليون ويبتسم. هذا رجل يبتسم مجاناً لركاب طائرة الشحن، والابتسام ممنوع إلاّ في مقصورة الدرجة الأولى.

إنه المساء الأول. لا، لن تبقى في هذه الغرفة منذ الآن. إليك باريس! تتأنّط وحدتك وتمشي، وتمشي برفقتك باريس. المباني السمراء والأضواء والشجر والناس المتعَبون. إنها باريس ترتاح من عناء النهار لكي تقتحم عناء الليل. وهل لك مكان هنا؟ هل باريس حقيقة أم هي بقايا مجموعة من الحقائق؟ أهي مدينة من اليوم أم مدينة من الذاكرة؟ وهل تعيش هنا نهارك وليلك أم نهار وليل الكتب.

تشتري صحيفة المساء، وتشتري لنفسك كرسياً في مقهى «الإيكول ميليتير»، وتبدأ حياتك «الباريسية»! كل شيء يبدأ في مقهى في باريس. وهذه الساحة الجليلة أمامك لها أعمدة مثل بعلبك، ولها أشجار، ولها أضواء، ولها سحر. ولها مقاهٍ، ولها «الروكلير». سوق الخضار والبقالة ورائحة الخبز وطيور الحجل والأرانب المحشوة بالزيتون التي يأكلها الفرنسيون. ماذا لا يأكل الفرنسيون. إنهم مثل قريتي يأكلون «الشومر» البري الذي ينبت في الحقول. نحن، كنا نضيفه بسبب الحاجة إلى الصحون العادية والطيبة. هنا ينبت مدللاً في المزارع، ويُباع للسيدات القادمات إلى سوق الخضار مع عطورهن وكلابهن الصغيرة. وتتفحّص السيدة حزمة «الشومر»، وتمرّرها على أنفها كأنها تشتمُّ الحبق ثم تهتف، كما يهتف الفرنسيون لأي شيء من جبنة الماعز إلى البطاطا المقلية التي تباع بورق «السيلوفان» عند المسيو والمدام «غيرار» في وسط السوق، تهتف! Oh, comme c`est Bon .

يهتف الفرنسيون لأي شيء، للطقس الجميل، ولخطاب ديغول، ولخطب المعارضة، ولأفلام «تروفو»، ولجدائل بريجيت باردو، وللأرانب التي ستحشى بالزيتون، و«للشومر»، ولمعاطف الفراء. وللكلاب الصغيرة.

لا يمكن أن يمرّ أي شيء هكذا، عابراً، مثل أي شيء. لكل شيء مهرجان. إنهم يملكون الوقت لذلك، وعلامات التعجب وأدوات الاستفهام. وسرعان ما تدفعك باريس الهائلة، المتعددة المعالم، إلى الحي الصغير حيث أنت. ففي هذا الحيّ كل شيء. من الخبز إلى دار السينما التي تعرض أفلاماً قديمة إلى المكتبة. وهنالك طبعاً هذا العالم الصغير الذي هو فندقك الصغير، في عهدة امرأة طيبة من بقايا التحالف العابر بين «فيشي» وإيطاليا. وسوف تقول لك المدام «ماساري» فوراً أن تحذر التعاطي مع اللبناني الذي يقطن الطابق الثاني، ويعتمر قبّعة مثل المفتّش «ميغريه» في روايات سيمونون. وهي تبدي إعجاباً هائلاً بهذا الأميركي الشاب الذي يدرس الفرنسية ويعلّم الإنكليزية. وفوق أي شيء. طيبة المدام ماساري، وحين يحينُ موعد الإيجار في آخر الأسبوع يمكن ببساطة أن يؤجَّل إلى آخر الأسبوع المقبل. لقد مرَّ في هذا الفندق أناسٌ كثيرون كانوا يعتقدون أن نهاية هذا الأسبوع هي في نهاية الأسبوع المقبل.

نمْ يا صبي لقد تعبت. وتصبح على باريس في أي حال. غداً لك كل ما تقدِّمه من فرحٍ ومن حزنٍ ومن حنين. ولن يعود مثيراً أن تماشي السين، بل سوف تصبح رتيباً مثله، رتيباً مثل ملك «أبولينير»:

أمـرُّ علـى ضـفاف السـين
متأبطاً تحت ذراعي كتاباً قديماً
والـنـهـر شـبـيـه بـآلامـي

يـســــيـلُ ولا يـتـأخّـر
فمتى إذن ينتهي الأُسبوع؟

ويقول:

وتنتهي ليالي أيلول ببطء

وتنطفئ أضواء الضفّة الحمر في السين
وتموت النجوم والنهار لم يولدْ بعد!

وهل سوف تصل إلى يومٍ تقرأ فيه بول فيرلين:
أنت، أيها السين، لا شيء
ضفتان، وهذا كل شيء

ثمة جَزيرة عَلى فم النيل

رست بنا الباخرة تحت شمسٍ دافئة، وكانت الطيور، طيور النورس، كالعادة في استقبال المسافرين، وراحت الإسكندرية تطلُّ مثل خطٍّ منتظمٍ من المباني الرملية اللون والعتق والتاريخ، بينما هتف صبيةٌ يقفون على الرصيف، يعرضون التاريخ على طريقتهم، حلياً مزيفة وأشياء للسياح، بلا جدوى.

كان ذلك قبل أعوامٍ كثيرة، في أوائل السبعينيات. وكنت قد ذهبت مراراً، مثل كلِّ الناس، فقط إلى القاهرة. فالإسكندرية لم تعدْ مدينةً يذهب إليها أحد، والقاهرة ابتلعت كل شيء، وحوّلت مدينة الإسكندر وكليوباترا إلى مرفأ منسي يأتي إليه البحارة الروس، وتحوم فوقه طيور النورس، فيما الإسكندرية القديمة تنعس وتنام على المتوسط، قانعة بما آلت إليه بعدما كانت سيدة الشواطئ، منها تطلع الإمبراطوريات والنظريات والعلماء والمكتبات، وعليها يتقاتل الأباطرة وفيها، في الإسكندرية، يشهر نابليون بونابرت إسلامه من أجل الحصول على تلك الجائزة الكبرى في عصر الحروب الكبرى: مصر!

نزلنا من السفينة إلى الزحام. وكان صديقي ينتظرني في سيارته القديمة الصغيرة ويمسح العرق عن جبينه، وقد أصرّ مثل كل المحامين وحرصاً على شرف المهنة، ألا يخلع ربطة عنقه في حرّ هذا الصيف. كما أصرّ أن نذهب، قبل الفندق، قبل زيارته في منزله، قبل الكورنيش الشهير، أن نذهب إلى «النادي»! لابدّ - في الإسكندرية - من أن تكون محامياً

وأن تنتمي إلى نادٍ ما. هذه مدينةٌ تتذكّر ماضيها أو «مواضيعها»، منذ أن بدأت تصنع مستقبل الآخرين وماضيهم إلى أن فقدت هي كل شيء، حتى «العجمي»، حتى كاريكاتور «صباح الخير»، حتى النكات، ولم يبقَ لها سوى صديقي المحامي. وناديه العتيق. ومن بقي من أهل النادي، يجلسون على الكنبات العتيقة، كأنّهم أطلال داخل أطلال، يقرؤون الصحف التي لا تزال تأتي على النادي بالاشتراك. ويتناولون الأطباق نفسها ويهرمون هنا، حيث كان شبابهم ذات يومٍ ملاعب وروايات، واليوم، في هذا العمر، صار كل النادي هو فقط ما في داخل النادي: المقاعد الجلدية بأخاديدها والوجوه نفسها بأخاديد الذكريات.

عربات الخيل لا تزال تتأنى على الطريق البحري، وثمة بقايا قصورٍ زهرية اللون وبقايا حدائق. والجامعات التي كانت هنا والفلاسفة الذين كانوا على علاقةٍ ما بها لم يبقَ منهم سوى الغبار والكتب بغبارها أيضاً. رجال مثل أقليدس مثل القيصر وحتى مثل هوميروس الذي قال: «ثمة جزيرة تدعى فارو في البحار المتدافعة، واقعة على فم النيل».

عفواً. عفواً أيّها العزيز هوميروس. لابد من توضيحٍ بسيط. على فم النيل إنما أيضاً في قلب المتوسط! لكن ما نفع التوضيح الآن؟ فالمدينة التي كانت الثانية بعد روما أيام الإمبراطورية، لم تعد سوى مدينة ثانوية في العالم العربي، مدينة منسية، مهملة، لن يتذكّرها أحدٌ إلّا حين يفتحون الكتب المرميّة على الرفوف! أما مدن المتوسط فقد افترستها بيروت، وافترست أدوارها، وصارت هي معالم الجامعات والعلم ومعالم كل شيء إلى أن تصبح ذات يومٍ هي أيضاً معالم الخراب وعلامة النسيان وشريط التذكُّر.

أنا جئت إلى هنا كي أرى صديقي المحامي و... ناديه. لكن الكثيرين لا يزالون يأتون من أجل رؤية الإسكندر، الرجل الذي تقول الأساطير إن رفاته موجود في نعشٍ من الكريستال في مكانٍ ما تحت تراب المدينة التي صممها بنفسه. وبعضهم يأتي إلى هنا ويحفر، ويحفر. لكن لا أثر للإسكندر في هذه الرمال المكتظّة ببقايا المهندسين وصنّاع الإمبراطوريات والعلماء والحكماء والشعراء.

لا أثر، بالفعل، لأي شيء. فالمدن كالأفراد، لا تطيق الوحدة ولا الهجرة، وسرعان ما تصبح مثل المباني المتروكة، لها معالم اليأس وعلامات الغياب. وكما يدور الدهر دورته على الأفراد هكذا يدور على المدن، وقد مرّ على الإسكندرية بكلٍّ عصفه وأمجاده ونهضاته الحضارية، لكنه ما لبث أن تركها لنفسه على القارعة، لا يأتيها أحد سوى البحارة الروس، ولا يمرّ بها أحدٌ سوى السفن الإيطالية الآتية من مكانٍ إلى آخر والذاهبة إلى مكانٍ آخر.

وأنا! وأنا لا أدري إن كنت قادماً لرؤية الإسكندرية أم لرؤية صديقي المحامي و... النادي. وحتى لو كنت قادماً لرؤيتها فهو لن يتركني أفعل في أيِّ حال. فقد اقترح، بعدما وضعت حقائبي في الفندق، أن نلتقي ظهراً ونتناول طعام الغداء في النادي. ثم نرتاح قليلاً. وبعد القيلولة نأتي إلى النادي لتناول الشاي طبقاً لكل الطقوس القديمة. ثم نقوم بجولةٍ قصيرة في المدينة. وبعد ذلك، بعد ذلك، نعود طبعاً إلى النادي؛ لأن جميع الأصدقاء يكونون قد حضروا.

نفّذنا البرنامج بحذافيره ما عدا شيئين: القيلولة وجولة المدينة، وبقينا في النادي، يقدمني صديقي إلى القادمين والذاهبين وبيوت العنكبوت والكنبات المشققة الجلد، وكأنه يعرض لهم رجلاً قادماً من المريخ، أو من عطارد، أو من لبنان! وهكذا سوف نترك إلى غدٍ الجولة الكبرى على أهم المعالم، الكورنيش الشهير الطويل الطويل الذي لا نهاية له، ولا تعرف أين يبدأ وأين ينتهي لولا القصرين اللذين بنيا، أحدهما على مدخله من الشرق والآخر على مدخله من الغرب، لكن كيفما تلفتّ في هذه المدينة تذكّرت كلام «يان موريس»: إنها، الإسكندرية، مدينة مسكونة بأروع الأشباح: ملكات وأميرالات وحكماء وشعراء.

والنادي، لا تنسَ النادي! ولا بدّ من أنّك عرفت الآن عن أي نادٍ نحكي. لا. ليس نادي الجزيرة! بل النادي اللبناني طبعاً. لقد أقام اللبنانيون نادياً لهم في كلِّ مكان. نادٍ يتشاجرون فيه، ويلعبون فيه الورق وطاولة الزهر ويحكون... سياسة. الكلام نفسه. النادي وحده يتغيّر. وقد هاجروا إلى كلِّ مكان، حتى الإسكندرية التي لا تبعد عن بيروت إلّا ليلة في البحر، على باخرة قديمة.

بعضهم عاد، أكثرهم عاد. وبعضهم الآخر، هنا، في النادي اللبناني، يحنُّ إلى بيروت وكأنها على مسافة مليون فرسخ. يحنُّ ولا يعود.

هاجروا إلى مصر في سربين غريبين عجيبين: خدماً وباشاوات. نوادل وباشوات. من قريتي ذهب الفريق الأول. وعاد. تقريباً ثلاث أو أربع سيداتٍ أمضين أكثر العمر مدبّرات بيوت لدى باشاوات الإسكندرية، وعُدْن من هناك ونحن بعد أطفال. وقد حملن معهن اللهجة المصرية التي كنا نعدّها لغةً أجنبيةً في ذلك الوقت، ومعهن أيضاً الكياسة واللياقة وآداب الإسكندرية.

وكان معهن حلوى لأطفال القرية، وذكريات، وكلام لن ينتهي إلّا بانتهاء الحياة عن أيام العمل لدى الباشا. وكان أقربهن إلى قلوب أهل القرية شقيقتان: «الستي عليا» و«الستي مريم» وقد تغيّر عليهما الدهر من عزٍّ الإسكندرية إلى الوحدة في بتدين اللقش، ومن مدن الإسكندرية والكورنيش الطويل الذي لا ينتهي، إلى هذه الساحة الصغيرة حيث تقاعدت «الستي عليا» و«الستي مريم» وهما ترويان للوحدة والشجر والأطفال، ذكريات الإسكندرية مدينة الحكماء والعظماء والنوادي المهجورة.

اليوم تدخل الناس إلى مصر من القاهرة. في الزمان السالف، كانت الناس تأتي إلى الإسكندرية أولًا. وكان الناس يصلون دائماً إلى مدينة مزدحمة. ليس في مصر مدينة غير شديدة الازدحام! ويبدو أن المسألة ليست حديثة إطلاقاً، لقد جاء غوستاف فلوبير في منتصف القرن الماضي تقريباً إلى الإسكندرية وكانت مدينة مزدحمة أيضاً.

ويروي فلوبير في مذكّراته التي تحولت فيما بعد إلى روايات رائعة كيف غادر بلدته «كرواستين» في 22 تشرين الأول 1849 وكيف أن «من بين جميع الذين ألقوا عليّ تحيّة الوداع من أهل البيت، وحده بوسيير، الجنائني، كان متأثراً حقاً»، أما بالنسبة إلى أهل القرية «فقد كانت هناك المدام دانيه، ساعية البريد، والمسيو موران المسؤول عن عربة البريد الذي ودّعني قائلاً: إنك ذاهبٌ إلى بلدٍ عظيمٍ ودينٍ عظيمٍ وشعبٍ عظيمٍ».

يصل فلوبير إلى الإسكندرية في منتصف تشرين الثاني 1849 ويكتب إلى والدته رسالةً يقول فيها: «لقد ألقيت نظرتي الأولى على الشرق من خلال شعاعٍ فضيّ كان ينعكس على البحر. أو أنني رأيت الشرق

فيه. وسرعان ما بدا الشاطئ بوضوحٍ، وأول شيء رأيناه كان جملين مع جمّالهما، وعلى الميناء كان بعض العرب يصطادون السمك بهدوء. وقد تمّ الرسو وسط زعيق لا مثيل له يصمُّ الآذان (...) وهذا الصباح شاهدنا أعمدة كليوباترا وعمود بومبي وحمامات كليوباترا.

ومن حسن الصدف أن سليمان باشا، أقوى رجل في مصر، هو الآن في الإسكندرية بدلاً من القاهرة. وقد قمنا بزيارته أمس، واستقبلنا بالترحاب، وعرض علينا أن نكمل الرحلة بعربته، كما عرض أن يزوِّدنا بالجنود لكي يردُّوا الفضوليين عنا حين نريد التقاط الصور».

كان فلوبير مسحوراً بالرحلة إلى القاهرة وأودية الفراعنة، ولذا لن يمكث طويلاً هنا، بل سوف يكمل الطريق، هو ورفيق الرحلة، بعد أيامٍ قليلة، تاركاً الإسكندرية للبحر والغياب الجميل وهذا الخط الطويل من المباني الرملية اللون.

تبدو الإسكندرية اليوم مدينةً باهتة ومهجورة. يأتي إلى هنا، أو يبقى هنا من لا يذهب إلى مكانٍ آخر. إنه الوباء الذي يضرب المدن العظيمة التي ضربت بدورها في آفاق التاريخ. مدينة الإسكندر سوف تصبح، مع قيام روما. مدينة الأباطرة. وفي متحفها تصطفُّ على النقود القياصرة الذين تناوبوا على حكمها طوال خمسة قرون، وأشهرهم طبعاً نيرون العبقري الذي صار قاتلاً وجلاداً، وإلى جانبه ميسالينا، زوج أبيه شريرة العصور، وإلى جانبها طبعاً كلوديوس، زوجها الذي قتلت بأوامره. فيصر غليظ الدماغ غليظ الرقبة. ومن ثم هناك أغربينا، زوج كلوديوس الثانية ووالدة نيرون التي قتلت زوجها بالسم لكي توصل ابنها (الذي تبنّاه كلوديوس) إلى العرش الإمبراطوري!

لا.لا يقف تاريخ روما هنا. لابدّ من التأمّل ملياً وطويلاً في ملامح أغربينا لكي نقرأ سقوط روما وبدايات الانهيار. ملامح المرأة الأكثر ذكاءً وقوةً من الرجال. المرأة التي سوف تحكم الرجال، لكنها تنتهي آخر الأمر، كما انتهى كثيرون غيرها، بخنجر دفع ثمنه ابنها، الجائع التاريخي إلى الخناجر.

لكن على ظهر النقود أيضاً أباطرة آخرون غير نيرون. ولابدّ من التوقّف طويلاً عند ماركوس أوريليوس، المفكِّر الذي صار قيصراً رغماً عنه. لابدّ من التوقّف عند «فاوسثينا» زوجه التي كانت سرَّه الحقيقي.

إن التوقُّف في المتاحف ضربٌ من الغباء حقاً. متى يمكن أن تنتهي إذا أردت أن تتوقَّف؟ لقد صنعت المتاحف لكي ترى التاريخ كلّه في لحظات، تماماً كما حفظه الدليل، والدليل حفظه مثل الأسطوانة، لا كلمة تزيد ولا تنقص. حتى رتابة اللهاث عنده لا تتغيّر. ويبدو لك أنه لا يصاب بالرشح ولا يتغيّب يوماً واحداً، مثل النقود أو مثل المومياءات.

لكن حكاية الإسكندرية الحقيقية لا يعرفها الأدلّة. إنها تقرأ على الكورنيش، عند الغياب، أو على كرسيٍّ جلديّ في النادي اللبناني حيث يتفقّد صديقي أصدقاءه كل مساء، ويعدّهم.

لقد بلغوا عمر التفقُّد.

أيَّام المدرسَة اليَابانيَّة

في منتصف الستينيات عملنا ـ مجموعة من الزملاء وهذا المحبر ـ في إحدى الدور الصحافية الريادية في الكويت، أي: «دار الرأي العام». وحين يقول المرء داراً ريادية إنما يعني ذلك تماماً. فقد بدأ عبد العزيز المساعيد صحيفته مرتين في الأسبوع. وكانت تعدُّ في الكويت وتُطبع في بيروت، وفي المرتين يحملها رجل ويعيدها رجل، ثم اشترى المساعيد مطبعة صغيرة وحوَّل الصحيفة إلى يومية، وأنشأ «الديلي نيوز» الإنكليزية. وفي ليلةٍ غاضبة اكتشف عميد الدار أن محرري «دنيا العروبة» بالغوا في عدم حفظ الأمانة، فأغلقها وأبعد المسؤولين إلى ديارهم، ونقل هذا المحبر إلى إدارة «الديلي نيوز»!

وفي أثناء ذلك أخذت الدار تتحوّل من غرفتين ومطبعة إلى... دار. وهُدمت الدار القديمة في منطقة «الشويخ» لكي تقوم فوقها دارٌ صحافيةٌ كاملة. وخلال ورشة العمار هذه كان لا بدّ من حارسٍ أمينٍ لا يترك شاردة ولا واردة. وجئنا إلى المكتب ذات يومٍ فوجدنا عند البوابة الحديدية الرئيسة لحيةً كبرى لها رجل!

وسألنا عن اسم اللحية أو الرجل فلم نُعطَ سوى اسمه الحركي «أبو جاسم». وقيل لنا: إن «أبو جاسم» من عمان، وقيل أيضاً: إنه من الإمارات وفي روايةٍ أخرى: إنه من القرن السادس، والله أعلم.

لم يكن «أبو جاسم» يتكلم. وإذا تكلم لم نكن نفهم ما يقول ولا أي لغة يحكي. ولم يكن هذا الرجل العجيب «ينطق» إلاّ أمام «أبو يوسف» المساعيد، فينطلق لسانه، وتنطلق حركات يديه، أما نحن فكان يهمهم إذا ألقينا التحية عليه، و(يهمدر) إذا قلنا: تصبح على خير، وأكبر مجموعة أحرف سمعناها منه كانت: ها!

ومع الأيام توطّدت الصداقة بين «أبو جاسم» وبيني، فتطورت «ها» إلى «وعليكم السلام». لكن ما لبثنا أن وقعنا في أزمة كادت تتطور إلى حرب! فقد عدتُ إلى المكتب ذات يومٍ لأجد الزميل العزيز محمد خالد قطمة واقفاً أمام البوابة الحديدية. وهو أصفر الوجه مثل ورق التبغ. وإلى جانب آخر من البوابة كان يقف «أبو جاسم» مثل الذئب في حراسة أطفاله وهو يمسك بيد أحد الزملاء الهنود. وفي الجانب الآخر من الطريق كان يقف ثلاثون رجلاً تقريباً من أصدقاء وأقرباء وأحباء العزيز «أبو جاسم».

وفي لحظةٍ شرح لي محمد خالد أن الزميل الهندي خرج من المكتب ومعه كيس من الورق، وأن «أبو جاسم» يصرُّ على تفتيشه، وأن هذه إهانة لا تجوز. وتدخلت فقلت «لأبو جاسم» أن يترك الرجل وشأنه، لكنه زأر بي وهزّ الهندي هزاً. وقلت لمحمد خالد: ادخل واتصل بالشرطة واتركني هنا.

طبعاً كان ذلك قبل ثلاثة وعشرين عاماً. وكنت أيضاً في الثالثة والعشرين. ودارت بيني وبين «أبو جاسم» وربعه معركة طاحنة لعب فيها الصراخ دور البطولة. وتطايرت الكلمات والرفسات في الهواء إلى أن وصلت الشرطة وفصلت بين الفريقين... وكان محمد خالد لا يزال (يتلفن)!

ومنذ ذلك اليوم صرت الصديق الأول «لأبو جاسم»، بعد عميد الدار، وتطورت «وعليكم السلام» إلى حوارات فكرية شائقة من نوع «هاذي سيارة زينة» إلى «معك سيكارة!». ولم يعدْ «أبو جاسم» يستوقف الزملاء الهنود أو يوقفهم، بل يكتفي بأن يفتح لهم البوابة الحديدية الكبرى وهو يتمتم: «ها!».

وذات مرة كنت أعمل قبيل الظهر، وهي حقبة كانت الدار تخلو فيها إلاّ من «أبو جاسم» ومني، عندما دخل عليّ صديقي «أبو جاسم» وقال لي وهو يغمض عيناً ويفتح أُخرى ـ وهي حركة عصبية لديه ساعات الحيرة ـ: إن في الباب رجلاً يابانياً يريد مقابلتي! قلت وأنا مستغربٌ أن أكون معروفاً في اليابان: «وهل طلبني بالذات»؟ ورفع «أبو جاسم» سبابته في وجهي وقال مؤكداً: «أنت بالذات».

وقمت لأذهب إلى البوابة الرئيسة مستطلعاً لكنني وجدت أن الرجل... على الباب. وتبادل الابتسامات والانحناءات مع «أبو جاسم» ثم انصرف الأخير، وترك لي هذه الانحناءة! انحنيت شاكراً، فعاد وانحنى. قلت: تفضّل، فقال شيئاً ما ثم انحنى. دعوته إلى أن يتكرّم بالجلوس فتكرّم وانحنى. وظل ينحني وبقيت أنحني إلى أن اتخذت موقعي الاستراتيجي خلف مكتبي، فجلس.

قلت لهذه الحزمة من التهذيب: كيف أستطيع أن أخدمك! ضحك! ثم انحنى، ثم تبسّم.

وأخيراً قال لي: نحن (أي هو) السيد أوشيهيورو من شركة الزيت في الخفجة!

قلت: أنعم وأكرم أيها السيِّد أوشيهيورو من شركة الزيت في الخفجة... بماذا نستطيع نحن سمير عطا الله من «الديلي نيوز» في الكويت أن نخدمكم؟

قال: أنتم تألمون (تعلمون) أن شركة الزيت اليابانية في الخفجة في هاجة (حاجة) شديدة إلى هبراء وأمال (خبراء وعمال) من بلادنا اليابان، ولذلك نحن يجب أن نعلِّم هؤلاء الهبراء والأمال اللغة الأربية.

وقلت: أزيم يا مستر أوشيهيورو. أزيم، لكن ماذا أفعل في المسألة؟

قال: هضرتكم يؤلم «يعلّم» الهبراء والأمال... اللوغة الأربية.

كان المستر أوشيهيورو يتحدّث وينحني ويبتسم وأنا أتساءل في نفسي: كيف وصلت شهرتي إلى اليابان أو حتى إلى الخفجة؟ وراح المستر أوشيهيورو يصرُّ عليّ أن أقبل بتدريس رفاقه من «الهبراء» و«الأمال»، أما أنا فرحت أقنعه بأنني لست هبيراً باللغة اليابانية ولا فقيهاً في اللغة العربية وبناءً عليه فإن المستر هضرتنا من «الديلي نيوز» في الكويت يأتزرون شديد الائتزار من السيِّد أوشيهيورو في شركة الزيت اليابانية في الخفجة عن عدم تعليم اللغة اليابانية للسادة الهبراء.

وتصبّب مني العرق وأنا أحاول إقناع الضيف المفاجئ بهيافتي كأُستاذ. وفيما كنت أُلملم عن خدي طوفان العرق شعرت كأن شبحاً خفياً يقف في الباب. وتطلعت في ظل الشبح فوجدت أنه مختلُّ القياسات وأنه عند الرأس يبدو مثل سنام، وفي الأسفل يبدو مثل بطيخة... فعرفت فوراً أنه العزيز «أبو جاسم» يمارس هوايته المفضّلة: التنصّت. لكن لماذا يترك «أبو جاسم» البوابة الحديدية وهو ذلك الحارس الأمين ويأتي إلى بابي؟ حسناً. لأن في المسألة ثلاثة دنانير كحدٍ أدنى وخمسة كحدٍ أقصى وإلّا لما ترك «أبو جاسم» صديقنا المستر أوشيهيورو من الخفجة يلامس بقدَميه صحن الدار، ولظل يطرد به إلى الأحمدي.

لم تنتهِ المحادثة مع المستر أوشيهيورو من الخفجة! كنت أعتذر فيلحّ. وأماطل فيستعجل. و(أتمرمط) خلف مكتبي.. فينحني! وقررت أخيراً أن أشهر في وجهه سلاحاً عربياً قديماً ومجرباً وثابت الفعالية. قلت له: يرجو جنابنا من حضرتكم التفذل بإعتائنا مهلة قصيرة ندرس خلالها أرضكم (عرضكم) الكريم.

وفرح المستر أوشيهيورو من الخفجة فرحاً كبيراً، ووقف منحنياً فانحنيت واقفاً، فانحنى مودعاً، فانحنيت شاكراً. وقبل أن ينتهي هذا المهرجان قلت للمستر أوشيهيورو من الخفجة: بربكم أيها المستر أوشيهيورد من الخفجة كيف وقع خياركم علينا؟ ومن دلّكم على ديارنا؟ فانحنى المستر أوشيهيورو من الخفجة وتبسّم وقال: هضرة السيد «أبو جاسم»!

مساء ذلك اليوم ذهبت كالعادة إلى فندق «الكارلتون». وكان بهو «الكارلتون» في تلك الحقبة هو الملتقى والمنتدى. ولأن مقاهي الأرصفة «كالهورس شو» البيروتي ليست ممكنة في الحرِّ الشديد فقد كانت الفنادق تقوم مقامها. وهكذا كان «الكارلتون» في الكويت و«الكندرة» في جدّة و«اليمامة» في الرياض. وكان يختلط النزلاء بالمقيمين، والقادمون بالمسافرين غير أنه كانت هناك حلقات تقليدية تنعقد كل مساء مثل عناقيد الصيف. والحلقة المركزية التي تنعقد حولها الحلقات الأُخرى كانت تلك التي تضمُّ عبد العزيز المساعيد وخالد المشاري. فقد كان عليك أن تسلّم أولاً على أهل تلك الحلقة، وتصغي إلى آخر لمحة من المشاري، ثم تذهب إلى حلقتك. وخالد المشاري هو - دون أي شك - ظريف الكويت ولماحها. وكانت دعاباته الاجتماعية والسياسية تتحوّل إلى مقالات لدى عدد من الزملاء. بل يوم كانت «الرأي العام» هي اليومية الوحيدة في الكويت كان يُقال: هناك جريدة مكتوبة اسمها «الرأي العام» وصحيفة ناطقة اسمها أبو مرزوق... أي طبعاً المشاري! وحين قامت الحملات المتبادلة بين البعثيين والناصريين في الستينيات كان صحافيو الكويت يقولون: لقد قرأنا ما كتبته «روز اليوسف»، ويبقى أن نسمع الآن ردّ «أبو مرزوزق».

كان لابدّ في ذلك المساء من أن أروي ما حدث لي في الصباح مع المستر أوشيهيورو من الخفجة. وبالتفاصيل طبعاً. ورويت كم أن الرجل يائسٌ وفي حاجةٍ إلى مدرِّس. وقال أبو مرزوق ضاحكاً: «يوبا هادوما اليابانيين ما حدّ يعرفهم. هادا يمكن يكون صاحب «السوني» أو رئيس الوزراء».

ولم يكدْ يكمل جملته حتى «غمزني» أحد الزملاء الجالسين وكان يومها عاطلاً عن العمل. وفهمت منه أنه يريد أن يراني جانباً، فانتقلت إلى ركنٍ آخر ولحق بي. وما إن جلسنا حتى انفجر بي وهو يضبط أعصابه لكي لا يسمع الآخرون: «ولاه. مجنون. بدّك تبقى فقير. ولاه كيف بترمي هالنعمة. كيف بترفض اليابانيين. بلكي هيدا مزبوط صاحب «السوني»؟

قلت للصديق الذي أخذ يجهش بالبكاء حزناً على الثروة التي أضعتها: «وماذا تريدني أن أفعل؟ كيف أقوم بعملٍ لا أعرف عنه شيئاً». وأمسك الصديق بيدي وكاد يقبلها. أو بالأحرى قبّلها، لا أذكر تماماً. وقال لي: «أرجوك. أتوسّل إليك، قلْ لليابانيين إنّك قبلت وبعد أيامٍ تستقيل، وأتولى أنا التدريس؟».

قلت: حسناً، ولكن هؤلاء تقريباً ستة «هبراء» على الأقل، فأين تعلّمهم؟ وفي أي مدرسة؟ قال وقد اكتشف كنزاً من قاع البحر: «أي مدرسة؟ بيتي يا عبقري. أفرغ لهم الدار من المفروشات، ونضع كنبة أو اثنتين ولوحاً على الجدار، وبعدها ردّدوا معي يا شباب: ألف باء بو باية.. الكاف كوسى محشاية!».

...كان الصديق جدياً في توسله. وقد عرفت ذلك من الطبقة الصوتية في شخرته. فالصديق العزيز من أهل غزّة، وردة الفعل لديه على كلِّ أمرٍ شخرةٌ تختلف طبقاتها وامتدادها وتموجاتها مثل اختلاف المفاتيح

الموسيقية عند بتهوفن. وهذه الشخرة تقوم مقام علامات التعجب وعلامات الاستفهام وحتى الـ... «دون تعليق»! ولذا شعرت يومها أن صديقي في ضيقٍ حقاً. إنه متضايق لدرجة أنه مستعدٌّ لتعليم اللغة العربية للهبراء اليابانيين!

ورسمنا معاً ـ الصديق وأنا ـ خطة مكالمة المستر أوشيهيورو من شركة الزيت في الخفجة. وبعد أسبوعٍ كان يحوِّل بهو منزله العادي أصلاً إلى دارٍ أكثر عراء لكي يتناسب مع الذوق الياباني، وأضاف إلى العراء إناء فيه زهرة واحدة، اصطناعية طبعاً، لكي يقول اليابانيون: إننا قوم مبذرون.

ولكي لا نطيل الشرح كثيراً - وأعمار القارئين طوال - فإننا اتفقنا مع المستر أوشيهيورو من شركة الزيت اليابانية في الخفجة على أن يوافينا مع الهبراء الستة إلى دارة صديقنا العامرة بعد ثلاثة أيام! عفواً، لا بدّ من تفصيلٍ إضافي صغير. فالدار العامرة لم تكن أكثر من شقّة عازب، والشقّة كانت في السوق القديمة خلف ساحة «الصفاة».

... وفي ذلك الجوِّ الهادئ قامت المدرسة اليابانية الأولى في الكويت وربما في الخليج وربما في الشرق العربي كلّه. وفي الساعة المحدّدة وصل الوفد الياباني برئاسة المستر أوشيهيورو من شركة الزيت اليابانية في الخفجة. وكان الوفد مؤلفاً منه ومن السادة: أوشيما ومهمّته الإصغاء جيداً، وسوكوياما ومهمّته التأكُّد من أن أوشيما يُصغي جيداً، وموبوشي ومهمّته حفظ مخارج الحروف، وميامایاما ومهمّته التأكُّد من أن موبوشي يحفظ جيداً مخارج الحروف، وسوكوتو ومهمّته أن يدوِّن الأمثولة، وطوموتو ومهمّته أن تتحزَّر ماذا يفعل هناك!

إنهم اليابانيون. شعبٌ غريبٌ عجيبٌ نشيطٌ كالنحل ومنظمٌ كالنمل. شعبٌ لا أفراد فيه بل مؤسسات وشركات وشركات وشركات، بالإذن من شكسبير وكلمات كلمات كلمات. بلد خرج من الحرب العالمية الثانية بعدما أغرق الكون بالكاميكاز والمنتحرين، وراح يُغرق العالم بالسيارات والتلفزيونات وقمصان الخمسة آلاف وخمسمئة والشعر والناقلات الأضخم في التاريخ وكل مادة تقع يده عليها.. إلاّ الغناء والموسيقى، وطبعاً، اللغتي الأرابيتي!

ووقفت محاضراً في السادة الهبراء بينما جلس صديقي متربعاً على الأرض... لكي يعتادوا رؤيته. وبين مدّة وأخرى كان يشخر قليلاً لكي يعتادوا شخرته أيضاً. وقال لي بكلٍّ بساطة: الفريق العربي في مواجهة الفريق الياباني!

لكن بأيَّ لغة نعلِّم السادة الهبراء اللغتي الأرابيتي؟ إنهم لا يجيدون سوى لغة الإمبراطور هيروهيتو باستثناء المستر أوشيهيورو من شركة الزيت اليابانية في الخفجة الذي يتكلمو نحنو اللغتو الأرابيتي من فذلكم وعليك السلام. ما العمل؟ لا يهمّ. نبدأ. اتخذ السادة الهبراء أماكنهم في صفّين على الأرض، وشخصوا إلى البروفسور العظيم أمامهم. تلعثمت. قررت أن أؤجل الإحراج قليلاً، فانحنيت، فهبَّ اليابانيون وقوفاً لكي ينحنوا. تفذلوا تفذلوا! وهنا تدخّل المستر أوشيهيورو من شركة الزيت اليابانية في الخفجة ليساعدني وقال لرفاقه: ـ آ... كا!

عادوا فجلسوا فوراً. وراحوا ينتظرون بداية الدرس وأنا أنتظر أن أبلع ريقي. حاولت أن أتذكّر كيف تعلّمت الأحرف الأولى... لكنها كانت لغتي الأم، أما اللغة الأم لدى هؤلاء السادة فمؤلفة من ثلاثة آلاف حرف... وكل حرف له ذنب وتنين وفي رأسه عروة، وأخيراً بدأت. أشرت إلى أنفي وقلت لهم: ردّدوا معي: أنف. أنفن. أنفون!

واعترض المستر أوشيهيورو من شركة الزيت اليابانية في الخفجة وقال لي: «تقسدون هضرتكم خشم لا أنفن؟».

اعتذرت. وعدت أقول لهم: ردُّوا معي: خشم. خ ش م ن. خا ش مون! ووضعت سبابتي على أنفي وعدتُ أكرِّر: خ ش مو ن. خا ش مو ن! ونظرت إلى السادة الهبراء (الخبراء)، فرأيتهم يضحكون وقد غارت عيونهم بين أجفانهم من شدّة الضحك. وحاولت أن أعرف السبب، فسألت المستر أوشيهيورو من شركة الزيت اليابانية في الخفجة عن الأمر، فغرق في الضحك هو أيضاً، وأخيراً توقَّف وشرح لي أن السادة الهبراء يضحكون؛ لأنني اخترت أن أبدأ بالأنف وأن أنفي كبير ومعكوف و... غرق في الضحك من جديد.

وقلت للسادة الهبراء: إنني بدأت بالأنف؛ لأن الخشم جزءٌ من السلوك الحياتي في الخليج، إذا طلب أحدكم طلباً من كويتي فإنه لا ينحني ولا يبتسم بل يضع سبابته على أنفه ويقول: «على خشمي»... فإذا كان خشمه عادياً فافهموا، أما إذا كان خشمه في حجم خشمي... فافقعوا ما شئتم من الضحك، في أيِّ حالٍ انتقلت من الخشم إلى اليد. ووضعت يدي اليسرى على الجدار وأشرت إليها باليمنى فوقها وقلت: يد! ردُّوا معي: يد... ون! وقال السادة الهبراء بصوتٍ واحد: ـ آ... كا!

وتطلعت متعجباً. وقلت لهم من جديد: يد.. ون! فردوا مجدداً (مع الابتسام)... ـ آ... كا!

(...) ماذا تعني آ... كا هذه؟ ماذا يقصد السادة الهبراء؟ لقد حيّرتنا هذه الـ آ...كا! فهي مرّة فعل أمر، ومرّة أخرى أداة استفهام، لكنها هذه المرة تبدو مثل النشيد الوطني الياباني، وإلّا فلماذا هذا الإجماع من الهبراء الستة على تنغيم هذه الآ...كا وكأنها موشحٌ أندلسي، وجادك الغيث؟

ثمة شيء غريب في اللهجة اليابانية وفي تسارع الكلام وتقاطعه وتداخله عند الآسيويين وخصوصاً عند رعايا الإمبراطور هيروهيتو، فإذا قال لك أحدهم: صباح الخير ظننتَ أنها «الهاراكيري» أي: ذلك الانتحار الشديد النعومة حيث يطعن الياباني نفسه بالسيف الساموراي وهو يصرخ،... آ... كا! ولكن طبعاً من الفرح لا من الألم.

وأتذكّر الآن أنني كنت ذات مرّة عائداً من روما إلى بيروت، وفي المطار أبلغنا أن طائرة (الشرق الأوسط) سوف تتأخّر ثلاث ساعات. وسألت عن أول طائرة إلى بيروت فقيلَ: إنها (اليابانية). والتقيت في حالة الانتظار يومها سفير تونس لدى لبنان آنذاك السيد بشير المهذبي، ولأن المهذبي اسمٌ على مسمّى وصفة على موصوف، أي: رجل شديد التهذيب واللياقة فقد سألته عن رأيه في الموضوع، فقال بصوتٍ غير مسموع: على المرء أن يعقل ويتوكل.

وركبنا الطائرة اليابانية، لم أكن أعرف طبعاً أن السفير المهذبي يخاف الطائرات مثلي وأكثر! وتطلعت حولي في الطائرة فإذا هي مهفهفة نظيفة مثل مدن سويسرا وشوارعها. ثم جاءت المضيفات يقدمن لنا

المحارم العطرة وينحنين مثل غصن بان كما تقول الأغنية. وبعد دقائق أقلعت الطائرة مثل همس الجفون، فلم نعرف أنها ارتفعت إلّا حين تطلعنا من النافذة، لكن ما هي إلا لحظات حتى جاءنا صوت القبطان عالياً جاعراً قاضماً قاسياً كاسراً ظهورنا:

ـ آ... كا!

وتمسكت بجانبي المقعد! وتطلعت للسفير المهذبي فرأيته يتمسّك بالمقعد الأمامي. وحاولت أن أسأله: ماذا تعني آ... كا هذه؟ لكنه كان صامتاً مذعوراً. وما لبث القبطان نفسه أن أنقذنا حين ترجم لنا هذه الآ... كا باللغة الإنكليزية، وكانت ترجمتها أننا أقلعنا - والحمد لله - وأن المسافة إلى بيروت ثلاث ساعات، وأن الجابان إيرلاينز ترحِّب بكم أشد ترحيب.

وكانت الرحلة فعلاً هادئة ناعمة لدرجة أننا استسلمنا جميعاً للنوم، بمن في القوم السفير المهذبي، وهذا المحبر. لكن بعد ساعتين استفقت مذعوراً على صوت القبطان يعلن مرّة أخرى: آ... كا! واستفاق المهذبي، وتمسّك فوراً بالمقعد أمامه ثم سألني: إيه الحكاية؟ قلت عن تجربة وخبرة: دعنا ننتظر الترجمة الإنكليزية. وبعد لحظات انتقل القبطان بالفعل إلى اللغة الإنكليزية، فقال: نحن على ارتفاع ثلاثين ألف قدمٍ وفوق المتوسط، وإلى يمينكم مدينة «برنديزي» الجميلة... آ... كا!

إذن، آ... كا هـذه هـي كل شيء، ولذا فعندما صرخ الهبراء الستة آ... كا هذه المرّة لم أطلب من السيّد أوشيهيورو من شركة الزيت اليابانية في الخفجة أن يترجم، بل قررت أن أمضي في الدرس الأول. وانتقلت

من يد، ي د، يا دو ن، إلى كلمة تشبهها في السهولة وقلّة الأحرف: ع ي نون! ولم أختر مثلاً كلمة تكأكأتم، وراح السادة الهبراء يردِّدون معي في صوتٍ منتظم واحد وكأنهم يهاجمون «بيرل هاربور»: ع ي نن!

وفرحت بالانتصار الأول على الفريق الياباني. وفرح طبعاً صديقي. لكن بعد خمس دقائق تقريباً من هذا الفرح قرع الباب. باب المدرسة اليابانية! وشعرنا بالغريزة فوراً أن المدرسة على وشك أن تُغلق أبوابها! عفواً بابها. وفتح صديقي الغزاوي الباب، وشخر شخرةً طويلةً عرفت منها أن في الأمر خطباً، فقلت له فوراً: ماذا أمامك والهبراء قد ساروا؟

لكن الضيف لم يدعْنا نكمل، فقد دفع إلى الداخل الحقيبة الأولى ثم رفس الحقيبة الثانية ثم الثالثة، ثم دفع نفسه... بصعوبة؛ لأنه كان في حجم الحقائب الباقية.

وأحرج صديقي. وتطلّع في المستر أوشيهيورو من شركة الزيت اليابانية في الخفجة وفي السادة الهبراء، وقال:

ـ أقدِّم لكم شقيقي العائد فجأة من الدراسة في إسبانيا!

وانحنى السادة الهبراء مرّة واحدة قائلين: آ... كا! أما المستر أوشيهيورو من شركة الزيت اليابانية في الخفجة فنظر إليّ وقال:

ـ ليس هضرتكم تستطيئون تبعاً أن تعلّموا الهبراء والأمال في هذه المدرستي بعد الآن!

وقلت للمستر أوشيهيورو من شركة الزيت اليابانية في الخفجة: الحكيكة أيها المستر أوشيهيورو من شركة الزيت اليابانية في الخفجة أن هضرتنا آجز من الاعتذار من هضرتكم على هذا المودوع!

وتطلعت في صديقي فرأيته يتطلّع في شقيقه ويشخر... والشقيق العائد يتطلّع فينا جميعاً ويشخر، والهبراء الستة واجمون يبتسمون وينتظرون أول إشارة لكي ينحنوا.. ولم أستطع وسط هذا الموقف أن أقول شيئاً، فدلفت إلى الباب وقلت وأنا أنحني استعداداً للهرب:

ـ آ... كا!

حكاية (أو حكايات) عَمي رَسيم

كان آخر عابر في القرية رآه عمي رسيم رجلاً من آل الأسعد، وقال له عمي رسيم حين عرّف الرجل بنفسه في ساحة القرية: آه، رحم الله والدك. لقد كان صديقي جداً».

وقال الرجل متسائلاً: «والدي؟ هل أنت حقاً عرفت والدي يا عم؟».

وانتفض عمي رسيم كأنه انزعج من الإهانة وقال: «ماذا؟ ألست ابن أحمد بك؟»

وحين مضى الرجل في سبيله قلت لعمي رسيم: ما لك ولهذا المسكين؟ أنت تعرف جيداً أن لأحمد الأسعد ولداً وحيداً فكيف يكون هذا ابنه؟» وابتسم عمي رسيم وقال: «اسمعْ يا صبي. أنا عمك لا أنت عمي. يجب أن تعرف كيف تطرب الناس. فعندما تقول لمثل هذا الرجل: أنت ابن أحمد بك سوف يشعر بسعادةٍ متناهية. وماذا يكلِّفك الأمر؟ لا شيء، وماذا دفعت من جيبك؟ لا شيء!»

لا أعرف ماذا كان عمي رسيم فعلاً: هل كان رجلاً بالغ الذكاء؟ هل كان رجلاً بالغ الطيبة؟ هل كان رجلاً بالغ الفشل؟ هل كان رجلاً مبالغاً... وكفى؟ لا أدري، لكنه حين مات مقعداً، وحيداً وقد انطفأ مثل سراجٍ أمام عتبة الدار، شعرنا أننا فقدنا كنزاً من الحكايات والسلوى واللطائف.

ولم يكن عمي رسيم يقرأ أو يكتب، لكنه قطع الأرض بحاراً وسهولاً وجبالاً وصحارى. وكان ينتظر أن يجتمع العجائز حول مختار القرية في الساحة ليقرأ لهم، كل أسبوع، الصحيفة التي يحملها إليه ساعي البريد.

وما إن يقرأ المختار بصوتٍ عالٍ: «بريطانيا تعلن وفاة ونستون تشرشل» حتى يقول عمي رسيم فوراً، وفي كثير من التأثر: «يا مسكين يا ونستون، لن نلعب الغولف معاً بعد الآن». وحين قرأ المختار مرّة أن ديغول قد عاد إلى السلطة صرخ عمي رسيم طرباً: «طبعاً، طبعاً، هذا هو شارل، لا تعرف كيف يذهب ولا كيف يعود».

واعترض المختار وبقية العجائز هذه المرّة. وقالوا له تقريباً في صوتٍ واحدٍ وقد طقطقت وجبات أسنانهم من الغضب: «لكنك يا رسيم كنت مهاجراً في أميركا، فأين تعرّفت على ديغول؟». فسخر عمي رسيم منهم وقال لرفاق الساحة: «هه. تلك الليلة في مرسيليا عندما نادتني إيفون (زوجة ديغول) أمام الفندق الكبير، وقالت مخاطبة زوجها: حرب أو لا حرب يا شارل فإن رسيم يجب أن يتناول العشاء معنا هذا المساء».

وسأله المختار: وهل تناولت العشاء معهما؟ فأجاب عمي رسيم فوراً:

ـ طبعاً لا. لقد كنت مرتبطاً على العشاء مع الماريشال فوش!

لم يتركْ عمي رسيم شيئاً في حطام هذه الأرض. تحدّث عن ثرواتٍ كثيرة. عن المناجم التي يملكها في البرازيل، عن مطاحن القمح في الريو. عن مزارع البقر في التكساس، وطبعاً عن بيته في كالامازو، ولاية ميتشيغان، حيث عاش معظم سني حياته... الحقيقية، قبل أن يعود إلى القرية متقاعداً، يستقبل الشمس ويودِّعها بين الساحة والبيت... أي: مسافة 550 متراً وبضع درجات.

وكان المهاجرون يعودون على القرى عادةً وهم يحملون بعض الهدايا الصغيرة من «صنع البلاد»، أي: أميركا، أما عمي رسيم فقد وعد مستقبليه بقطع أرض في فلوريدا وببواخر في جنوى، ووعدني بجوارب

رمادية اللون حين تصل حقائبه إلى مرفأ بيروت إلى الباخرة الخاصة التي تحملها. غير أن الباخرة ضلّت الطريق، كما عرفنا فيما بعد، ولم تصلْ حتى الآن!

وفي الأيام الأولى لعودته كان عمي رسيم يصرُّ على أهل القرية أن ينادوه باللقب الذي أعطاه إياه ملك إسبانيا لدوره (أي دور عمي رسيم طبعاً) في الحرب العالمية الأولى، ثم في الحرب العالمية الثانية حين كان طياراً، ثم فارساً، ثم سائق دبابة، ثم (مدفعجياً) ثم قائد فرقة. وكان يصدف (خلال الحرب الثانية لا الأولى) أن يكون في فرنسا وفي إيطاليا وعلى مشارف برلين في وقتٍ واحد. أما اللقب – قبل أن ننسى – فهو «دوق ألبا الكبير»!

وقد شعرنا بعد سنين أن عمي رسيم قرأ الاسم على إحدى علب الشوكولاته، وأن هذه هي كل علاقته بألبا ودوق ألبا الكبير والصغير وطبعاً إسبانيا والحرب!

«ماذا تخسر يا عمي؟ ماذا تخسر؟».

أنا أنبسط وهؤلاء المهابيل ينبسطون. دوق ألبا الكبير دوق ألبا الكبير. فليكنْ. شو حضرة المختار دافع حقها؟ إيه نعم دوق ألبا الكبير ونص... مش أحسن ما كل يوم أحكيلهم زرعنا باذنجان. قطفنا التفاحات. يبسوا البندورات... يا سيدي دوق ألبا الكبير... واللي مش عاجبو ما يسمع!».

احتار عجائز القرية ورفاق الساحة في عمي رسيم، إنه يحدِّثهم عن أشياء لا يعرفونها، ويثير مخيلاتهم البسيطة بروايات لا يستطيعون التحقق منها! وقد عرفوا طبعاً أن في الأمر خللاً ما. وربّما بعض المبالغة، غير أن عمي رسيم كان من الظرف بحيث إنهم تجاهلوا كل شيء آخر؛ إذ ما الذي يمكن أن يغير الرتابة الجميلة في تلك الساحة غير حكايات عمي رسيم.

والمرّة الوحيدة التي ساءت فيها الحالة وتوترت الأمور وتخرّب الميزان هي عندما وصل إلى القرية مهاجرٌ قديمٌ آخر، وكان الرجل قادماً من الأرجنتين ومعه أوراق نقدية عريضة كُتبت عليها الأرقام بالألوف التي لا تساوي شيئاً حتى في عالم الأصفار، وكان كلما جلس على عتبة المدرسة مع رفاق الساحة تعمّد أن يظهر أطراف تلك الأوراق لكي يضمن احترام الآخرين ومهابتهم. وذات مرّة بلغ التحدّي به أن راح يروي كيف خاض معركة البلديات في كوردوبا (لو قالها قرطبة باسمها العربي لما بدت في ذات الأهمية)، وكيف فاز بأكثرية الأصوات لولا... التزوير!

وتململ عمي رسيم على مقعده (الحجري طبعاً)، وراح يفتل شاربيه، وبلغت به عصبيته أنه ردّ قبعته إلى الوراء، فبانت صلعته تتصبّب عرقاً. وما إن انتهى رجل كوردوبا من روايته حتى ضرب عمي رسيم عصاه في الأرض وقال موجهاً كلامه إلى المختار بنبرةٍ مرتفعة: «آه، لقد نسيت أن أخبرك يا حضرة المختار عن تلك المرة التي خضت فيها معركة مجلس الشيوخ في كالامازو!».

وهتف العجائز ورفاق الساحة في صوتٍ واحد: الشيوخ؟ وهل قلت: الشيوخ؟

وابتسم عمي رسيم ابتسامة المنتصر، فقد سرق الدور من مهاجر الأرجنتين. هذا بلديات، وهذا مجلس الشيوخ. وقال متعالياً:

ـ «لولا هذا الملعون ابن الملعون روزفلت..».

وصمت قليلاً، فهبّ الجميع يتوسلون إليه: أكملْ يا تشارلي. أكملْ يا تشارلي!

فقال عمي رسيم: «أجل، لقد تدخّل الملعون روزفلت؛ لأنني تشاجرت وإياه على امرأةٍ خلال الحرب... وطلب إلى الناخبين البروتستانت ألا يصوتوا لي... فلم يبقَ لي سوى الكاثوليك، وكانوا أقلية».

وهَمْهَمَ رفاقُ الساحة! وقال أحدهم بكل صدقٍ: لعنة الله على النساء. وقال آخر: بل لعنة الله على روزفلت!

وارتاح عمي رسيم إلى ردة الفعل لدى سامعيه، وأخذ يردّد لنفسه، لكن بصوتٍ مسموعٍ جيداً: «آه منك يا تيدي... لولا أنت لكنا الآن (أي: عمي رسيم، دوق ألبا الكبير) في مجلس الشيوخ»!

وشعر مهاجر الأرجنتين بالهزيمة أمام تشارلي. آه، عفواً، نسيت أن أقول لكم: إن عمي رسيم اتخذ لنفسه اسماً أميركياً مثل كل المهاجرين. وحين تنازل أمام رفاق الساحة عن لقب الدوق ألبا الكبير، فقط لأنه طويل في المحادثات، فإنه لم يتنازل عن الاسم الذي عاد به من كالامازو، أي: تشارلي بيترسون أديسون عطا الله الثالث!

الثالث!

نعم، الثالث! أما من كان الأول والثاني فإني لا أدري. لقد أعجب عمي رسيم بلقب الثالث كما أُعجب بلقب دوق ألبا على علبة الشوكولاته... فاقتناه. ولكي يظل متميزاً عن باقي العجائز في القرية حرص على أمرين حرصه على حياته: تشارلي، اسمه الأول، وقبعته العالية التي اعتمرها في الصيف والشتاء، لا يخلعها إلّا حين ينام فيستبدل بها آنذاك قلنسوة مصرية كان قد اشتراها حين توقفت الباخرة في الإسكندرية.

وقد حافظ عمي رسيم أيضاً على عصاه وعلى الطقم الذي عاد به من «هيديك البلاد» وعلى قلم باركر «فيفتي وان» لم يستخدمه في حياته إلاّ ليقهرَ به رفاق الساحة الذين ـ بمن فيهم المختار ـ لم يكونوا قادرين على شراء أكثر من قلم «كوبياء»، قبل انتشار قلم «البيك».

وكان المختار هو الذي يتولى كتابة الرسائل إلى المهاجرين، وهو الذي يقرأ الرسائل التي تأتي منهم كل أسبوع. وكان يشتهي أحياناً أن يكتبَ بقلم «الباركر»، فيطلب من عمي رسيم أن يعيره إياه فقط... لتوقيع الرسائل. فيمدّ عمي رسيم يده إلى جيبه الداخلي، ويعطي القلم إلى المختار محذراً: «دخيلك يا مختار انتبه للقلم. هيدا غيفت (هدية) من هاري! إذا ضاع، هاري ويل بي أنغري... ونحنا ما فينا نزعل هاري. مش وقتها!».ويسأل المختار بكل سذاجة: من هو هاري هذا يا تشارلي؟

فيتطلع عمي رسيم في جلساء عتبة المدرسة وكأنه يتأفف من جهل المختار، لكنه أخيراً يتظاهر بأنه سامح هذا الجاهل الموصوف ويردّ بطرف لسانه:

ـ هاري؟ بطلّت تعرف مين هاري؟ يا بسيط... مين ضرب القنبلة الذرية عَ اليابان؟

ويستغلُّ عمي رسيم المناسبة لكي يروي للحاضرين ذكريات الأيام الخوالي مع رفيق الصبا... هاري. س. ترومان، بالطبع مَنْ غيره؟!

آه، لقد نسيت أن أصف لكم «مكتب» عمي رسيم أو... عتبة المدرسة الحجرية! لقد كانت المدرسة غرفةً كبيرة واحدة، فيها موقد كبير وبضعة مقاعد خشبية. وفيها أيضاً كرسي الأُستاذ (المدرس؟ لا. لا، إنه ال أُس

تاذا!). وفيها أيضاً مؤونة الشتاء من أحطاب الصنوبر ولبِّ الصنوبر النادر، أي: «اللقش» السريع الاشتعال مثل غاز الديبون! لكن في تلك الأيام، أي: طفولة الأربعينيات، كانت أرقى قداحة أو ولّاعة هي قداحة حجر... الصوّان! وكانت هذه عبارة عن فتيل معلّق في طرف قطعةٍ معدنية يشتعل لدى احتكاك حجري صوان بعضهما ببعض... فتسارع إلى إشعال سيجارتك قبل أن ينطفئ من جديد...

ولا بدّ لصاحب السيجارة من أنفاس قويّة، لا ليطفئ الفتيل... بل ليشعله! وكان المدخنون «يلفّون» السيجارة لفاً بأيديهم، ويفتلونها بأصابعهم ثم يلصقونها بشيء من الريق! إلّا عمي رسيم. فقد كان عمي رسيم متفوقاً بالتأكيد، وكان يحمل في جيبه علبةً معدنيةً مفضضة تلف السجائر بشكلٍ عجيب!

من أين هذه العلبة السحرية يا عمي رسيم؟ آه يا بني لا تذكّرني. يقول فوراً عمي رسيم، وهو يبحث في ذاكرته عن الأسماء التي قرأها على علب الشوكولاته أو على زجاجات المياه المعدنية. ثم فجأة يتذكّر، فيحمل العلبة بين يديه: «آه، تقصد هذه العلبة... لقد سقطت من أيزنهاور عندما كنا معاً في حملة النورماندي، فنبّهته إلى ذلك، فما كان منه إلّا أن قدمها إليّ قائلاً: إنها من نصيبك يا تشارلي!».

وقال أحد رفاق الساحة أو العتبة أو «المكتب»: لكنك لم تقل لنا من قبل ذلك، قابلت أيزنهاور يا تشارلي؟ فانتفض عمي رسيم غاضباً وقال:

وهل تريدني أن أفصح عن أسماء أصحابي دفعة واحدة؟ هل تعتقد أنهم جميعاً مثل حضرة جنابك؟ طبعاً أيزنهاور صاحبي. وأديسون كمان!

وشهق السامعون عجباً، كانت حلقة السامعين عادة ستة أو سبعة من الأجداد ينضمُّ إليهم أحياناً بعض الأحفاد، فيجلسون أمامهم القرفصاء، ويروحون يستمعون إلى حكاياتهم وأحياناً إلى... صوت إغفاءتهم إذا ما غلبهم النعاس وسط حكاية أو طرفة أو رواية عن معركة من معارك دوق ألبا الكبير! عمي رسيم طبعاً.

لكن هذه المرة لم يحدثهم عمي رسيم عن صداقته لديغول والمدام إيفون بل عن أديسون. وقال أحدهم بين الدهشة والتعجب: «تقصد أديسون مخترع الكهرباء يا تشارلي؟» فابتسم عمي رسيم ابتسامة الظافرين، ونظر إلى رفيقه متعالياً: «كم في أديسون يا شاطر يا ذكي؟ طبعاً أديسون مخترع الكهرباء». وسأله رفيق آخر كيف تعرّف إلى أديسون، فرفع قبعته قليلاً إلى فوق، ووضع قبضتي يديه فوق عصاه وقال: «لقد جاء أديسون ذات مرة إلى كالامازو، فأقمت له حفل عشاء، ودعوت إليها وجوه الولاية وأعيانها ومدير مصانع بويك القريبة ومحافظ كالامازو المستر لاغواردیا»!

وعندما كبرت عرفت أن لاغورديا كان محافظ نيويورك، وفي المدينة مطار يحمل اسمه، ولعل عمي رسيم قرأ اسمه في المطار... لكن لا يهم «شو خسران حضرتك؟ شو دافع من كيسك... الناس مبسوطة ونحنا مبسوطين... يعني ما بيسوى إلاّ ما تتفلسف... صرت تعرفلك كلمتين صار بدّك تعلمني على أصحابي! نعم أيزنهاور صاحبي!».

عبثاً حاولنا في العائلة أن نُقنع عمي رسيم بأن يخفف قليلاً من مستوى «أصدقائه». كلُّهم حكام وبارونات وأبطال الحرب العالمية الثانية والأولى. وقبل أن يغيب بقليل - وكان لا يزال يستطيع المشي إلى «المكتب» - وصل

ساعي البريد ومعه الجريدة الأسبوعية كالمعتاد. وتحلق رفاق الساحة حول المختار لكي يقرأ لهم، أيضاً كالعادة، من الصفحة الأولى... إلى الإعلانات المبوبة. واتخذ المختار مكتبه على العتبة، ولفّ «قنبازه» جيداً، وشرع في القراءة. وبعد قليلٍ وصل إلى نبأٍ يقول: إن ونستون تشرشل يقوم بزيارة لبيروت. وصرخ عمي رسيم بصوت عالٍ في المختار:

ـ عم تمزح!

وقال المختار: أبداً، هذا ما تقوله الجريدة!

وضرب عمي رسيم رأسه يمنةً ويسرةً هزاً عنيفاً وقال: «تسألني ماذا في الأمر؟ هل هذه آخرة الصداقات في هذا العالم؟ يأتي دبليو سي إلى بيروت ولا يسأل عني؟ ولا يخبرني سلفاً أنه قادم؟.

وتساءل الشباب مرّة واحدة: من هو دبليو سي هذا يا تشارلي؟

فسخر عمي رسيم من جهلهم وقال: إنه السير ونستون يا أولاد!».

وسألوه: وهل تعرف السير ونستون؟

فضرب الأرض بعصاه من جديد وقال: «أعرفه؟ طبعاً أعرفه. لقد كنا معاً في معركة العلمين!».

وقال له المختار بخوفٍ: لكنك قلت: إنكم في الحرب كنت في النورماندي!

فردّ عمي رسيم بسرعة: «النورماندي؟ طيّب... ما هي... حد العلمين!».

لم يكن عمي رسيم يميّز في الزمان أو في المكان، أو في الرجال، أو في الألقاب، ولذا فإنه في قناعة نفسه لم يسرق لقب دوق ألبا الكبير بل هي مجرّد استعارةٍ بسيطة. ولم يكن مهماً قط أن يغالط في تواريخ المعارك التي خاضها! آه، عفواً، لقد نسيت تلك السنة التي لم يعدْ فيها عمي رسيم دوق ألبا ولا حتى تشارلي!

فقد جاء إلى الساحة ذات يومٍ، ورأى النصاب مكتملاً عند عتبة المدرسة الأجداد والأحفاد. وكان المختار يتزَّعم الحلبة كما يفعل دائماً، وقد ترك طربوشه ينحني قليلاً ليبيّن من تحته شعره الأجعد الذي كان يفاخر به في القرى المجاورة. وكان السنيور خوسيه (السيد يوسف سابقاً) - أي: مهاجر الأرجنتين الذي عاد إلى القرية وفي بطنه كل أبقار كوردوبا وخرفان باتاغونيا - ينفخ في نارجيلةٍ طهمازيةٍ طويلة، ويرتِّب التنباك والفحم بدرايةٍ فائقة كأنه يقطع المانش فوق جبل.

وصل عمي رسيم. وخلع قبعته تلياً مثل زجاجة «السفن آب» فعرف الجميع أن في المسألة أمراً جللاً. وبانت صلعة عمي رسيم كلها للمرة الأولى، فعرفنا سرَّ القبعة! لقد كانت صلعته بيضاء من كثرة سني الهجرة والاغتراب، ولم يكن قد بقي له من الشعر إلّا حافة الرقبة وما اتصل بالذقن من السالفين. وحتى هذه البقايا من الشعر بدت مبعثرة مهترئة من تكاثر العرق وكثرة الخباء وقلّة التنفس! ووضع قبعته جانباً، ورمى عصاه إلى الأرض، فبدا وكأنه عارٍ من دونهما. وكان المشهد مضحكاً حقاً. عمي رسيم يبدو للمرة الأولى مستديراً! مستدير الرأس ومستديراً عند الوسط ومعكوف السروال عند الأسفل مثل الرقم 8 وقد كتب بخط طفل.

ودون مقدِّمات قال عمي رسيم للجميع: إن أحدكم يقول: إنني لست دوق ألبا الكبير! أجل. هذا هو جزاء الوفاء والمحبة. اسمعوا (وضرب عصاه في الحصى)، لقد كفاني تواضعاً بعد اليوم، قد لا أكون فعلاً دوق ألبا الكبير، لكن يجب ألّا أخفي عليكم اللقب الذي نلته من الملك جورج الخامس... وهذه براءته في جيبي (ودلَّ بيده على جيب سترته الخارجية اليسرى) وهو لقب تشارلي عطا الله الثالث، وهذه براءة اللقب في جيبي لمن لا يصدق (وأشار بيده إلى جيب سترته الخارجية اليمنى)، وقد أعطاني الملك جورج هذا اللقب، وهذه براءته في جيبي (ودلَّ على جيب سترته الداخلية)؛ لأنني خلال الحرب أنقذت من الغرق باخرة بريطانية قرب الملايو حين كنت ضابط بحرية في الجيش الأميركي!

قال هذا، ثم اعتمر قبعته من جديد، وانحنى ليلمَّ عصاه، لكنني أسرعت وناولته إياها، وبعد ذلك وجّه إنذاره الأخير بكلِّ هدوء: «بعد اليوم أنا السير تشارلي. عاجبكم، أهلاً وسهلاً، مش عاجبكم أنا باقي بالبيت».

وحزن المختار حزناً شديداً وقال معترضاً:

ـ لا يا تشارلي. لا... أرجوك.

فقال عمي رسيم مقاطعاً:

ـ قلت لك... السير تشارلي!

فقال المختار مستسلماً (طيِّب يا عمي سير تشارلي. بأمرك. سير ونُص كمان)! فتدخل أحد رفاق الساحة الذي بدا أنه لم يفهم شيئاً من الأساس وقال لعمي رسيم: «شو يعني سير» ولاه رسيم؟ هيدي لغة فرنجية

مبين؟». فانتفض عمي رسيم من جديد وقال موجهاً كلامه إلى المختار: «دبّر طريقة حتى جماعتك يحترموا العالم. هيدي سير من جورج الخامس مش من بيت بيّو لها الخواجا»...

وتكفّل المختار بالأمر. ومضى ذلك العام كلّه تقريباً والساحة تنادي عمي رسيم السير تشارلي، وكان مسموحاً لنا فقط، أفراد العائلة، أن ننادي السير تشارلي ودوق ألبا الكبير صديق تشرشل وأيزنهاور، وترومان وديغول... باللقب الذي يربطنا به، أي: عمي رسيم.

لقد كان عمي رسيم طوال سنوات هو اللون الإضافي لساحة القرية الخضراء، وكان جزءاً أثرياً من الساحة مثل شجرتها الباسقة ومثل عتبة المدرسة ومثل صراخ الأطفال. وحين غاب ودخل الناس إلى بيته الصغير للمرة الأولى عرفت كم كان وحيداً وكم كان مسكيناً، ولا بدّ من أن ذلك الرجل الفرح الذي كان يحرص على أن يظل كل الناس في حالة مرحٍ وانبساط كان ينام أحياناً دون عشاء، وكان أحياناً كثيرة أخرى ينام وقد طوى صفحة جوعه برغيفٍ مبلل بالمياه المحلاة بالسكر، أو برغيفٍ مبلل بشيء من الزيت.

وحين كبرنا غابت الساحة أيضاً، وغاب المختار، وغاب أهل «المكتب» كلهم تقريباً؟ وكنت أحلم دائماً بأن أذهب إلى «كالامازو» لكي أعرف كيف كان عمي رسيم يعيش هناك حقاً. وعندما سنحت لي الفرصة الأولى في العام 1973 بالذهاب إلى الأمم المتحدة كان همِّي الحقيقي هو الذهاب إلى... كالامازو.

حكاية الحَي اللاّتيني

جئتُ إلى الحي اللاتيني قبل أن أصلَ إليه بعشر سنواتٍ على الأقل. كنت أعرف لون بلاطه وأسماء الأزقّة المكتوبة باللون الأبيض على لوحاتٍ زرقاء عند الزوايا الرماديّة وعناوين الأقبية التي تتصاعد منها روائح التبغ الأسود، ومنها يتصاعد عطر الأدب المعاصر في تلك المرحلة. كنت من جيلٍ يعيش في الحيِّ اللاتيني وهو لم يرَه بعد، ويهفو إلى الحياة فيه كمن يهفو إلى الحياة فوق رفوف المكتبة العامة، متنقلاً بين الأسماء والسطور وأبيات الشعر التي جعلت النور ينبعث، في باريس، من أصابع الشعراء لا من المصابيح المعلّقة فوق الجسور المعلّقة فوق السين المعلّق بين الفجر والغسق، نهراً عجوزاً يحبُّه أراغون ويكرِّمه فيرلين!

كان يخامرني الحدس طبعاً بأن باريس ليست في نهاية الأمر سوى كتاب، وأنها أُقيمت هكذا، ليس من أجل فرح الإمبراطور ولا من أجل مجد الإمبراطورية، بل من أجل أن يكتبها شاعرٌ على جدارٍ أو على سطح المياه، أو على مدخل قبو تتصاعد منه رائحة التبغ ونقاشات الفلسفة وأدعياء الفلسفة والأدعياء. أدعياء أي شيء.

إنها شهوةُ الانتساب إلى هذه المدينة: لا شباب دون المرور بربيعها، لا أدباء دون الجلوس على أدراج مكتباتها العامة، لا شعراء ولا شعر ما لم تجلس في المطعم العتيق قبالة «الأوديون»، وفوق رأسك تلك الأسطر التي تركها أبولينير، الإيطالي المنتحل اسماً فرنسياً، الصائغ شعراً فرنسياً، الكاسح باريس، المقتحم الأكاديمية الصعبة وقناطرها العالية بالنغم من

الشعر. جاء إلى هنا وعشق وغنى. عشق باريس ولها غنّى. وهبط مع الليل إلى ضفاف الجسور، وراح يغترف من المياه عذوبةَ المياه وهدوء السين الحامل كل عصف التاريخ.

كنت في العشرين، تقريباً في شتاء العام 1961. وكانت باريس تنتظر في «محطة الشمال»، هي وروائح التبغ والرذاذ النازل من اللوحات أو صفحات الكتب. لقد نسيت الآن كيف يكون المرء في العشرين، لكنني لم أنسَ كيف كانت باريس ذلك المساء وقد تدافعت نحو نفسها تحت المعاطف، فرحت أُهرول معها، هكذا، إلى باريس. إلى المدينة التي تفاجئ نفسها كل يوم، بروعة ما مضى وجمال ما كان.

لقد جئت إلى هنا، في العشرين، كي أصنع أدبي، وأكتب شعري، وأرى حريتي، وأخلط حزني بشيء من الفرح. لكنني فوراً نسيت كل شيء. ورحت أعيش بين الكتب. وصرت مثل الكتب، أعرف كيف أعيش منزوياً في الغرف الصغيرة، وأظل أرى الضوء في الغرفة المعتمة، وصرت مثل باريس في الكتب، أشبع دون أن أتناول طعام الفطور. أو الغداء. أو أحياناً العشاء كذلك. كم كان شاباً ونبيلاً ومتسامحاً فقرُ تلك الأيام.

لقد علمتني باريس، بسرعة هائلة، كيف أحمل الرغيف النحيل الطويل في المساء وأعود به إلى غرفتي، حيث لا شيء سوى الغرفة وهو. وبسرعةٍ علمتني أن المائدة الهائلة هي تلك التي تمتدُّ من الضفة اليسرى إلى الضفة اليمنى، كتباً قديمة وكتباً حديثة وكتباً معاصرة وكتباً فقدت أغلفتها من كثرة ما قُرئت ولا تزال تُقرأ وقد محي كل شيء. لقد كتب السين مجلداته، وعلّقها عند هؤلاء البائعين. ومضى.

لكنني كنت أعرف مكاني جيداً. وكنت أعرف خريطتي مثل الجنادب: الذين في العشرين لهم الضفّة اليسرى، الذين يعودون مع أرغفتهم وكتبهم المستعارة من المكتبة العامة، لهم الضفّة اليسرى. الذين في العشرين ولهم الضفّة اليسرى، لهم باريس كل باريس.

كانت لنا باريس. نملكها إذا ملكنا ثمنَ فنجان القهوة على الرصيف أو تذكرة «المترو» إلى حديقة «التوييري» بعد ظهر يوم أحدٍ مليء بالحرية وعابق بالصبايا. كان هناك، في تلك الأيام، مدينةٌ تمنح حدائقها ومتاحفها وجدرانها العتيقة للشبان القادمين من كلِّ البلدان، لكي يصنعوا بها ذكريات ويحولونها فيما بعد، كما حوّلها هنغواي، إلى «مهرجان متنقل» تأخذه معك إلى كل مكان. مثل طفولتك أو صباك.

كانت لي، في «الحيّ اللاتيني» غرفةٌ في حجم السرير. وكان فيها سرير، كانت فيها مغسلة، وكانت لها نافذة، والنافذة كانت تطلُّ على الحيّ اللاتيني. على حديقة اللوكسمبور، على بلاط السان جرمان، على السين في أيام النزهات والحكايات، على المقاهي التي يمضي بها فيها الفرنسيون العمر وهم يجادلون ويحركون أيديهم في الهواء، وينفخون التبغ الأسود، ويناقشون غلاء النقل وفظاعة المعيشة وكتاب جان بول سارتر الأخير.

أي كتاب أخير؟ أم أول، أم متوسط. إنهم الفرنسيين الشعبُ الوحيد فوق هذا الكوكب، الذي يمكن أن يتظاهر، وأن يبث الفوضى، وأن يتحوّل إلى رعاع أفظاظ، من أجل أديبٍ، أو من أجل كتاب.

كنا ذات يومٍ نتناول طعام الغداء في «الكوبول» عندما مرّت بنا جنازة كبرى. كنا يومها ثلاثة، الروائي إلياس الديري والشاعر أنطوان بارود، وأنا. وقال لنا النادب وكأنه يكمل حديثاً سابقاً: هل رأيتم تلك العربة وهؤلاء الناس؟ هل لاحظتم القبعات القماشية السوداء؟ إنهم يرافقون سيمون دو بوفوار في الوداع الأخير!

لقد شهدنا دون أن ندري كلمة «الخاتمة» في الفصل الأخير من حكاية رائعة اسمها «الحيّ اللاتيني»؛ وكانت جنازة سيمون دو بوفوار آخر تظاهرة أدبية، في هذه المجموعة من الأزقّة والجادات والشوارع التي عُرفت باسم «الحيّ اللاتيني». «المجمَّع» الذي يضم «السوربون» ومسرح «الأوديون» وبولفار «السان جرمان» الذي شهد خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها أضخم وألمع ثريا أدبية عرفها الغرب خلال حقبة واحدة.

هنا في هذه المقاهي، أو بالأحرى من هذه المقاهي، أعطت فرنسا إلى العالم أسماء مثل جان بول سارتر وألبير كامو وفرنسوا ميتران ورينه كلير وآلان رنيه وبوريس فيان وجان كوكتو وجولييت غريكو والزائر أندريه مالرو. هنا دارت أكبر مجادلات العصر بين الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة. هنا، قبل نصف قرن، اختلف جان بول سارتر وألبير كامو حول شيء اسمه الشيوعية! قبل أن تختلف هي مع نفسها بزمنٍ طويل.

كان الموكب الذي سار وراء سيمون دو بوفوار على بولفار «المونبارناس» هو التظاهرة الأدبية الأخيرة على ضفاف الحيّ اللاتيني. تلك كانت التظاهرةَ الهادئة. لكن أهل الحيّ اللاتيني كانوا قد بعثروا الأرض قبل

ذلك بأعوامٍ وهم يودِّعون، في نيسان 1980 الرجل الذي أعطى دمغته للضفة اليسرى من السين أكثر من أي فرنسيٍّ آخر، الرجل الذي جعل من المقهى جامعة ومن الرصيف منتدى.

مات جان بول سارتر بداء النزلة الصدرية في إحدى مستشفيات «المونبارناس». وقبيل جنازته بقليلٍ شوهدت امرأة متّشحة بالسواد وتحمل وردةً واحدة بين شفتيها تقف عند باب المستشفى. وما إن خرجت العربة التي تحمل النعش حتى كان عدد المنتظرين عند الباب قد ارتفع إلى عشرين ألفاً، ثم إلى خمسين ألفاً، فيما كان ملايين آخرون يطلّون من الشرفات، أو يتسمَّرون إلى شاشات التلفزيون. وبعد قليلٍ جاء يلقي التحية الأخيرة رجلٌ عُرف عنه عداؤه الشديد للفقيد. كان اسمه يومها الرئيس فاليري جيسكار ديستان!

منذ أن جاء إلى الحيّ اللاتيني هارباً من معسكر اعتقالٍ ألماني في العام1941 حتى وفاته في العام 1980، تعامل رؤساء فرنسا مع سارتر على أنه صنوهم الأدبي. وكانوا جميعاً يكرهون ميله الطبيعي إلى التطرُّف، تماماً كما كان أصدقاؤه يكرهون ولعه بالمشاغبة، لكن من ديغول إلى ديستان، كانت معاملة سارتر معاملة الندّ الآخر، الرجل الذي يشارك ـ على طريقته ـ في صنع مجد فرنسا. أما هو، (سارتر)، فكانت عقدته أن شارل ديغول اختار إلى جانبه منذ البداية، لامعاً فرنسياً آخر هو أندريه مالرو.

فرَّ سارتر في آذار 1941 إلى باريس، فوجدها مفرغة من الكبرياء التي تعرفها العواصم. كان القصر الجمهوري خالياً وكذلك الجمعية الوطنية ومجلس الشيوخ. وكانت القوانين يومها تصاغ في «فيشي» في

الأوفيرن. ولم يعدْ شعار الجمهورية: حرية مساواة إخاء، بل قامت مكانها دولةٌ أخرى ترفع شعار العمل والعائلة والوطن! إنها الفاشية في أحلى رموزها.

ترجّل سارتر من القطار في «محطة الشرق» فوجد المدينة قفراً من السيارات والناس. لم تكن باريس مهزومة، لكنها كانت في حالة استسلام. وحين دخلت جيوش هتلر إلى ساحة قوس النصر في العام 1940 واجهت المقاومة الوحيدة من حارس نصب الجندي المجهول ورئيس قدماء المحاربين (الحرب الأولى). فقد أقدم الرجلان (وكان الأول مقعداً) على إضاءة شعلة الجندي المجهول، وراحا ينشدان «المارسييز» ويبكيان.

على ذلك، أصبحت باريس إلى حين، الأنموذج الذي طرحه الألمان للعالم عن «تسامحهم» وانفتاحهم. وصار في إمكان الإعلام النازي أن يدّعي أن باريس صنعت أفلاماً ومسرحيات خلال الحرب أكثر مما فعلت خلال السلم، وأن «عدداً أيديولوجياً مثل جان بول سارتر شجع على أن ينشر مسرحياته». غير أن تلك المسرحيات كانت في حقيقتها أحد وجوه المقاومة ضدّ الاحتلال. وسوف يقول سارتر بعد سنواتٍ: إن «الجبان هو الذي يصنع من نفسه جباناً، والبطل هو الذي يجعل من نفسه بطلاً». وكان سارتر واحداً من 70 ألف فرنسي استطاعوا الفرار خلال الحرب. وأحد الذين استطاعوا الفرار ذلك العام أيضاً كان الرقيب فرنسوا ميتران.

اتخذ سارتر لنفسه غرفةً في «الأوتيل ميسترال» إلى جانب غرفة سيمون دو بوفوار، المرأة التي تصغره بثلاث سنوات، في الحياة وفي الموت. لكنه بعد قليلٍ سوف يكتشف أن الحضور الألماني الكثيف في «المونبارناس»

يحمل المثقفين على الابتعاد نحو أزقّة السان جرمان الضيقة. وإلى مقاهيها الرخيصة. وقد سبقه إلى «فلور» الشاعر جاك بريفير الذي كانت له طاولته الضاحكة أبداً، وسبقه إلى «الدوماغو» شعراء الشريالیه قبل الحرب وفي طليعتهم «غيوم أبولينيز» وأندريه برتيون.

لكن هنا، في «الفلور» سوف يلتقي ذات مساء شاباً في التاسعة والعشرين من العمر يدعى ألبير كامو! كان سارتر قد كتب، في العام 1942، نقداً لكتاب كامو «الغريب» في مجلة «دفاتر الجنوب»، فيما كان كامو يمضي مدة نقاهة من مرض السلّ في جبال فرنسا الوسطى. ولم يعجب ذلك النقد كامو كثيراً، فقد عدّه سارتر مجرد «وجودي» آخر ينضمُّ إليه، وهي صفة اعترض عليها كامو طوال عمره، لكنها التصقت به التصاقاً! غير أن كامو، وهو يصافح الآن هذا الفيلسوف الشهير، لم يكن يهمّه كثيراً ما يسميه، إنه مجرد صحافي مجهول قادم من الجزائر إلى أضواء باريس الخافتة آنذاك. كان كامو مريضاً وفقيراً يعيش من مساعدات رفاقه في المقاومة. لكنه كان أيضاً نقيض سارتر: كان هو الرجل الوسيم في مواجهة الفيلسوف الذي طالما كتب أنه يكره وجهه وطفولته!

بعد سيمون دوبوفوار، كان ألبير كامو أفضل هدية يمكن أن يتلقاها جان بول سارتر من السماء. إنه «الضد» الآخر، الذي زاد من وهج الإطار الضوئي حول سارتر. إنه الظل الذي يتمناه ويكرهه في وقتٍ واحد. لطالما كتب سارتر عن طفولته وعن بشاعته التي كانت جزءاً ناتئاً من «وجوديته»، وهاهو الآن يعثر على هذا الفقير الوسيم القادم من الجزائر ومن عمق «البروليتاريا»، أو الهاجس الذي سيطر على الفلسفة الساترية أكثر من أي شيءٍ آخر.

لقد ولد ألبير كامو ونشأ في حيٍّ شديد البؤس من أحياء «وهران» الجزائرية. ولذلك سوف يرفض - في نقاشات العام 1952 التي أدّت إلى الفراق الأخير بين الرجلين - الأنموذج البروليتاري الذي صنعته مخيلة سارتر، مستعينة لماماً بواقع البروليتاريا الحقيقي.

ماذا كان ردّ سارتر؟ لقد ألصق به تلك التهمة التي كان يعدها الأكثر تحقيراً حين وصف كامو بـ«البورجوازي»! لقد نشأ الاثنان في بؤسٍ مشابه تقريباً؛ فقد كان كامو في السنة الأولى من عمره حين قتل والده في معركة «المارن» في العام 1914. وهكذا صار أمر تربيته لجدّته التي قيل: إنها كانت تضربه بالسوط لأقل حركةٍ يأتي بها، فيما كانت أمه تتوسل إليها «ألا تضربه على رأسه أو فوق العنق».

ومع ذلك أحبَّ كامو طفولته بعكس سارتر. بل ظلّت تلك الطفولة المعذّبة في شوارع وهران الجميلة، الملجأ الذي يهرب إليه عبر الذاكرة من كل العذابات اللاحقة. وقد وصفه أحد الصحافيين الذين عملوا معه في صحيفة «كومبا» بأنه «ليس رجلاً بسيطاً، بل في حنينٍ دائم إلى البساطة».

التصقت صورة كامو وسارتر في أذهان الناس وكأنهما توأم من رحمٍ. لكن الحقيقة كانت خلافاً لذلك: أحدهما كان المتوسط، بكل شمسه، والثاني كان «السين» والضباب وهذا اللون الرمادي المبلّل بالمطر الذي تطالعك به باريس لحظة تصل إليها من «محطة الشرق» أو«محطة الشمال» إلى بوابة أُخرى من بواباتها العتيقة المزدحمة بالمشردين والحالمين والسكارى.

على الرغم من التباعد في السنين، فاز كامو وسارتر بجائزة «نوبل» للآداب. وقد رفض سارتر الجائزة لكي يثير حوله، كالعادة، عاصفة كبرى. أما كاموفقد أهدى الجائزة إلى أُستاذه في المدرسة الابتدائية وفاءً للرجل الذي بسببه استطاع الحصول على منحة للدخول إلى المدرسة.

ردّة الفعل هذه تصور، إلى حدٍّ بعيد، الفارق في الطباع بين الرجلين: واحد مليء بالرومانسية الوجودية إلى درجةٍ أنه لا يتذكّر مع «نوبل» سوى أُستاذ المدرسة الابتدائية، وآخر يتعالى على أهم جائزة أدبية في العالم؛ لأنها «بورجوازية» ودون منجزاته الأدبية.

لا علاقة إذن للصور بالحقيقة، للآخر بالآخر، للضدّ بالضدّ. لكن في مراحل كثيرة، منها هذه المرحلة، كان الحيّ اللاتيني عبارةً عن مجموعة من المصابيح والأضواء القائمة إلى جانب بعضها بعضاً. في صفٍ طويل وإن يكن غير متناسق. وكان ذلك زمن الحرب، والحرب كانت المقاومة، والمقاومة كانت... أو بالأحرى سوف تصبح، هي فرنسا.

مَن لم ينتسب إليها لم يكن له شرف الانتساب إلى فرنسا. وكان كامو طبعاً أحد ألمع أبطالها. وكان سارتر يحسده على ذلك إلى درجة تمنّى معها أن يصبح كاتباً عادياً في «كومبا». لكن دور سارتر (أو «ميرو» كما كان اسمه الحركي) في المقاومة ظلّ ضئيلاً فيما لمعت أسماء كثيرة بينها آنذاك لويس أراغون، الذي سيكتب لزوجه الروسية الحمراء الشعر «السا تريوليه» مجموعته الشهيرة «عينا السا».

الوحيد الذي رفض المقاومة وذهب إلى الجانب الآخر كان جان كوكتو. وقد أثار كوكتو فضيحة هائلة حين ذهب ذات مساءٍ لحضور حفل الافتتاح لمعرض النحات «أرنو بريكر» في المعهد الألماني، وهو الحفل الذي حضره

«غورينغ» أيضاً. وكان بريكر قد لعب دور الدليل الشخصي «للفوهرر» خلال زيارته القصيرة إلى باريس، كما أنه كان على علاقة فضائحية مع كوكتو قبل أن يصادق هذا الممثل الشهير جان ماريه في علاقة فضائحية هي أيضاً.

لفرنسا موقف غريب تجاه أُدبائها وشعرائها. وقد غفرت لكوكتو ما لا تغفر لغيره. وبعد ذلك أدخلته «الأكاديمية» المخصصة «للخالدين»، هو وجان بولان؛ رمز المقاومة خلال الحرية. وحتى سيمون دو بوفوار التي كانت مهنتها الأولى إعطاء شهادات السلوك لرفاق سارتر ومعاصريه وجدت سلوك كوكتو خلال الحرب بأنه «شاعري».

وسوف يروي كوكتو بعد عقدين تقريباً أن أرنست همنغواي قال له ذات يوم: «غير معقولة فرنسا، غير معقولين أولئك الفرنسيون. إنكم شعبٌ محظوظ حقاً. ففي أميركا لا يعدّ الكاتب أكثر من دلفين حسن التدريب أو مهرجاً. لكنكم هنا تحترمون الفنانين بحيث إنكم عندما قلتم «حذارِ، إن جينيه (جان) عبقري وكاتب كبير» لم يجرؤ القضاة على إصدار حكم عليه...!

كان جان جينيه لصاً محترفاً ولوطياً شهيراً. غير أن سارتر حوّله إلى أحد الوجوه الأدبية في «الفلور» مع أن الكثيرين كانوا يكرهون هذا الحضور المزدوج. وسرعان ما تبنى سارتر جينيه في شلته التي أصبحت تضم الآن أيضاً الشاعر والمغني الرقيق «مارسيل مولودجي»، الجزائري مثل كامو. لكن ساعة الافتراق بين كامو وسارتر كانت قد حانت، وفي شلال الحقد الدافق عند سارتر، أطلق على تلميذه لقب «حمار فلسفي»؛ إذ بين مجموعة العقد عند الرجل الذي شغل حياة فرنسا الأدبية طوال نصف قرن، كانت عقدة أُستاذ المدرسة!

في 24 آب 1944 كتب كامو وفي صحيفة «كومبا» أن «باريس تطلق رصاصها في ليل أُغسطس. وفي هذا الإطار الرائع من الحجارة والمياه تقام متاريس الحرية مرّة أخرى حول النهر المتدفّق بالتاريخ. مرّة أُخرى لا بدّ للعدالة من أن تُشرى بدماء الرجال».

كانت باريس تبتهج بنهاية الاحتلال، لكن أيضاً على طريقتها. فقد قرّر الألمان الخروج من المدينة سلماً كما فعل الفرنسيون قبل أربع سنوات. والحلفاء الزاحفون على فرنسا تركوا باريس إلى النهاية؛ لأنه لم تكن لها أي قيمة عسكرية. وكان الألمان قد رفضوا أوامر الفوهرر بإحراق المدينة الجميلة من فوق سطح الأرض، وهاهم يتراجعون، ولا يريدون أكثر من حماية الانسحاب. لكن الديغوليين والشيوعيين والسياسيين الآخرين كانوا يبحثون عن الانتصار ومن أجل الانتصار كان لا بدّ من معركة؛ معركة التحرير.

الواقع أنها كانت معركة التحرير من عقدة الذنب. وهكذا سقط قرابة ألف قتيلٍ في عملية تشبه الألعاب النارية. وبعد نهاية الحرب بدأت فرنسا تعيش في معاناة ما بعد الحرب وبؤس ما بعد الحرب. وسوف تتذكّر «سيمون سينيوريه» فيما بعد أن أفضل ما استطاعت الحصول عليه لوليدها الجديد كان قطعة من معطف لجندي ألماني. فقد كانت باريس – التي تصدِّر الأزياء إلى العالم – ترتدي كلها الثياب الكاكية الفاضلة من الجنود، فرنسيين أو ألمان.

وبقي سارتر وشلته في مقهى «فلور». وشيئاً فشيئاً أخذ يصبح في شهرة فيكتور هوغو وألكسندر دوما. وقالت فرانسواز جيرو: «إنه أصبح أكثر شهرة من غريتا غاربو». ولم تعد «الشلّة» محصورة في الأدباء

والفلاسفة بل صار مقهى «فلور» يصنع النجوم أيضاً. إنهم النجوم الذين سيطبعون بمزاجهم وأشكالهم الخارجية وأسلوبهم في الحياة مرحلة ما بعد الحرب. ولن تبقى «الوجودية» في الكتب والمجلات، بل سوف تسدل شعرها الأسود الفاحم الطويل، وتنزل إلى الأقبية.

كانت جولييت غريكو «معدمة وجميلة»، تماماً مثل تلك الحقبة. وفي مذكّراتها تصف غريكو الناس في تلك المرحلة وكأنهم أكبر حجماً من الحقيقة: «إن التقاء كل هذه المواهب المتنوعة والمختلفة في هذا الحي يبدو مثل صدفة من صدف الأبراج».

لقد كان الأمر صحيحاً، على الأقل بالنسبة إليها. فتاةٌ في السادسة عشرة، ابنة شرطي كورسيكي يكبر أُمها بأربعين عاماً، تدخل إلى سجن «الغستابو» بسبب دور أُمها في المقاومة... ثم يُفرج عنها، فتأتي إلى حيث كانت معلمة شقيقتها تمتلك بيتاً للطالبات في الحيّ اللاتيني. بعد قليلٍ سوف تصبح هي عشايا الحيّ، وتروح باريس تردِّد أُغنياتها، وتحاول أن تكون لها - مثل غريكو - حنجرة مجروحة الأوتار، ملوثة بتبغ الأقبية الأسود.

حين كنت أنزل من الغرفة الصغيرة الضيقة كل يوم، في الصباح أو في المساء أو الظهيرة، كنت أسير في الطرقات كمَن يسير بين رفوف مكتبة عامة. كل اسم في كل زاوية له تاريخ أدبي، وكل مقهى تدخل إليه كان أشبه «بالسين»... كومٌ من التاريخ لا تبالي ولا تدري أنَّها التاريخ! وكانت الحقبة الجميلة في الحيّ اللاتيني حقبة السينما: الناس إما ذاهبة إليها وإما تتحدَّث عنها. وهنا، في «الروجاكوب»، على رصيف «المقهى

الأخضر» كانت جولييت غريكو تجلس وتناقش في آخر الإنتاج السينمائي. ومن هذا النادي سوف ينطلق فيما بعد مخرجون مثل روجيه فاديم وآلان رينه، الرجل الذي أطلق «الموجة الجديدة».

كانت فرنسا ـ والعالم ـ لا تزال تتأثَّر بكل شيء. وكانت الناس لم تفقدْ مشاعرها بعد. وكانت للأشياء معانيها الحقيقية وأحجامها الحقيقية. ولذلك كانت السينما هي أيضاً تناقش «الحالة البشرية» أو «الوضع البشري» الذي جعله أندريه مالرو عنوان الحقبة، حقبة الجدل ومساءلة الأشياء بعد الحرب التي ربحتها فرنسا دون أن تربحها. كذلك كان المسرح هو أيضاً مسرح النقاش، مسرح العمق. والذي أطلق سارتر فعلاً كان الخشبة التي شاهدت عليها فرنسا «الذباب» و«الجرذان».

في مثل هذا الجوّ - حيث يتحوّل كل شيء إلى أدبٍ كما يقول غارسيا ماركيز - تحولت جولييت غريكو من مراهقة تبحث عن أمها، التي ذهبت كضابط بحريٍّ إلى الهند الصينية، إلى جزءٍ من الحالة الأدبية السائدة في الحيّ اللاتيني، فور أن قدّمها إلى سارتر المسيو موريس ميرلو بونتي، رئيس تحرير «الأزمنة الحديثة». وكان سارتر يحبُّ رفقة النساء، فقط. وكان يتباهى بالقول: «إنهن يعشقن محادثتي». ولذا ظل معظم حياته على علاقةٍ واحدة بسيمون دو بوفوار التي بدأت في هذه المرحلة معركة «تحرير المرأة» بإصدار كتابها «الجنس الآخر».

غير أن فرنسوا مورياك لم يرَ في الكتاب أكثر من محاولة لتبرير سلوكها الشخصي. وكتب يومها رسالة إلى إحدى العاملات في «غاليمار» يقول فيها تعليقاً على الكتاب: «إننا نعرف الآن عن رحم السيدة دو بوفوار

ما لم نكن نريد أن نعرفه قط». فالواقع أن الموجة الوجودية التي ستتحول إلى موجة انحلالٍ عامة في «التابو» وغيره كانت تقابلها في فرنسا موجة محافظة أيضاً. وحتى بوريس فيان، أحد رواد الحيّ اللاتيني وأحد ألمع وجوهه، سوف يقف معترضاً على هذا الانهيار، فاختار أن يناقض «العلاج» السارتري بالقول على لسان أحد أبطاله في رواية «الخريف في بكين»: «كف عن الشعور بأنك مسؤولٌ عن هذا العالم. إنك مسؤولٌ جزئياً عن نفسك، وهذا يكفي».

وقد كان تأثير سارتر في الشبيبة الفرنسية الموضوع الذي تدور حوله أفضل روايات فيان «زبد الأيام». وتروي القصة حكاية فيلسوف يدعى «جان بول سارتر» يُقتل ويُمزق قلبه بينما هو يكتب في مقهى! كذلك كتب فيان إلى مجلة «الأزمنة الحديثة» فقط لكي يسخر من جدية سارتر ودو بوفوار ورئيس التحرير ميرلو ـ بونتي، وكان يخلط أسماءهم بالحديث عن «ميلوار دو بوفارتر» أو «بونتارتر دو ميرلبوفي» الذي وصفه بأنه قادرٌ فقط على وضع المقالات السخيفة.

انتهت حياة فيان الزوجية بسبب الخلاف حول سارتر. وهجرته زوجه «ميشال» ليس «من أجل الانضمام إلى سارتر بقدر ما هو من أجل الانضمام إلى شلّة سارتر»! وكان الطلاق رمزاً لما كان يحدث في الحيّ اللاتيني من صراعٍ فكري وسياسي وزعزعة عاطفية.

وفي هذا الوقت كانت حدّة الحرب الباردة ترتفع، وكانت فرنسا تنحدر إليها بسرعة. وحين أُعلنت الحرب الكورية في العام 1950 حصل التجاذب النهائي والانشقاق المطلق بين الشيوعيين بزعامة أراغون وبين

الديغوليين بزعامة أندريه مالرو. وقد التفّ أُدباء فرنسا وفلاسفتها حول كلٍّ منهما وفقاً لأهواء كل أديب... باستثناء سارتر وكامو اللذين بقيا في حالة «عوم» سياسية إلى حين وقع خلافهما النهائي في العام 1952، وهو الخلاف الذي سيبعثر اليسار الفرنسي إلى غير عودة.

لقد تحوّل الاشتراكيون بعد ذلك إلى مجموعة من «النوادي» التائهة، فيما أبحر الحزب الشيوعي مشرِّعاً أفكار يوسف ستالين إلى أن وصل إلى أعلى منصب فيه آخر ستالينيي هذا العصر؛ جورج مارشيه، بينما تحوّل زعيم الاشتراكية الفرنسية فرنسوا ميتران من «لاجئ» في الضفة اليسرى و«البراسيري ليسب» قبالة «الفلور» إلى كبير السكان في قصر الإليزيه، خلفاً للرجل الذي عارضه طوال حياته من على الضفّة اليسرى. وكان اسم هذا الرجل شارل ديغول.

كنت أُشاهد فرنسوا ميتران باستمرارٍ كل يوم، كان لا يزال مرشحاً أزلياً للرئاسة. وكنت، بغباء رومانسي شديد، أعتقد أن فرنسوا ميتران لن يصلَ أبداً إلى الرئاسة، ولن يجلس أبداً في كرسي شارل ديغول، ولن ينام ليلةً واحدة، هو الاشتراكي المليء بالمرارة، في سرير فرنسوا الأول.

غير أن هذا جهل بكيمياء فرنسوا ميتران وبالمزاج الفرنسي، بالطبع الفرنسي، بالريح التي تعصف فجأةً في عقل الفرنسي وحواسه ومسامه، فينقلب من ديغولي متعصب إلى معارض متصلب للديغولية إلى اشتراكي، إلى شيء آخر غداً.

إلّا أن أهمية الحاكم الفرنسي - سواء أكان ديغولياً مثل شارل ديغول أم ميترانياً مثل فرنسوا ميتران - هي أنه يرى ذروة الحكم لا في ذروة السلطة بل في مدى الارتباط بالحركة الأدبية والفنية في فرنسا: بسبب

كونها أديبة جابهت امرأة ذات أصولٍ ألمانية الكورسيكي نابليون بونابرت. وسرّ شارل ديغول أنه عثر منذ البداية على رجلٍ يدعى أندريه مالرو، وإلى الآن لا يزال وزير الثقافة، لا وزير الداخلية، هو الذي يثير الضجيج.

كنت كلما حاولت العثور على المسيو فرنسوا بصفته مرشحاً، من أجل مقابلةٍ ما، «للنهار» وبعدها «للمستقبل»، كنت أعرف، مع زميلي أنطوان بارود الذي كان يقوم بدور «المصوِّر»، أن أبسط طريقة لرؤية المسيو ميتران هي إما أن يكون خارجاً من نقاشٍ إذاعي في «أوروبا الرقم واحد» وإما من ندوةٍ صحافيةٍ في «النوفيل أوبسرفاتو» التي ظلت منتداه حتى دخول الإليزيه.

إلى حدٍ بعيد، يمكن القول: إن فرنسوا ميتران جاء إلى الإليزيه من الحيّ اللاتيني. لا مغامرة كبرى في هذا القول. فالحي اللاتيني هو الذي قام أيضاً بإسقاط شارل ديغول في الحركة الطالبية التي قامت في العام 1968. وقامت كلها تحت نافذتي، وجعلت غرفتي الصغيرة تمتلئ بالغاز المسيل للدموع. ويومها كان لي أن أكتب «للنهار» رسائل مثيرة حول الطلاب وبلاط الشوارع الجميل الذي اقتلعوه لكي يرشقوا به رمز شارل ديغول. لكنني كنت أشعر أيضاً أنهم يرشقون فرنسا. وحين شاهدوا فرنسوا ميتران ذات مرّةٍ يدخل إلى «البراسيري ليسب» حاولوا معاملته، هو أيضاً، كمجرد «بورجوازي» لا بدّ من اقتلاعه.

وفي الظل، كان دائماً رجل مهووس بالضجيج، في نفسه، حوله، في كلِّ مكان كان هذا يدعى جان بول سارتر.

«لم يكن كل شيء ضاجاً أو صاخباً في الضفّة اليسرى». فقد كانت قد بدأت تطلُّ على الحيّ، أو تنبع منه، «الموجة الجديدة» في السينما، وعليها مسحة من الهدوء والصمت والسكينة. وكنّا ننزل إلى «الأستديو»، أي: دار

السينما في شارع «المسيو لوبرانس» أو على بولفار السان جرمان، ليس من أجل مشاهدة الصور المتحركة بل، كما تفرض الموضة، من أجل الانغماس فيها. كان لا بدّ من أن تعرف ما يعني فرنسوا تروفو بحركة الضوء، وما يقصد آلان رينه.... بالانقطاع عن السينما، وما يريد فيلليني دائماً، ما يريد فيلليني.

غالباً، أكثر الأحيان، دائماً، كنت أتسلل «خفيةً» إلى دور السينما المهجورة التي بطلت «موضتها» لكي أشاهد مخرجي المفضّل الكلاسيكي رينه كلير. وكانت قد قامت علاقة «خاصة» بيني وبين رينه كلير، بعدما أجريت معه مقابلة مطوّلة خلال زيارة له إلى بيروت، وأخذت منذ ذلك الحين أشاهد أفلامه الجميلة بعينٍ أكثر وعياً، دائماً بالكثير من الدفء.

كانت لرينه كلير – في الأفلام بالأبيض والأسود – «باريسه» الخاصة. وكانت غالباً مثله، طيبة وبسيطة ومرحة. وبعكس «الموجة الجديدة» كان أبطاله دائماً على عجلٍ، ولا وقت لديهم للفلسفة أو للتأمُّل.

وكانت هناك دائماً وسيلة للخروج إلى المشهد التالي أو حتى إلى الخاتمة: السجن، الأوتوستراد أو حتى الانتحار. لكن لا. هنا تصل دائماً فتاة في ثوب أسود قاتم لكي تنقذ الموقف. وفي النهاية يغني الجميع، بما في ذلك رجال «الكونسييرج» الذين لا فرنسا هناك دونهم، فرنسا دون «كونسييرج». أو دون حساء. فقد قال شارل ديغول لوزير ماليته جيسكار ديستان على العشاء ذات مرّة: فاليري، كيف تريدنا أن نصنع مجد فرنسا إن كنت لا تحبُّ الحساء؟

حتى رجال الشرطة Les agents بدوا أُناساً طيبين عند رينه كلير! أما إطار الفيلم فكانت له دائماً أُصولٌ أساسية: العليّة ذات النافذة المؤدية

إلى السقف، سطوح باريس المتشابكة المتلاحقة، المداخن السوداء، الدرج المؤدي إلى الطابق السابع، والمقهى المشع الأنوار، المضاء طوال الليل، وقبالة الشارع المظلم إلاّ من بعض الأشعة التي تلمع فوق بلاطه.

كان رينه كلير شاعر ليل باريس، حين كان ليل باريس لا يزال في متناول الجميع! الرجل الذي صوّرها كما هي، غرفٌ صغيرة فوق السطوح، أو «جوجو المرعب»، أو السهارى الذين تراهم دائماً في مقاهي الليل وقد انتظمت أناقتهم وقيافتهم في الواقع كما في أضواء رينه كلير، الرجل الذي نزل مع كاميرته إلى «الهال»، سوق الخضار، حيث كان نصف سحر باريس.

التقيت سعيد فريحة في باريس المرّة الأولى في العام 1961، وكنت في العشرين من العمر، ثم التقيته مرّة أُخرى في العام 1973. وقلت له يومها: هل نحن نتغيّر أم باريس تتغيّر؟ وقال لي وهو يرمي سيجارة ليُشعل أخرى: هي ونحن!

كنا نتحدّث في ردهة الفندق الذي يقيم فيه الرئيس تقي الدين الصلح، في فخامة وأُبهة الضفة اليمنى وبعيداً عن الحيّ اللاتيني الذي أصبح الآن للطارئين والمقيمين والمستجدين، مجرّد صورة في إطار معلّق على الجدار، صورة الذكريات وإطار الذكريات وجدار الذاكرة.

لقد عاش الحيّ اللاتيني حقبته في الحيّ اللاتيني، وهي مرحلة لا يعيدها أحد وإن استعادها أهل الكلمة في كلّ الأرض. ومن الصعب على أيٍّ كان أن يحدد متى بدأت ومتى انتهت. ولعلني من قبيل التبسيط الشديد قلت سابقاً: إنها انتهت مع العربة التي حملت نعش جان بول سارتر. ربما تكون انتهت قبل ذلك، ربما انتهت في أوائل الستينيات حين فقد الحي

أندريه باذان وجيرار فيليب وموريس ميرلو بونتي. أو ربما انتهت يوم مات كامو في حادث سيارة عبثي وهو يجلس إلى جانب الناشر ميشال غاليمار، وفي حقيبته مسودة كتابه الأخير وعنوانه، للمفارقة «الرجل الأول».

كانت تلك اللحظة الوحيدة التي تصالح فيها سارتر مع صديقه القديم، فكتب يرثيه قائلاً: «في هذا القرن ، وفي عكس التاريخ، كان يمثل الإرث الراهن لسلسلة طويلة من الأخلاقيين الذين تشكل أعمالهم كل ما هو أصيل في الأدب الفرنسي!».

أو ربما انتهى الحيّ اللاتيني يوم تحوّل لويس أراغون من عاشق ألسا إلى روائي يكتب في تساوي الحقد والعشق. وحين ماتت ألسا بعد أربعين عاماً من الزواج في العام 1970 أقام لها نصباً على مدخل المنزل. وظل أراغون في النهار أبرز وجه في الحزب الشيوعي. لكن باريس امتلأت بالهمس حول حضوره الليلي في مقاهي اللوطيين! وقد بدأ الآن يأتي إلى «الفلور» المكان الذي طالما لعنه بسبب سارتر؛ لأن المقهى أصبح ملتقى هؤلاء. وأثار ذلك الكثير من الأدباء، وقالت «مارغريت دورا» بعدما سمعته في لقاء تلفزيوني: إن كلامه «كان يبعث على التقيؤ، كان وجهه قناعاً، كان مخيفاً، كان يكذب طوال الوقت، إنني أحتقره، إنه بطل قمامة».

لكن بالنسبة إلى امرأة واحدة لم ينتهِ الحيّ اللاتيني بعد، إنها فرانسواز ساغان التي بدأت حياتها بكتابة «صباح الخير أيها الحزن»، وفي جنازة جان بول سارتر كانت هي أكثر الملامح شهرةً بين الأحياء في أهل الحيّ.

الحيّ اللاتيني.

بيت على الميناء

ولدتُ في برشلونة. وقد يكونُ هذا تفصيلاً بسيطاً وغير ذي أهمية؛ لأن المهمَّ ليس أين يولدُ المرءُ بل أين يعيش. لكنني أيّها السادة ولدتُ وعشتُ في برشلونة. تصوروا أربعين عاماً يمضيها رجلٌ في هذه المدينة وحدها، هنا في هذا المنزل الباهت الألوان الذي تكاد جدرانُه تهوي كلما صفّرت باخرة، أو حتى كلما صرخَ بحّارٌ سكران هاتفاً باسم امرأة في ميناءٍ آخر.

إننا لا نعيشُ على حافةِ الميناء تماماً، إنما يفصلُ بيننا شارعان على الأقل، شارعان قذران طبعاً. لكن عندما يهبط المساءُ يبدو بيتُنا كأنه معلّقٌ على طرفِ البواخرِ الراسية، التي تعودنا النوم تحت وهجِ أضوائها، كالكلاب التي تتعود الخلود إلى الراحة بين الأقدام.

وفي الليلِ نسمعُ كل شيء، حوارَ البحارة وعراكَهم وعراك جارنا روبرتو مع زوجه، ونسمعُ صوت أبنائه وهم يستذكرون أشعاراً رديئة يرددونها بلهجةٍ تثير القرف.

لكنني لم أتذمّرْ في يومٍ من أي شيء. أقصدُ أنني لم أتذمّر علناً وبصوتٍ عالٍ، مع أنني غالباً ما فكرتُ في الانتحار وأنا أعودُ إلى المنزل متهاوياً من الإرهاق، لأرى نفسي ضمن هذا الإطار الذي يتكرر كل يوم، كل ليلة، كل صباح.

بلى، ذات ليلة باردة كنتُ أشربُ النبيذ مع بعض الرفاق بعد خروجنا من المصنع، وعندما خرجتُ عائداً (تعتعتني) نشوةٌ غريبةٌ ورغبةٌ جامحةٌ

في الصراخ. وعندما وصلت إلى طرف الشارع خطرَ لي أن أقفَ على رأس التمثال الذي لم أكلّف نفسي حتى الآن عناءَ السؤال عن اسم صاحبه، وأن أُلقي خطاباً صاعقاً أشتمُ فيه برشلونة والميناء وسكان الحيّ وربابنةَ البواخر الصدئة وبيتي ووالدتي وزوجي وأطفالي وكل العالم. على أنني تذكّرتُ فجأةً أنني سيلفيو الطيب، سيلفيو العاقل.

أجل. أنا هو سيلفيو الطيب. الجميعُ ينادونني هكذا. العجائزُ يتسابقن إلى إلقاء تحيّة المساء عليَّ، النساءُ يحسدن زوجي على امتلاكها لي. والرجال يقولون لوالدي: «رأينا سيلفيو العاقل هذا الصباح وسلَّم علينا. إنّك محظوظٌ فعلاً يا فاسكو...».

ويبتسمُ والدي بحزنٍ. هو يعرفُ سيلفيو جيداً. يعرف أنّه كلما صفّرت باخرة يتمنى سيلفيو أن يكونَ على ظهرها أياً كان مرساها المقبل، يعرف أن سيلفيو سجينٌ وحزينٌ ويكاد ينتحرُ من الضجرِ واليأس.

وهو لم يقلْ لي مرّة إنه يعرف. لم يمتلكْ بعد الشجاعة لأن يحدثني عن آلامي، ليقول لي إنه هو أيضاً أمضى حياته يحلمُ بامتطاءِ ظهور البواخر الراحلة والهرب من هذا المنزل وترك الميناء لمتحجري العقول والمشاعر. لكنني أشعر بذلك عندما يقبلني في جبيني. إنه يضع راحة يدهِ خلف رأسي ويضمني إليه كلّ مساء ويطبع قبلةً على جبهتي فيها كل الحكايات وكل الأحلام، تلك التي رآها وتلك التي يتمنى لي أن أراها ولو نائماً وسط صفارات البواخر، في المنزل المتداعي المطلّ على الميناء.

لو يعرفُ والدي أنني قبلتُ لقبَ سيلفيو العاقل من أجله وحده! لو يعرف أنني أكادُ أتهاوى تحت وطأةِ هذا اللقب، وأنني في كلِّ لحظة، كلِّ لحظة، أتمنى أن أدير ظهري للميناء وأقفز من الإطار! لكن ماذا سيقول الرجال إذا فعلتُ؟ إذا تركته وتركتُ أمي وأولادي وزوجي ورحلت؟ ألن يقولوا له: لقد خدعنا سيلفيو العاقل هذا. لقد خدعنا سيلفيو الطيب.

ألن يُحرمْ بعد ذلك النزول كل يومٍ بعد الظهر إلى المقهى، سلواه الوحيدة؟ ألن يُحرم الذهاب إلى بائعِ الصحف، لكي لا يسأله هذا: هل يكتبُ لك سيلفيو هذه الأيام؟ أين هو الآن؟

ووالدي يحبُّ بائعَ الصحف. لقد حاربا معاً في الجيش الجمهوري في جبهةٍ واحدةٍ ودخلا السجن معاً، وخرجا معاً أيضاً ليعودا إلى العيشةِ البليدةِ على الميناء، مستسلمَيْن لكلِّ شيء، لأي شيء، كاستسلام الصخور للأمواج، مثل استسلامي للقب سيلفيو العاقل.

تصوَّروا أربعين عاماً في ميناء برشلونة. في منزل واحد، ولدت فيه، وربيت فيه، وتزوجت فيه، ورزقت أولاداً وضعتهم أمهم على سريرِ والدتي القديم. وهم يكبرون يوماً بعد آخر، ويتحولون إلى وحوشٍ تتطلعُ إليَّ بتساؤلٍ وأحياناً بسخريةٍ أو بشفقة. وأنا، سيلفيو العاقل، أكتبُ لنفسي قصائد لا تذاعُ ولا تُقرأُ، كلُّ واحدة منها تبدأُ وتنتهي ببيتٍ واحد: أيتها الباخرة المبحرة، ليتني كنتُ خيطاً في شراعك أو كتلة دخانٍ أسود أوسخ العلم الذي ترفعينه.

لكنني كنتُ أنسى ذلك كل صباح. أستيقظُ وأستحم وأرسمُ ابتسامةً تقليديةً، وأرمي نفسي في الشارع، وأستقلُّ الأوتوبيس نفسه، وأشعرُ بأن جميع الناس من حولي تشيرُ إليَّ: هذا سيلفيو، سيلفيو العاقل!

وفي المصنع كنتُ أشعرُ بأن معظم العمال ينتظرونني لكي يلقوا عليّ تحيّة الصباح. كان بعضهم يحسدني وبعضهم الآخر يسخرُ مني بصمتٍ وبعض ثالث لا يصدقُ مظاهري، لكنهم جميعاً كانوا يُظهرون شيئاً من المودة لسيلفيو العاقل، النشيط، الذي ينتج برغياً كل دقيقة، حتى وهو يستمع إلى نكتة تافهة يلقيها زميل وسط هدير الآلات وتحت نظرِ المراقب.

وكان لكل عاملٍ قصة ومشكلة. إلّا أنا. كانت قصتي أكبرُ من أن تكون حكاية، كانت بداية قصيدة لا تكتمل. ولذا فإننا عندما كنّا نتجمّعُ في فرصة الساعة العاشرة لنشرب القهوة كانت أصوات الجميع تعلو، إلا صوتي. بل كان الجميعُ يوجهون حديثهم إليَّ: هل تعرفُ ما حدث أمس يا سيلفيو؟ هل أخبروك ماذا فعلت روزيتا؟ هل قالوا لك أين ذهب ريكاردو؟

وكنت أتظاهر بأنني أصغي. كانت لدي قدرة هائلة على الابتسام وعلى الإيحاء للآخرين بأن لا مشكلة لي غير مشكلاتهم، لكنني في الواقع كنت أفكّرُ في الميناء، في البواخر المسافرة.

أربعون عاماً أيّها السادة. الصباح مثل الظهر مثل المساء مثل فرصة الساعة العاشرة.

إلّا، ذلك الصباح!

تجمّعنا عند العاشرة في ساحةِ المصنع كما كل يوم، وتكوّم الجميع حولي كما كل يوم، وكنت مكوّماً على نفسي، كما كل يوم، لكنني رأيت بين الحشد عينين سوداوين تطلان وكأنهما آتيتان من خلف الميناء ومن خلف برشلونة ومن خلف العالم.

وشعرتُ بارتباكٍ حقيقي. شعرتُ كأنّ القصيدة اكتملت. ولاحظ الجميع ذلك، فاقترب زميل خبيث وقال بشيء من الانتقام: هل قدموا لك زميلتنا الجديدة، ماريا نافارو؟

لم أجبْ على الفور، لكنني مددت يدي إلى ماريا نافارو بحماسة مكبوتة، وقلت لها كلمات دون معنى، ورحّبتُ بها في المصنع. لا أذكرُ ما قلتُ ولا ما قالته ماريا نافارو، لكنني عندما لامستُ يدها شعرتُ أنني اكتشفتُ الميناء المقبل.

وعندما عدنا إلى هدير الآلات أخفقت في أن أنتج برغياً كل دقيقة. تعثّرتُ، تململتُ، تلوَّنتُ، وجلتُ بنظري في المصنع أبحثُ عن المكان الذي وضعوها فيه، لكنها لم تَبِنْ لقد وضعوها في مشغلٍ آخر. وخامرني شعورٌ بأنّ الكلّ عرفوا، الكلُّ عرفوا أن سيلفيو العاقل قد انهار فتآمروا عليه.

تلك الليلة مررتُ بالمقهى وسكرتُ. وراودتني للمرة الثانية فكرة الوقوف على رأسِ التمثال لكي ألقي خطبتي السريّة. ولحق بي ظلُّ ماريا نافارو إلى البيت المتداعي، وشعرتُ ووالدي يقبلني في جبيني بأنه سحب مني هذا السرّ أيضاً، سرُّ ماريا نافارو. وقبل أن أنام خرجتُ إلى الشرفة للمرّة الأولى منذ سنوات، وتطلعتُ إلى أضواءِ البواخر وشممتُ رائحة البحر، وخُيِّل إليَّ أنني أسمعُ همسَ الأسماكِ، تلك التي تحبُّ من تحبُّ أو تؤكل.

استفقت في صباح اليوم التالي، إذ كنت قد غفوت قبل المعتاد. حلقْتُ ذقني بعناية، غيرتُ الأوتوبيس الأغبر، ووصلتُ إلى المصنع قبل الجميع، ورحت أنتظرهم. رحتُ أنتظر أن تأتي ماريا نافارو. ولما أقبلت تظاهرت بأنني أتحدث مع رفيقٍ آخر، لا مع الجميع ، فابتسمت هي ومضت إلى مشغلها. ورحت أنتظر الساعة العاشرة، أتت، تكوَّم الجميع حولي، كوَّمتُ عيني حول ماريا نافارو، قلتُ لها، وأنا أتصنَّعُ الحديث إلى الآخرين، قلت لها كل شيء. كل شيء؛ حكاية الميناء ووالدتي وزوجي وأولادي وقصة أبي وقبلته على جبيني، وبدا لي أنّها فهمت، قلت لها بعيني، والعمال يحدثون سلفيو العاقل عن مشكلاتهم وهو يتصنَّع الإصغاء: اسمعي يا ماريا نافارو، إنني أحبك، وإنني سأرمي سيلفيو العاقل على الرصيف وأهربُ معك، سأتخلى حتى عن قبلة أبي من أجل قبلة على شفتكِ السفلى وحدها، وإنني يا ماريا نافارو أبيعُ كل الأساطير التي عشتها من أجلِ لحظة واحدة مع حقيقتكِ.

وخُيّل إليّ أنّها فهمت قبل انتهاء فرصة الساعة العاشرة، لكن سنةً كاملةً مرّت قبل أن أمسك ماريا نافارو بذراعها وأقول لها، لها بالذات هذه المرّة، ما قلته بعيني وأنا أتحدث إلى الرفاق، في فرصة الساعة العاشرة، كل صباح.

اليوم فقط، وقد أصبحتُ في الحادية والأربعين تماماً، اليوم بعدما احتفلتُ بعيدِ ميلادي في البيت المتداعي على الميناء، أمسكت ماريا نافارو من ذراعها في فرصة الساعة العاشرة، وسألتها إن كان في إمكاني أن أراها في المساء.

وقد انتظرتني ذلك المساء عند التمثال على طرف الشارع، وكانت الدنيا تمطرُ حبّاً وعيوناً سوداء من أجل ماريا نافارو، وكنت قد قررت أنني سأبيع العالم كله، وقبلة أبي على جبيني، ووالدتي وزوجي وأولادي والميناء، من أجل ماريا نافارو، أمسكتها من ذراعها وقلت لها: ماريا نافارو، هل تعرفين أنني أحبك؟

وصمتت قليلاً ثم قالت:

- هل تذكر ماذا كنت ترتدي أول يوم رأيتك فيه؟ كنت ترتدي سترةً بنيةً، وتدخن تلك السيجارة التي تبعثُ السعال.

ـ ذلك اليوم كنت أرتدي حبَّك يا ماريا نافارو.

- هل تذكر كيف ارتشفت قهوة الساعة العاشرة أول يوم رأيتك فيه؟ هل تذكر حرارة يدك عندما مددتها إليَّ؟

ـ كنت أمدُّ لكِ ماضيّ ومستقبلي يا نافارو.

- هل تذكر، أول يومٍ رأيتك فيه؟ كيف تحدّثت لرفاقك عن بيتك المتداعي على الميناء؟ كيف وصفت وقع صفارة الباخرة التي تأتي من مرسيليا في الثانية من صباح كل خميس، في أُذنيك؟

ـ كنت أحلمُ في أن أهرب معك إلى أول ميناءٍ يا ماريا نافارو.

- هل تذكر كيف تطلعت إليَّ عندما قُرع جرسُ العاشرة والربع وتدافع الجميع نحو المشاغل؟

ـ كنت أتطلع إلى نهاية أُفقي يا ماريا نافارو. أول أُفقٍ حقيقي في حياتي.

- إنّك تأخرت عن البيت، لاشك في أنهم ينتظرونك هناك.

أمسكت شفة ماريا نافارو السفلى وقبلتها، أمسكتها من ذراعها وعدوت نحو الميناء، وكان الناس يتساءلون: من هذه المرأة مع سيلفيو العاقل؟

أمسكتُ ماريا نافارو من ذراعها، كم هي حارةٌ ذراعها. وعدونا معاً إلى الميناء، تطلعتُ بشفقةٍ إلى بيتنا المتداعي، وكانت هناك باخرة متوجهة إلى أول ميناء، صفّرت وأبحرنا.